مصر والشرق الادنى القديم
المغـرب القـديم

مصر والشرق الأدنى القديم

(٩)

المغرب القديم

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران
استاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير ـ الأزاريطة
الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

مولانا وسيدنا محمد وآله الكرام

« اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم، فى العالمين انك حميد مجيد»

إهداء

الى ولــــدّى

عصــام وامـــل

أهــدى هــذا الكتـــاب

تقديم

قدمنا فى الأجزاء الثمانى الأولى من هذه السلسلة « مصر والشرق الأدنى القديم» دراسة عن تاريخ مصر القديمة وحضارتها ـ فى الأجزاء الخمس الأولى ـ فضلا عن تاريخ العرب القديم وحضارتهم ـ فى الجزأين السادس والسابع ـ ثم بلاد الشام فى الجزء الثامن .

ونقدم اليوم فى هذا الجزء التاسع من هذه السلسلة ، دراسة عن تاريخ المغرب القديم منذ أقدم العصور ، وحتى نهاية الحرب البونية الثالثة ، وبداية الاستعمار الرومانى للمغرب الشقيق ، فى عام ١٤٦ قبل مولد المسيح عليه السلام .

وليس هناك من ريب فى أن المغرب القديم ، انما قد تأثر الى حد كبير بموقعه الجغرافى ، الذى يربطه بأوربا ، فضلا عن افريقيا وبالصحراء الكبرى ، وما وراءها من أرضين وأقوام ، الى جانب ما يربطه بشرق حوض البحر المتوسط ، الأمر الذى أدى الى اتصاله بكل هذه البقاع المختلفة ـ سكانا وحضارة ـ وفى نفس الوقت فلقد تأثر المغرب القديم كثيرا بالبيئة المحلية نفسها .

ولا ريب فى أن هذه العوامل جميعا ، انما قد جعلت تاريخ المغرب القديم ، يجمع فى آن واحد ، بين الصفة المحلية والدولية معا ، وان كان ـ فيما قبل الحرب البونية ـ اقرب الى تاريخ الشرق الأدنى القديم ، منه

الى التاريخ الأوربى ، على عكس الفترة التى بدأت منذ الاحتلال الرومانى ، ثم استمرت على أيام الوندال والبيزنطيين ، حيث كان المغرب ابان هذه الفترة ، على اتصال وثيق بالجانب الأوربى ، كما كان تاريخه وقت ذاك يتداخل فيه القديم مع الوسيط.

ومع ذلك ، فالذى لاشك فيه ، أن تاريخ المغرب القديم ، انما كان – فى معظمه – جزءا من تاريخ الشرق الأدنى القديم ، تعرض للضغط الخارجى ، يوم تعرض هذا الشرق لهذا الضغط أو ذاك ، ونعم بخيراته ، وتمتع بحريته ، يوم أن كان هذا الشرق فى أيدى أبنائه ، ولاقى مالا قى هذا الشرق ، يوم أن كانت قوى أجنبية تتحكم فى مصايره ، وتجنى خيراته ، وتمتهن كرامته ، وتفقده القدرة على أن يعمل لمصلحته ، ومن ثم فليس عجبا أن كان تاريخ المغرب القديم متأثرا بتاريخ الشرق الأدنى القديم ، ومؤثرا فيه .

وظل الأمر كذلك ، حتى اذا كان العقد الخامس من القرن السابع الميلادى ، بدأت طلائع النور من مهبط الوحى فى بلاد العرب تهل – عن طريق مصر – الى المغرب ، تحمل معها هداية الاسلام ، ونور الايمان ، وما أن يمضى حين من الدهر ، حتى آمنت أقوام المغرب بربها الواحد الأحد ، واعتنقت الاسلام – دين الله الخالد ، والى الأبد ان شاء الله – ونطقت بالعربية ، لغة القرآن الكريم ، وتحررت من دنس الاستعمار ، وعبادة غير الله الواحد القهار ، وسرعان ما أصبحت احدى حصون الاسلام المنيعة ، وسوف تظل كذلك – ان شاء الله – الى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها ، وما عليها ، بعون من الله تعالى ، وبهدى من سنة رسول الله ، ﷺ ، وبتعاون وثيق مع العربيات الشقيقات .

والله أسأل أن يكون فى هذه الدراسة بعض النفع ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ٠

«وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب» ،،،

دكتـــور
محمــد بيــومى مهــران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية

بولكلى فى { الأول من يناير عام ١٩٩٠م
الرابع من جمادى الآخرة عام ١٤١٠هـ }

الباب الأول

عصور ما قبل التاريخ

الفصل الأول

العصر الحجرى القديم

مرت منطقة المغرب القديم ــ أو الشمال الافريقى ــ كغيرها من مناطق الشرق الادنى القديم بعصور ما قبل التاريخ فى مراحله المختلفة، من العصر الحجرى القديم الاسفل الى الاوسط فالاعلى ، ثم بمرحلة العصر الحجرى الحديث ، وقد استمرت هذه المراحل ــ من الناحية الزمنية ــ منذ ظهور الانسان فى المغرب وحتى نهاية العصر الحجرى الحديث ، حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ، طبقا للمصادر الكلاسيكية ، وان أرجعتها الادلة الاثرية الفينيقية الاولى الى القرن الثامن قبل الميلاد ، بل قد استمر ــ الى حد ما ــ فى بعض المناطق الداخلية الى العصر التاريخى ، ولنتحدث الان عن العصر الحجرى القديم بمراحله المختلفة .

(١) العصر الحجرى القديم الاسفل

يذهب الباحثون فى حضارة العصر الحجرى القديم الاسفل الى أن آثار موقع «عين حنش» ــ بسطيف فى الجزائر ــ انما تمثل أقدم جهد انسانى فى صناعة الادوات الحجرية فى شمال أفريقيا ، وذلك على أثر العثور على قطع حجرية من الحجر الجيرى يقترب شكلها من الشكل الكروى ، وتتميز بكثرة أضلاعها وزواياها ، غير أن الاتجاه الحديث انما يذهب الى أن موقع «عرباوة» فى شمال سهول المغرب ، و «دوار الدوم» فى مجاورات العاصمة المغربية «الرباط» ، و «محجر دبريه» وموقع «ترديجه الرحلا» فى نواحى غابة المعمورة ، وجميعها غربى

المغرب الاقصى ، وقريبة نسبيا من المحيط الاطلسى ، انما هى أقدم من آثار «عين حنش»[١] .

ولعل السبب فى ذلك أن هذه المواقع انمـا تمثل جهدا صناعيا أكثر قدما من الكرات الحجرية المنتمية الى «عين حنش» ، وبالتالى فانها تمثل أقدم آثار صنعها الانسان فى المغرب الكبير فى أقدم عصوره ، هذا فضلا عن أنه قد عثر على موقع فى الجزائر ينتمى لهـذه المرحلة — وأعنى به المنصـورة — حيث كشف فيه عن طبقة أثـرية تمثل حضـارة الحصى المشـذب[٢] .

هذا وقد تميزت حياة الانسان الاقتصادية فى هذه المرحلة بالجمع والالتقاط ، ولذا فـان استقراره فى الكهوف وحـول العيـون والابار والاودية ، انما كان استقرارا مؤقتا ، فسرعان ما ينتقل الى مكان آخر يبحث فيه عن طعام جديد ، وقد نجح هذا الانسان الاول فى بداية تطوير حياته بصنعه الآلات الحجرية الاولى كالفؤوس اليدوية[٣] .

بقيت الاشارة الى أن النعام انما كان هو الطائر الوحيد الذى تأكد وجوده أثريا فى مرحلة العصر الحجرى القديم الاسـفل والاوسط فى المغرب ، كما أشار الى ذلك «فوفرى» فى طبقة «ترنيفين» فى الجزائر ، ربما بسبب ظروف المغرب المناخية والنباتية ، وعلى أية حال ، فالمعروف أن طبقات عصور ما قبل التاريخ الاثرية فى المغرب — بوجه عام — لم تكد تخلو واحدة منها من بيض النعام أو قشوره[٤] .

---

(١) رشيد الناضورى — المغرب الكبير — الجـزء الاول — العصـور القديمة — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٧٥ — ٨٢ ، وكذا

L. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1955, P. 159, 174.

P. Bidetson, La Paleolithic Inferieur du Marco, Atlanique, Rabat, 1961, P. 494.

2) R. Hugot, L'Afrique Prehistorique, Paris, 1970, P. 21.

(٣) رشيد الناضورى : المرجع السـابق ص ٨٩ .

4) R. Vaufrey, Karthogo, 1955, P. 383.

(٢) العصر الحجرى القديم الاوسط

اكتشف انسان العصر الحجرى القديم الاسفل عددا من التجارب دفعته الى الانتقال الى العصر الحجرى القديم الاوسط ، والتى تتمثل بوضوح فى صناعة الادوات الحجرية ، وخاصة فى صناعة الشظايا ، والتى كانت تتطلب تدريبا طويلا ، يظهر فى عمليات ضرب الحجر فى زوايا معينة مما ينتج عنه هـذه الشظايا المتميزة بحدتها ، والمميزة لهذه الحضـارة ، وقد عثر على عدد من المواقع الاثرية تتضمن آثار مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط ، فى بلاد الشمال الافريقى ، من ليبيـا شرقا ، وحتى المحيط الاطلسى غربـا •

هذا ويطلق العلماء على هذه المرحلة الحضارية من عصـور ما قبل التاريخ اسم «الحضارة العاترية» — نسبة الى موقع «بئر العاتر» فى وادى جبانة قريبا من قسطنطينية فى الجزائر ، على الحدود بينها وبين تونس — وكان «فردريك مورو» أول من أشار الى الصناعة العاترية فى عام ١٨٨٨م ، وذلك عندمـا التقط «أدوات مذنبة» فى وادى سليحـة (جنوب غرب قفصة) ، وان كان «كرير» قد سبقه الى ذلك ، عندما نشر عام ١٨٨٦م عن مواقع مـا قبل التاريخ فى «وهـران» ووصفها بأنها «موستيرية» وان كانت الحضارة العاترية — رغم تشابهها مع الحضارة الموستيرية فى كثير من الوجوه — انمـا تختص بالادوات المذنبة[٥] •

وفى عام ١٩١٩م نشر «ريجاس»[٦] دراسة عن التقنيات الحجرية القديمة فى شمال أفريقيا ، كما أشار الى اكتشاف الموقـع الموستيرى النموذجى (الاوبيرة) ثم اكتشف موقع «بئر العاتر» وعثـر فيه على الصناعة العاترية تحت عمق ثلاثة أمتار فى نفس الطبقة ، مع الصناعة

---

5) A. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Arts et Metiers graphiques, Paris, 1955, P. 269.

(٦) انظـر :
M. Reggasse, Etudes de Palethnologie Maghrebine (Nouvelle Serie), L'Anthropologie, 25, 1919-1920.

الموستيرية ، ومنذ ذلك التاريخ دأب «ريجاس» على استخدام مصطلح العاترية ، بدلا من الابيرة ، ثم أقر «مؤتمر مونبيلييه» عام ١٩٢٩م هذا المصطلح ، ويعنى التقنيات المرستيرية ذات الادوات المذنبة(٧) .

وعلى أية حال ، فلقد وجدت العاترية بمظهرها الصميم فى كثير من المواقع والطبقات الاثرية فى جميع أنحاء المغرب ، فوجدت فى الرسومات السطحية لوادى جبانة ووادى جـوف الجمل وكاف الاحمـر ووادى سرديس ، وفى رمال جبل عواش ، وفى عقلة شعاشع ، وفى كل رسوبات مقاطعة قسطنطينة ، وفى رواسب الرمـل الاحمر على طول السـاحل الجزائرى فى كارويه وضواحى بنزرت وغيرها ، وفى كهوف المملكة المغربية، فى الخنزيرة ، وفى الرواسب السطحية لوادى جوربا وكهوف دار السلطان وتافورال ، وبيت مليل والحنك(٨) .

هذا ويبدو أن الانسان فى هـذا العصر ، قد اسـتعمل — بجانب الحجر — الاخشاب والجلود والعظام وبيض النعام أو قشوره ، كما بدأ يدرك حقيقة وجود قوى خفية تتحكم فى الحياة الانسانية والحيوانية والنباتية والطبيعية ، وأراد تجسيم هـذه القوى فى أماكن معينة لكى يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره(٩) .

هذا وقد اختلف الباحثون حول المناخ الذى ساد الشمال الافريقى ابان عصر الحضارة العاترية ، فمن يرى أن المناخ كان رطبا حارا (أى آخر فترة مطيرة) ، ومن يرى أنه كان جافا ، ومن يحاول التوفيق بين الاتجاهين ، فيذهب الى أن المناخ انما كان وقت ذاك يتميـز بالرطوبة الشديدة ، مع انخفاض قليل فى درجة الحرارة(١٠) .

---

(٧) أم الخير العقون : العلاقات الحضـارية والسياسية بـين مصر وشمال أفريقيا منذ أقدم العصور حتى نهاية الالف الثانى قبل الميـلاد — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٧ .

8) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 106.

(٩) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٠٥ .

10) H. Alimen, Prehistoire de L'Afrique, Ed. N. Boubee, VI, Paris, 1955, P. 63-64.

وعلى أية حال ، فالرأى عند «كاتون طمبسون» أن موقع الخنزيرة (طبقة أ) فى المغرب الاقصى ، انما يمثل أقدم مرحلة للعاترية فى الشمال الافريقى[11] ، ثم انتشرت جنوب الاطلسى الصحراوى فى العصر العاترى الوسيط ، ثم الى الشرق حيث وجدت بعض المواقع العاترية فى ليبيا ، كما فى وادى ما صودا ، ووادى درنة ، اللذين اكتشفهما «ماك برنى» عام ١٩٤٩م ، ووصفهما باللفلوازيه الموستيرية ، ومن ثم فقد أصبحت منطقة الجبل الاخضر فى ليبيا بمثابة جسر انتقال الحضارة العاترية من الشرق الى المغرب أو العكس ، وتذهب «كاتون طمبسون» الى أن العاترية سرعان ما انتقلت الى الواحات المصرية — سيوه والداخلة والخارجة — حوالى العصر الحجرى القديم الاعلى المبكر ، بدليل وجودها فى واحة الخارجة فوق طبقة اللفلوازية مباشرة[12] .

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى — طيب الله ثراه — الى أن «ستون كان» (H. W. Seton Ken) و «كومنجتون» (C. W. Cummington) انما قد عثرا فى واحة سيوه على بعض الادوات التى نسباها الى تأثيرات غربية (شمال أفريقيا) ، ووصلت مصر أثنـــاء اعصر الحجـــرى القديم الاعلـــى[13] .

وعلى أية حـــال ، فهنـــاك من يذهب الى أن الصـــناعة العـــاترية (العاطرية) قد وصلت الى مصر فى العصر الحجرى القديم الاوسط ، ولعل أهم مواقعها انما كانت تلك التى كشف عنهـــا «ساندفورد» على مقربة من نقادة ، وفيما بين دندنرة والمراشدة ، فضلا عن تلك التى على مقربة من نجع حمادى (بمحافظة قنا) وأسيوط ، الى جانب ما كشف عنه «سليجمان» فى ضواحى طيبة «الاقصر» ، وفى العرابة المدفونة (مركز البلينا — بمحافظة سوهاج) ، وأخيرا فلقد كشفت «كاتون — طمبسون»

---

11) Caton-Thompson, The Aterian Industry, its Place and Signitiance in The Paleolithic World, in JRAI, V, 1946, P. 115.
12) G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, Kharga Oasis in Prehistory, London, 1952, P. 31.
13) A. Fakhry, Siwa Oasis, Cairo, 1944, P. 71.

عن وفرة من الصناعة العاطرية فى واحة الخارجة(١٤) ، بل ان هناك ما يشير الى وصول النماذج العاطرية التى وجدت فى مصر الى المملكة العربية السعودية(١٥) .

هذا وقد اختلف الباحثون حول أصل هذه الحضارة العاطرية ، فهناك من ينسبها الى الشمال الافريقى ، ويرى أنها ظهرت فى غرب الجزائر ، وفى المغرب الاقصى ، ثم بعد ذلك فى شرق الجزائر وتونس(١٦) ، على أن هناك وجها آخر للنظر تذهب صاحبته — كاتون طمبسون(١٧) — الى احتمال أصل أسيوى لصناعة النصال العاترية انتقل الى شمال أفريقيا باعتبار الحضارة السبيلية مرحلة انتقال(١٨) .

ويذهب أستاذنا الدكتور الناضورى الى أن الصناعة العاترية تشبه صناعة «الحضارة اللفلوازية الموستيرية الفلسطينية» فى الانتاج الصناعى وفى انتماء كل منهما لفترة زمنية واحدة ، وقد طبقت طريقة «كربون ١٤ المشع» على بعض البقايا المتفحمة التى عثر عليها فى المواقد فى طبقات «كهف هوافتيح» فى منطقة وادى درنة ، فأدى الى تقدير عمر هذه البقايا بحوالى ٤٣٠٠٠ ق.م ، كما أن هناك شبها بين البقايا العظمية الانسانية من هذه المرحلة وبين «الانسان النيدرتالى الفلسطينى» ، وقد أدى ذلك كله الى وجود صلات حضارية وبشرية بين غربى آسيا

---

14) C. Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, fig. 31-35, P. 128-129.

K. S. Sandford and W. J. Arkell, Paleolithis Man and The Nile Fayum Divid Chicago, 1933, P. 116-118, Fig. 47-52.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, in GL, LXXX, 1932, P. 404.

15) R. M. Gramly, Neolithic Flin Implement Assemblages from Saudia Arabia, in JNES, 30, 1971, P. 177-185.

G. Caton-Thompson, in JRAI, LXXVI, 1946, P. 89.

16) L. Balout, Op. Cit., P. 334.

17) G. Caton-Thompson, The Aterian Industry, its Place and Signetiance in the Palealithic World, in JRAI, V, 1946, P. 119.

(١٨) أنظر عن الحضارة السبيلية (محمد بيومى مهران — مصر — الجزء الأول — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠١ — ٢٠٦) .

ــ وخاصة فلسطين ــ وبين المغرب ــ وخاصة برقة (شمال شرقى ليبيا)، الامر الذى يدل على وجود جانب شرقى ــ فضلا عن العناصر المحلية ــ فى حضارة العصر الحجرى القديم الاوسط فى المغرب[١٩] •

(٣) العصر الحجرى القديم الاعلى

يقسم «مـاك برنى» العصر الحجـرى القديم الاعلى الى أربعة مراحـل متعاقبة[٢٠] ، ففى أوله تسـود المناطق الشرقية ــ الجبـل الاخضر ــ صناعات تنسب الى كهف «حجفة الضبع» (حكفت الضبعة) يعزى قدومها من الشرق ، ثم يلى ذلك النطاق منطقة صناعات سظايا تمثل الاطوار النهائية من اللفلوازية وان حلت محلها بعد ذلك صناعات «حكفت الضبعة» التى يصل تأثيرها الى تونس ، وشرق الجزائر ، وفى مرحلة ثالثة ــ يفترض لها ماك برنى سنوات ١٠٫٠٠٠ ، ٩٫٠٠٠ ق•م ــ تسود الصناعات الوهرانية منطقة الساحل الليبى حتى برقـة ، وربما مصر السفلى ، وفى المرحلة الرابعة ــ ويفترض لها ماك برنى فيما بين عامى ٩٫٠٠٠ ، ٥٫٠٠٠ ق•م ــ تأخذ الحضارة القفصية فى الازدهار والانتشار لتشمل كل الشمال الافريقى ، وتحل محل الوهرانية ، وان كانت القفصية تتطـور فى «سرت» الى نوع من الصـناعات القزمية المتميزة Microlithic يمكن تسميتها «الميكروليثية السرتية»[٢١] •

هذا وتتمثل حضارة العصر الحجرى القديم الاعلى فى حضارتين ،

---

(١٩) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٩٦ ــ ٩٨ وانظر :
C. B. M. Mc Burney, The Stone Age of The Northern Africa, London, 1960, P. 168.

(٢٠) قارن تقسيمات اخرى تذهب الى تقسيمها الى ثلاثة مراحل : الاولى وهى المرحلة السابقة على القفصية ، وأما المرحلتان الاخريـان ، فهما متزامنتان ومعاصرتان للحضارة القفصية •

(٢١) حسن الشريف : تقييم مقارن لمواقع حضارات عصور ما قبل التاريخ ــ مجلة البحوث التاريخية ــ العدد الثانى ــ ليبيـا (بنغازى ــ طرابلس) ١٩٨٦ ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ ، وكذا
Mc Burney, (C. B. M.), The Stone Age of Northern Africa, London, 1960, P. 225.

الواحدة : الحضـــارة الوهرانية (الحضارة الايبرو مغربيـــة)[٢٢] ، والاخرى : الحضارة القفصية ، وقد توصل الانســـان فى هذه المرحلة التى تمثلت فى عدد من المواقع الاثرية المنتشرة من منطقة الجبل الاخضر فى ليبيا ، وحتى ساحل المحيط الاطلسى ، الى صنع أسلحة حجرية دقيقة عرفت باسم «الادوات الميكروليثية» Microlithic ، الامر الذى يدل على خبرة دقيقة بالصناعات الحجرية[٢٣] •

هذا ويذهب أستاذنا الدكتور الناضورى[٢٤] الى أن هناك عددا من المواقع الاثرية التى تمثل الانتقال الحضارى من العصر الحجرى القديم الاوسط الى العصر الحجرى القديم الاعلى ، ذلك لان هذه النقلة انما كانت — كغيرها من مراحل الانتقال — تدريجية ، وعلى أية حال ، فهناك ثلاثة مواقع أثرية رئيسية فى منطقة اجبل الاخضر الليبية تمثل منطقة الانتقال الحضارى هذه ، أولها : كهف حجفة الطيرة (حكفت الطيرة)[٢٥]، وتقع على مبعدة ٢٤ كيلا من بنى غازى ، عند تقابل الصحراء مع الوادى الساحلى ، حيث عثر على آثار مرحلة الانتقال فى أرضية الكهف ، فضلا عن الصنـــاعات النصلية ، وخاصـــة الاسلحة الميكروليثية والازاميل الدقيقـــة •

وثانيها : كهف «حجفة الضبع» (حكفت الضبعة) فى برقة ، حيث عثر على أسلحة كثيرة مختلفة الاحجام ، مما يؤكد اعتبارها منطقة انتقال

---

(٢٢) الايبرو- مغربية : مصطلح أطلق على حضـــارة موقع مويلح (وهران الجزائر) على أساس وجود صلة تربط حضارة النصال فى أسبانيا، والوهرانية فى شمال أفريقيا ، غـــير أن الابحاث أثبتت عدم وجـــود هذه الصلة ، هذا فضلا عن أن البعض عرب المصطلح (Iberaumaurisien) الى «ايبرو موريتانيا» ، وهذا خطأ لأن موريتانيا اسم أطلقه الرومـــان على مملكتى : موريتانيا القيصرية فى غرب الجزائر ، وعاصمتها «شرشال» وموريتانيا الطنجية فى المغرب الأقصى ، وعاصمتها طنجة ، هذا فضلا عن أن الملاحة عبر مضيق جبل طارق لم تبدأ حتى حوالى ٤٠٠٠ ق٠م

(٢٣) رشيد الناضورى : المرجع الســـابق ص ١٠٦ •

(٢٤) نفس المرجع السابق ص ١٠٦ — ١٠٨ •

(٢٥) مثلت العاترية أيضا فى هذا الكهف ، وقد بحث فيه الايطالى Petrocchi فى عام ١٩٤١م وكذا «مال برنى» عام ١٩٤٨م (Mc Burney, Op. Cit., P. 192)

حضارى ، ذلك لان التوصل الى صناعة حجـرية جديدة لا يعنى أبدا الانقطاع الفجائى عن التقاليد الحضارية السابقة ، وانمـا المفروض منطقيا أن يسير التقليدان جنبـا الى جنب ، حتى يحـل القديم محل الجديـد .

وثالثهما «كهف هوافتيح»[٢٦] ، والذى تعتبر طبقاته الاثرية بمثابة سجل حى لتاريخ الانسـان فى هذه المرحلة ، وما تلاهـا حتى العصر التاريخى ، حيث عثر على كميات كبيرة من الاسلحة الحجرية المشابهة لصنـاعة حجفة الطيرة ، ولنتحدث الان عن الحضـارتين الوهرانيـة والقفصيـة .

(١) الحضـارة الوهرانيـة :

نسبت هذه الحضارة الى «وهران» ، وقد كشف عنها «بول بالارى» (Paul Pallary) فى عام ١٨٩٩م فى وادى مويلح ، على مقربة من مدينة مغنية فى غرب الجزائر ، وأطلق عليها اسم «ايبرو ـ مغربية» ، اعتقادا منه أن هناك صـلة تربطها بحضـارة العصر الحجرى القديم الاعلى فى شرق أسبانيا ، وان أثبتت المقارنة بين المواقع المختلفة عـدم وجود هذه العلاقة ، ومن ثم فقد أطلق عليها «فوفرى» اسم «الحضارة الوهرانية»[٢٧] ، غير أن موقع مويلح انما كان متوسط الاهمية ، وأقل

---

(٢٦) كهف هوافتيح (Haua Ftcah) : كشفت عنه بعثة كمبردج فيما بين عامى ١٩٥١ ، ١٩٥٥م ، على مقربة من سوسة فى ليبيـا (الى الشرق قليلامن مرسى سـوسة ، وهى أبولونـا القديمة ، بمنطقة الجبـل الاخضر ، وأرخ له «كربون ١٤» ما بين ٩٠٠٠ ، ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، ويعد هذا الكهف من أكبر وأوسع كهوف عصور ما قبل التاريخ ، ربما فى كل حوض البحر المتوسط ، وشكله نصف دائرى بقطر ٨٠ مترا ، ويبعد عن ساحل البحر ببضعة مئات من الامتار ، وتوجد فى سطح الكهف اثار من عهد الاستيطان الاغريقى (القرن ٧ ق.م) ، ثم آثار الليبيين القدامى ، ثم أدوات من العصر الحجرى الحديث ، ومع أن عمق الحفريات وصل الى ١٣½ مترا ، غير أن عمق الترسبات غير معروف (أنظر عن كهف هوافتيح : C. B. M. Mc Burney, The Hawa Fteath (Cyrenatca) and The Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1967).

(٢٧) قارن : رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١١٦ ـ ١١٧ .

شأنا من موقع «أفلوبوريمال» بين جيجل وبجاية فى شرق الجزائر ، هذا فضلا عن انتشار مصطلح «ايبرو — مغربية» فى الابحاث الاثرية ، الامر الذى أدى الى الابقاء على هذا المصطلح ، رغم عدم دقته •

وعلى أية حال ، فالحضارة الوهرانية حضارة ساحلية ، وصناعتها غير دقيقة ، ومن مادة رديئة ، بل ويعدهـا الباحثون من أفقر صناعات عصور ما قبل التاريخ ، ويقسمها الباحثون الى ثلاث مراحل : الاولى سابقة للحضارة القفصية ، وتوجد فى موقع واحد قرب مدينة قفصة فى تونس حيث الادوات الكبيرة وعدم وجود أدوات ميكروليثية ، ثم نتجه شمالا الى موقع سيدى منصور فى تونس أيضا ، حيث وجدت الازاميل القزمية • والثانية والثالثة معاصرة لهـا ، وانتميزت المرحلـة الثانية بالادوات الميكروليثية ، فضلا عن تلك التى صنعت من عظم ، وقد وجدت فى مواقع عميقة فى المغرب الاقصى ككهف الخنزيرة ودار السلطان ومغارة تافورالت ، وأما المرحلـة الثالثة فقد وجدت فى مغـارة «كلومناتا» فى الجزائر ، وقد تميزت بأدواتها الميكروليثية ، وأنها تمثل أوج «الحضارة الايبرو مغربية»(٢٨) •

هذا وقد اختلف الباحثون فى تحديد مكان هذه الحضارة الوهرانية فى سلم التطور الحضارى فى هذا العصر ، فهناك من يراها متأخرة زمنيا ، أى أنها معاصرة للمرحلة الاخيرة من الحضارة القفصية ، ومن يرى لها أسبقية فى الصناعة النصلية على أسـاس أن بعض المواقع الاثرية فى نواحى الدار البيضاء انما تحوى خليطا من الاثار الوهرانية ، وبالتالى فان للحضارة الوهرانية أولوية فى الصناعة النصلية فى المغرب ، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى وجود صلات حضارية بين حضـارة «هوافتيح» فى برقة ، والحضارة الوهرانية ، وأخيرا فهناك اتجاه رابع

---

(٢٨) أم الخير العقون : المرجع السـابق ص ٣٠ — ٣١ ، وكذا
R. Vaufrey, Prehistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb Ed-Masson, Paris, 1955, P. 88-89.
وكذا
L. Balout, Op. Cit., P. 304.

يذهب أصحابه الى الاعتقاد فى وجـود صلات حضـارية بين المواقع الساحلية الاسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية ، وان اختلفت الاراء فى أيهما المصدر الاصلى لهذه الحضارة ، هل هو الجـانب الاوربى أم المغربـى[٢٩] •

وعلى أية حال ، فلقد انتشرت الحضارة الوهرانية فى تونس والجزائر والمغرب ، وان اختلفت مواقعها من الساحل قربا أو بعدا ، ففى تونس : وجدت مواقع : أكاريت ، وأدواته مطابقة لادوات كحفت الطيرة فى ليبيا ، و «أوشتاتا» ، وقد كشف عنه عام ١٩٥٣م ، ويعتبره البعض من أقدم مواقع الحضارة الوهرانية فى الشـمال الافريقى ، وفى «قلعة الصنم» على الحدود بين تونس والجزائر[٣٠] •

وأما مواقع الحضارة الوهرانية فى الجزائر ، فهى مواقع سـاحلية تمتد من عنابة وحتى أقصى المغرب الجزائرى ، وقـد وجدت فى عنابة وسوق وهران وبجاية ، وأما فى الوسط الجزائرى ، فتبعد المواقع عن الساحل ، ويتمثل ذلك فى اختراق انسان «مشـتا العربى»[٣١] (حامل الابيرو مغربية) للهضاب العليا ، كما فى موقع «الهامل» على مبعدة ٢٥٠ كيلا من الساحل ، وتشير القواقع البحرية فى هذه المواقع على اتصال بالمواقع الساحلية •

---

(٢٩) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١١٥ ـ ١١٧ •
L. Balout, Op. Cit., P. 375-377.
(٣١) كان مشتا العربى سكنا لأقوام طـوال القامة (١٧٢ سـم فى المتوسط) ومستطيلى الرؤوس ، لهم جبهة ضيقة ، وشفاه طويلة ، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطنا فى المغرب ، وكانوا يمارسون عادة خلع الاسنان القاطعة ، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس ، ونحافة الجسم فى أماكن معينة أظهرها «كولومناتا» (Columnata) فى غرب الجزائر • وذلك حوالى عام ٦٠٠٠ ق•م (أنظر : جيهان ديزانج : تاريخ أفريقيا العام ـ اليونسكو ١٩٨٥ ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ ، وكذا
L. Balout, Op. Cit., P. 346, 349-351.
وكذا G. Camps, Op. Cit., P. 81-88.
M. C. Chamla, Les Hommes epipaleolitheques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C. R. A. P. E, XV, 1970, P. 113-114).

هذا ويعد موقع «أفلو بوريمال» (Aflou bou Rhummel) على مقربة من بجاية فى الجزائر من أكثر المواقع أهمية لهذه الحضارة ، فلقد عثر «أرمبورج» فى حفائر عــام ١٩٢٨م على حوالى ٦٠ هيكــلا عظميا ، الى جانب مجموعة من الآلات الحجرية وغيرها ، وهناك موقع «كولومناتا» ــ على مبعدة ٢٠ كيــلا شمال تياريه ، ١٢٠ كيــلا مــن الساحل ــ وقد قدم لنا تتابعا طبقيا لثلاث مستويات حضارية من أسفل الى أعلى (وهرانية ثم قفصية عليا ثم عصر حجــرى حديث) ، كما أن صناعته ذات ســمة وسطى لتحول نحــو القفصية ، وقــد أطلق عليها «الكلومناتيه» •

هذا وتتميز حضارة العصر الحجرى القديم الاعلى من هذه المرحلة بوضوح الجانب الفكرى بشكل عام ، وتشير النقوش والرسوم الكثيرة التى تركها لنا انســان هذه المرحلة على جــدران الكهوف والارصــفة الصخرية الى حاجته للتعبير الذى بدأ يزداد نموا حــتى وصل آخر الامر الى قدرته على التعبير بالكتابة فى المرحلــة التاريخية ، كما تشير أيضا الى درجة فى التصوير والتعبير ، ربما لم يصل اليها حتى نهاية عصور ما قبل التاريخ ، وعلى أية حال ، فلقد أفادتنا هذه الرسوم وتلك النقوش فى معرفة طرق المعيشة والملابس ووسائل الصيد وأدواته لانسان هذا العصر ، فضلا عن الظروف المناخية والنباتية وقت ذاك ، ودور انسان هذا العصر فى الاسهام الفنى فى المغرب ، والذى سوف يمتد على نطاق واسع فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، وأخيرا فهناك ما يشير الى ممارسة أعمال أولية فى النحت •

بقيت الاشارة الى عادة تقطيع العظام البشرية فى مرحلة القفصية العليا ، ففى «مشتا العرب» عثر على غطاء جمجمة كان قد نشر وثقب وصقل ، وفى «كولومناتا» (Columnata) فى غرب الجزائر ، عثر على فك سفلى نشر كذلك ، وخضب بالمغرة ، ربما لان هذه العظام كانت

تستعمل كتعاويذ ، وربما لاستلهام بعض صفات أصحاب هذه العظام[٣٢]

هذا وقد بدأت الثقـــافة «الايبيرية الموريتانية» ـ بالمعنى الدقيق للكلمة ـ فى الاختفاء فى نهاية الالف التاسعة قبل الميلاد ، ولم يحدث هذا فجأة فى كل مكان ، ومع ذلك فقد حلت محلهـــا الثقافة القفصية فى «قورينائية» (Cyrenacia) (اقليم برقـــة) ، ولكن استسلامهـــا أمـــام الثقافات المحلية فى الجزائر الغربية ومراكش كان مشوبا بالتردد ، ولا يوجد دليل على وجودها فى الســـواحل الشمالية الشرقية لتونس أو فى الجزر الساحلية الصغيرة ، وتركت آثـــارا قليلة فى منطقة طنجة ، وانه لأمر بعيد الاحتمال جدا أن تكون قد وصلت الى جزر الكنارى ، كما هو الشـــائع ، ذلك لأن «الجوانشيين» (Guanches) رغم أنهم مشابهون أنثربولوجيا لرجـــال مشـــتا العربى ، فانهم لا يماثلونهم فى الحرف الصناعية والعادات ، ولم تأت هذه الثقافة من أوربا ، حيث أنها قامت قبل بداية الملاحة عبر المضايق ، ومن والى صقلية ، وهناك ما يحمل على الظن بأن أصولها كانت شرقية ، وربمـــا أتت من شمال ســـودان وادى النيل ، ومن ثم فما داموا قـــد أتوا تحت ضغط من الشـــعوب المهاجرة ، فلا شك أن «الايبيريين ـ الموريتانيين» (الايبرو مغربيين) اتخذوا ملاجىء فى التلال ، ويمكن أن يعتبروا أحد العناصر الانثربولوجية لسكان الجبـــال[٣٣] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى وجود صلات حضـــارية بين شرقى البحـــر المتوسط ـ وخاصـــة فلسطين ، وعلى الاخص مدينـــة

---

(٣٢) حسن الشريف : دراسة تاريخية لحضارة المغرب القديم أثناء العصر الحجرى الحديث ـ الاسكندرية ١٩٧٥ ص ٧٨ ـ ٨٣ ، وكذا
H. Camps-Fabrer, Matiere et Art Mobilier dans la Prehistoire Nord-Africaine, Saharienne, Mem. CRAPE, Paris, 1966, P. 206, 243.

(٣٣) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣٢ ، وكذا
L. Balout Op. Cit., P. 23.

«أريحا»[٣٤] — وبين المواقع الليبية (حكفت الطيرة ، وحكفت الضبعة ، وكهف هوافتيح) أثنــاء العصر الحجــرى القديم الاعلى ، وأن هــذه التأثيرات أو الصلات تمت عن طريق دلتا النيل ، غير أنه لم يعثر على آثار هذه الحضارة فى المنطقة ما بين دلتا النيل وخليج سرت فى ليبيا ، بينما وجدت فى هذه المنطقة أدوات الحضارة العاترية ، واستمرت حتى العصر الحجرى الحديث بدون انقطاع ، ومن ثم فقد بــدأ العلماء فى البحث عن طريق آخر لمرور هذه الحضارة من غربى آسيا الى ليبيا •

هذا، وقد أصدر «فيلب جيمس»[٣٥] عام ١٩٨٣م دراســة عن ٢٧ موقعا أثريا ، تقع فى المنطقة ما بين أسوان والاقصر ، وتنتمى جميعها الى العصر الحجرى القديم الاعلى ، وكان من بينها موقعان يقعان على

---

(٣٤) أريحا (جريكو = Jericbo) : ومعناها مدينة القمر ، أو مكان الروائح العطرية ، وهى مدينــة هامة تقع على مبعــدة ٨ كيلا غربى نهر الاردن ، ٢٧ كيلا شمال شرق القدس ، أما «أريحا» التى جاء ذكرها فى التوراة فمكانها «تل السلطان» ، على مبعدة ميل واحــد من مدينة «أريحا» الحديثة ، وقــد أثبتت الحفريات التى أجــريت فى «تل السلطان» ، على أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم ، وقد اكتشف فيها فخار من أقدم فخار العالم ، كما عثر فى أريحا على آثار الحضارة النطوفية بصورة متصلة حضاريا ، تؤكد الانتقال الفعلى نحــو مرحلة الاستقــرار وانتاج الطعام (أى مرحلة ما قبل النيوليتيه ، كما عثر على آثار مرحلة العصر الحجرى الحديث الصميم ابتداء من الطبقة التاسعة ، وكان أول من قام بالحفر فى أريحــا «ارنست سيللين» و «كــارل فتزنـجر» فى الفتــرة (١٩٠٧ ــ ١٩٠٩م) ، ثم «جون جارستانج» فى الفترة (١٩٣٠ ــ ١٩٣٦) ثم «مس كاثلين كنيون» منذ عام ١٩٥٢م (أنظر : رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ١١٧/١ ــ ١١٩ ، ٢٤٠ ، محمد بيومى مهران : أسرائيل ٦٠٥/٢ ، قاموس الكتاب المقدس ٥٩/١ ، وكذا

E. Sellin and C. Watzinger Jericho, 1913.

J. and J. B. E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, P. 13-43.

K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, P. 62-82, 1953, P. 18-95.

1954, P. 45-63, 1955, P. 108-117, 1956, P. 67-82 and in Scientifis American, 90, 1954, P. 76-82.

35) Phillips James, The Nile Valley Final Paleolithic and External Relations, University Microfilms International, Aim Albor, Michigan, U.S.A., 1983.

مبعدة ٨ كيلا شمال غرب اسنا (ربما غرب مدينة «حسفنت القديمة ، وهى المطاعنة الحالية) ، وقد عثر فيها على كميات ضخمة من النصال ، بلغت فى الموقع الاول ١٠١٩٤ ، وفى الثـانى ٢١٥٠٢ نصلا ، وأن أحد الموقعين يشبه تشذيب ادوات أوشتاتا» فى تونس ، كمـا اتبع فى صنع أدواتـه نفس التقنينات التى اتبعهـا انسـان موقع « أوشـتاتا » Ouchtata ، وأن الموقـع الثـانى (وقد انتقـل اليه أصحـابه من الموقع الاول) يشبه كثيرا من حيث التقنية والشكل موقع «الهامل» ، والذى يبعد عن السـاحل الجزائرى بحوالى ٢٥٠ كيلا ، كما أشرنا من قبل ، وقد خضع الموقعـان لعملية التأريخ بواسطه «كربون ١٤)[٣٦] المشع ، فأرخ لها بفترة لا تقل عن ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وبالتالى فهما سابقان لموقعى شمال أفريقيا[٣٧] .

وانطلاقا من هذا ، فان «فيلب جيمس» — وكذا «بالوه» — يتفقان على أن التأثير الذى وقع على شمال أفريقيا انما قدم من الشرق — من السواحل الليبية أو وادى النيل — وليس من الصحراء ، وأنه لم يكن مقصورا على الاداة فقط ، وانما امتـد كذلك الى الملامح الجسمانية ، خاصة وأن انسـان النوبـة وقت ذاك انمـا كان يشبه رجل «مشـتا العربى»[٣٨] ، وبالتالى فان أصل الحضارة الايبيرو مغربية (الوهرانية) من وادى حلفـا (السـودان) وليس من مصر ، خاصة وقـد كشف «فاربردج» فيما بين عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٢م عن ستة مواقع ذات أدوات

---

(٣٦) أنظر عن التقويم بكربون ١٤ (محمد بيومى مهـران : مصر — الجزء الاول — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٧٠ — ٢٧٤ ، وكذا

W. F. Libly, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.

R. M. Derricourt, Radio Carbon Chronology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.

H. S. Smith, Egypt and C 14 Dating, Anliguity, 1964.

C. Flight, A Surjey of Recent Results in The Radiocarbon Charonology Northern and Western Africa, JAH, 14, 1937.

37) Phillips James, Op. Cit., P. 35, 130, 202.

38) Fred Wendorf, The Prehistory of Nubia, I, Dallas-Texas, U.S.A., 1968, P. 32.

ميكوروليثية ميزتها انصـــال ذات القاعدة فى منطقة شمال وادى حلفـــا (٣٤٠ كيلا جنوب أسوان) ، وأطلق عليها «حضارة حلفا» ، وتظهر أهمية هذا الكشف الاثرى فى أمرين ، الواحد : أنه يكشف لنا عن أول صناعة ميكروليثية فى أفريقيا ، والاخــر : أنه تم فى هذه المواقع الستة تطــور الصناعة من التشظية الى النصال (وهى تقنية جديدة) •

ولعل مما تجدر الاشـــارة اليه أن هذه الصناعة ميكروليثية تماما ، ومبكرة جدا فى أفريقيا ، ولا علاقة لها بالحضارة السبيلية (نسبة الى قرية السبيل ، فى مجاورات مدينة كوم ، بمحافظة أســوان) ، وتمثل صناعة نصال قزمية فى وادى النيل ، ومبكرة عن باقى مناطق أفريقيا ، ولقد أرخ لها «كربون ١٤» بحوالى ٧٠٠٠ ســنة قبل الميــلاد ، وتمثل النصال فيها نسبة ٩٢,٧٪ من مجموع أدواتها[٣٩] •

هذا وقد نزحت هذه الحضارة شمالا الى «اسنا» (بمحافظة قنا) ، وسكن أصحابها فى غربى «حسفنت» (المطاعنة الحالية ـــ مركز اسنا)، كما وجدت فى «بلانة» (٣٠ كيلا شمالى وادى حلفـــا) بالنوبة المصرية القديمة (النوبة السفلى) ، ويؤرخ لموقع بلانة هذا بحوالى ١٤,٠٠٠ ســنة ق•م (طبقـــا لكربون ١٤) ، ويؤكد «وندروف» أن الحضـــارة الايبرو مغربية ظهرت فى شمال أفريقيا حوالى ١٢,٥٠٠ سنة ق•م ، وقد نزحت من مصر ـــ وليس من أوربا ـــ وأن أصحابها انما كانوا يعيشون على طول نهر النيل ، قبل أن تنتقل الى شـــمال أفريقيا ، وبالتالى فان موقعى «وادى حلفا» و «بلانة» انما هما سابقان زمنيا ، ومن ثم فهما يمثلان السلف المباشر للحضارة «الايبرو مغربية»[٤٠] •

(٢) الحضـــارة القفصيـــة :

سميت هذه الحضارة بالقفصية نسبة الى المدينة الرومانية القديمة

---

(٣٩) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٣٨ ـ ٤١ ، وكذا
F. Wendorf, Op. Cit., P. 457.

40) Fred Wendorf, The Prehistory of Nubia, II, 1968, P. 1050, 1057.

(Capsa) فى جنوب تونس ، وهى «قفصة الحـالية» فى اقليم قسطيلة ، شمالى شط الجريد فى تونس ، وأما الموقع النموذجى لهذه الحضارة فهو حقل الحلزون أو الرماديات ، وكان «دى مورجان» أول من حدد سمتها الصناعية[٤١] ، معتمدا على المادة الاثرية من موقع «المقطع» (على مبعدة ١٤ كيلا شمال غـرب قفصة) ، وقد قام كل من «فوفرى» و «جوبير» بحفائر فى هذا الموقع ٠

هذا وقد ظهر أصحاب هذه الحضارة حوالى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وهم قوم ذو قوام طويل رشيق ، من جنس البحر المتوسط ، وان لم يخلو من الصفات شبه الزنجية ، وقد ازدهـروا فى منطقة غير محددة تماما ، وان كانت على وجـه اليقين فى الجـزء الداخلى ، دون الامتداد — على ما يظهر — الى أقصى الحدود الغربية لشمال أفريقيا ، أو الى الصحراء الجنوبية ، وقد انتهت هذه الحضارة القفصية حوالى عام ٤٥٠٠ ق٠م[٤٢] ٠

هذا وقد أطلق العلماء الفرنسيون على مواقع الحضـارة القفصية «الحلـزونيات أو الرماديات» Escargotieres ، وهى ركام من الرماد أو الحجارة التى استعملت كأوانى للطبخ لنوع من القواقع ، وتبلغ أبعادها أحيانا ٢٠٠ مترا طولا ، ٥٠ مترا عرضا ، ٥ أمتار ارتفاعا ، هذا فضلا عن الادوات الحجرية التى كان يستخدمها الانسان ٠

وتدل الهياكل العظمية التى عثر عليها فى الرماديات على أن الانسان القفصى — والذى استمر وجوده حتى العصر الحجرى الحديث — مختلف عن انسان «مشتا العربى» (حامل الحضارة الايبرو مغربية) ، وأنه من جنس البحر المتوسط ، وان كان يحمل ملامح زنجية ، وقد مارس هذا الانسان عادة صقل الحجارة فى صنع الكرات المثقوبة — والتى ربما كان

---

41) J. De Morgan, Les Premieres Civilizations, Paris, 1901.

(٤٢) جيهان ديزانج : تاريخ افريقيا العام ص ٤٣٢ ، وكذا
G. Camps, Op. Cit., P. 159, 262.

يستخدمها لدق وطحن الحبوب البرية ، وان لم يثبت عدم معرفته للزراعة — ، كما استخدم الفخار ، ومارس عادة قلع الاسنان ، بطرق تختلف عند الرجل عنها عند المرأة ، فبعضهم تقلع أسنانه العلوية ، وبعضهم تقلع أسنانه السفلية ، وان لم يعرف الهدف من هذه العادة حتى الان(٤٣) .

وهناك ما يشير الى بداية التعبير الفكرى عند انسان الحضارة القفصية ، الامر الذى سوف تتحدد ملامحه بصورة واضحة فى العصر الحجرى الحديث ، هذا فضلا عن ممارسة النقش على قشور بيض النعام ثم صياغتها فى حبات لنظم عقود الزينة ، ومن المعروف أن استعمال قشور بيض النعام انما كانت من مظاهر الصناعات الاصلية فى الشمال الافريقى فى المرحلة التى أعقبت العاترية(٤٤) .

هذا وقد انتشرت الحضارة القفصية حول موارد المياه والاماكن الصعبة المنال فى تونس وشرق الجزائر ، وخاصة فى منطقة «تبسة» ، حيث وجدت بها ما يزيد عن تسعين «رمادية» ، ولعل من أهم مواقعها : عين مترشام وبئر أم على وعين دوكازة وبئر حميرة وعين غيلان وواد مدفون وكف ركنية وخنقة موحاد وفم السلجة وفج ابراهيم والمقطع ورديف ، وتشير مواقع سكنى القفصيين هذه — فيما يرى بالوه — الى أن القوم انما كانوا غزاة ، لا يحسون بأمان فردى أو جماعى ، ومن هنا كانت سكناهم فى مواقع صعبة المنال ، فضلا عن سيطرتهم على موارد المياه(٤٥) .

على أن القفصية الصميمة لم تمتد الا فى الجزء القارى من جنوب تونس ، وتتفق حدودها مع مقاطعة قسنطينة الجزائرية ، ولا تصل

---

43) R. Fauvrey, La Prehistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb, Paris, 1955, P. 127, 257.

وكذا L. Balout, Op. Cit., P. 18.

44) H. Alimen, Op. Cit., P. 78.

45) L. Balout, Op. Cit., P. 399.

الى الساحل الشرقى ، كما أنها فى الغرب لا تتعدى الكتل الجبلية لجبال أطلس ، ولا تتجاوز شمالها ، ثم هى بعد ذلك لا وجود لها فى الصحراء أو مقاطعات الجزائر ووهران ، فضلا عن المغرب الاقصى ، ومن ثم فقد اعتبر البعض مرحلة القفصية الصميمة مرحلة حضارية قصيرة الاجل(٤٦) .

وأما القفصية العليا ، فقد شـملت كل منطقة القفصية الصميمة ، فضلا عن أنها زحفت الى الشمال ، ولكن دون الاتجاه نحـو الشرق ، ووصلت الى الحد الشمالى للهضاب العليا ، ولكن دون بلوغ البحر ، أما من جهة الغرب فهى لم تتجاوز خط التنصيف لمدينة الجزائر ، الذى يرى فيه «فوفرى» الحد الغربى للقفصية العليا ، وعلى أية حال ، فلقد أرتبط انتشار الحضارة القفصية بأماكن وفرة الظران(٤٧) .

هذا وقد قسم «بالوه» الصناعة القفصية الى مرحلتين ، مرحلـة القفصية النموذجية ، وتشـمل أدوات كبيرة من نصـال وأزاميل ، ثم تطورت الى القفصية الحديثة التى تتميز باتجاه صناعتها الى الادوات القزمية واتخاذ الاشكال الهندسية ، وقد أرخ «كربـون ١٤» للمرحلة النموذجية فى موقع «المقطع»(٤٨) بفترة تتراوح فيما بين ٦٦٥٠ ± ٤٠٠ سنة قبل الميلاد ، وللفترة الحديثة فى موقع «الماء الابيض» فى تبسـة بالجزائر ، بحوالى ٥٠٥٠ ± ٢٠٠ سنة قبل الميلاد(٤٩) .

هذا وقد ظهرت القفصية فى «كهف هوافتيح» فى الطبقـة (E) والتى امتدت زمنيا فيما بين عامى ٩٠٠٠ ، ٧٠٠٠ ق.م ، وفى هذا الكهف تبدأ الحضارة القفصية فى الانخفاض فى عدد الازاميل والمحكـات فى الطبقة «الايبرو مغربية» ثم ظهور اللون الاحمر على النصال الكبيرة ،

---

46) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 195.

47) Ibid., P. 241.

(٤٨) المقطع : الموقع الاثرى النموذجى للحضارة القفصية ، ويقع فى مجاورات مدينة قفصة ، ويتكون من ثلاث مرتفعات ، الاول شمال غرب قفصة ، والثانى على مبعدة كيلو متر شمال شرق قفصـة ، والثالث على الضفة الغربية لوادى بياش ، على مبعدة كيلو مترين جنوب شرق قفصة

49) H. Alimen, Op. Cit., P. 82.

ووجود قشور بيض النعام مزخرفة بأشكال هندسية ، ورصف عقود من هذه القشـــور[٥٠] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشـــارة الى أن عددا من الباحثين انما ينسبون آثـــار بعض المواقع الاثرية المصرية الى الصنـــاعة القفصية (نسبة الى قفصة فى اقليم قسطيلة ، شـــمالى شط الجريد فى تونس) — بما فى ذلك المستوى الثالث لقرية السبيل (فى مجاورات مدينة كوم امبو بمحافظة أســوان) ، وصناعة حلـــوان القزمية ، وكل ما نسبـــه «ساندفورد» و «أركل» الى الصناعة السبيلية الحديثة — معتمدين فى ذلك على أن الصناعة القفصية انما قد وجدت فى الشمال الافريقى وفى سورية وفلسطين — أى فى غرب مصر وشرقها — ومن ثم فمن الصعوبة بمكان ، أن لا توجـــد هذه الصنـــاعة فى مصر ، ثم يعللون قلة المواقع القفصية فى مصر ، بأن القوم فى أرض الكنانة انمـــا كانوا يقتربون فى السكنى من شواطىء النيل ، وأن الطمى الحديث للنيل ، ربما قد طمر بقايا الصناعة القفصية فى تلك المواقع[٥١] .

ولعل أهم المواقع التى نسبها بعض الباحثين الى الحضارة القفصية ، انما هى ستة مواقع اكتشفها الامير كمال الدين حسين فى منخفض عين دالة وشمال الفرافرة فى الصحراء الغربية ، وتبعد هذه المواقع الستة عن ينابيع المياه بما لا يزيد عن أربع كيلو مترات ، ومن أدواتها شـــظايا ، بعض منها طويل ، وآخر قزمى ، وكذا مكاشط ومحكات مقعرة ، ونصال مثلمة ، ومواقد صغيرة ، مع كسرات من قشور بيض النعام[٥٢] .

هذا وقد عثر «جيرودى كوتفيل» على مواقع للصناعة القفصية فى

---

50) G. B. M. Mc Burney, Op. Cit., P. 333.
51) R. P. Bovier-Lapierre, L'Egypte Prehistorique, Precis de L'Histoire de L'Egypte, Le Caire, 1932, P. 34.
52) Kamel El Din Hussein et R. P. Bovier-Lapierre, Recentes Explorations dans Le Desert Libyque-BIE, 1929-1930, XII, Le Caire, P. 123-126.

منطقتين ، الواحدة : حول طيبة (الاقصر) ، وتنتشر حول وادى المداموده بين الاقصر وخزام (على مبعدة ١٥ كيلا شمال الاقصر) ، فضـلا عن مواقع أخرى فى مصر العليا (الصـعيد) ، على مقربة من الصـحراء الشرقية ، وأما المنطقة الثانية فكانت فى الفيوم ، عند قناة هوارة (على مقربة من مدينة غراب) وفى عزبة جورج ، وجنوب جبال الروسى ، وقد وجدت أدوات هذه المواقع على السطح ، ويذهب الاثـرى «جيرودى كونفيل» الى أن هذه الصناعة القفصية الوافدة متقنة الصنع ومتفوقة على سابقتها (السبيلية) ، ومن ثم فهو يستبعد احتمال أن تكون الحضارة القفصية قد تطورت من الصنـاعة السبيلية ، والى هذا القـول يذهب «أدموند فينيار»[٥٣] أيضا أضف الى ذلك أن بعضا من الباحثين انما قد نسبوا آثارا لهذه الحضـارة «المستيرو — قفصية» فى شـمال مدينة حلوان ، بين خط السكة الحديد وعزبة الوالدة[٥٤] ، ويعتقد «جيرودى كونفيل» أن مصر قد شاركت فى تطور الصناعة الحجرية فى شمال أفريقيا، فضلا عن احتمال تطور صناعة قفصية فى مصر ، مشابهة للابيرو مغربية ، وذلك بوجود الالات الميكروليثية فى موقع حلوان عند فتحة وادى حوف ، وفى كوم امبو بمحافظة اسوان[٥٥] .

وعلى أية حال ، فرغم امكانية وصول مؤثرات قفصية الى مصر فى هذه الفترة من خواتيم العصر الحجرى القديم الاعلى ، فلعل من الافضل التحفظ بشأن هذه الاراء — وخاصة تلك التى ترى فى كل صناعة وجدت فى مصر تعقب الموستيرية ، انما هى صناعة قفصية أو قفصية متطورة[٥٦] — اذ أن كل ما عثر عليه انما هو لقية سطحية لبعض القطـع والآلات الحجرية ، زعم مكتشفوها أنها قفصية — كما فى نواحى أسوان والمداموود

---

53) G. Cotteville, L'Egypte avant L'Histore, BI FAO, 33, 1933, P. 28-34 .

54) A. J. Arkell and K. S. Sandford, Paleolithic Man and The Valley in upper and Middle Egypt, P. 116-118.

55) Giraude Cotteville, Op. Cit., P. 40.

56) Ibid., P. 28.

وحلــوان فى الوادى ، وعين دالــة فى الصحراء الغربيــة ، ومنخفض الخارجــة[٥٧] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى موقع نفاية قصب الســكر ، على مقربة من مصنع السكر فى نجع حمادى (بمحافظة قنــا) ، وعلى مقربة من المدينة الرومانية «ديوسبوليس بارفــا»[٥٨] ، حيث كشف «أدموند فينيار» عن مجموعة من الآلات الحجرية ، تتميز بوجود مجموعة كبيرة من الازاميل — فضلا عن بعض المحكات ، وقطع أخرى مشذبة ذات نمط خاص — ونظرا لان الازميل هو آلة الصناعة «الاورنياسية» المميزة — الى جانب اعتبارات تقنية أخرى — فقد نسب «أدموند فينيار» هذا الموقع الى «الاورنياسية الاوربية» ، وأن سكان هذا الموقع انما جاءوا الى مصر من سورية أو من تونس[٥٩] .

وقد أثار رأى «فينيار» هذا جدلا بين العلماء ، فذهب «هرمــان يونكر» الى أن هناك شبها بين موقع نجع حمادى هذا ، وبين المستوى

---

57) G. Caton-Thompson, Man, 32, 1932, P. 131-133.
K. Hussein et R. P. Bovier-Lapierre, Op. Cit., P. 126.
E. Massoulard, Prehistoire et Protohistoire de'Egypte, Paris, 1949, P. 23.
C. Seligman, The Older Paleolithis Age in Egypt, JRAI, 1921, P. 129-130.

(٥٨) ديوسبوليس بارفا : موكانها الان قريــة «هــو» ، وتقع على مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب مدينة نجع حمادى ، وربما كانت (هو) هذه تصحيفا للاسم المصرى القديم «حو» أو «حات» (والتى كان اسمها الكامل «حوت سخم نوت») عاصمة الاقليم السابع من أقاليم الصعيد ، ويسمى «حوت سخم» بمعنى «قصر الصاجات» ، هذا وقد سميت «هــو» كذلك «كنمت» بمعنى الكروم ، وهو اسم واحــة الخارجة المعروفة بخمرهــا ، وكانت تتبع الاقليم السابع هذا من الناحية الادارية (محمد بيومى مهــران — الحضارة المصرية القديمة — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٦٠ — ١٦١ وكذا

P. Lacau et H. Chevrier, Une Chapelle de Sesostris Ier a Karnk, Cairo, 1956, P. 225.
H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, IV, P. 45, 129, 130.

59) E. Vignard, une Station Aurignacienne A Nag-Hammadi, (Haute Egypte), Station du Champ de Bagasse, BIFAO, XVIII, 1921, P. 1-20.

الثانى للسبيلية ، وأنهما ربمـا كانا متعاصرين ، ويصـلان الى بداية «القفصية» ، بنما المسـتوى الثالث ــ والاكثر تطورا ــ ما هـو الا «القفصية» ذاتها[٦٠] ، وأما «دى مورجان» فقد عثر فى مواقع سطحية تنتمى الى هذه المرحلة على فؤوس صنعت بنفس التقنية التى صنعت بها فؤوس نجع حمادى[٦١] .

ويذهب الدكتور سليمان حزين الى أن الازاميل لا تعتبر دليلا مميزا لعصر الباليوليتى الاعلى ، فقد وجدت فى فلسطين فى زمن الآشـولية العليا ، كما عثر فى «أرمنت»[٦٢] على أزاميل ، بعضها يشبه تلك التى عثر عليها الاثرى الفرنسى «أدموند فينيار» فى نجع حمادى ، ثم يخلص ــ بعد عدة مقارنـات بين بعض الآلات الحجرية فى الموقعين ــ الى أن الواحد منها انما كان يعاصر الآخـر ، وأنهما ينتميان الى عصر الحجر والنحـاس[٦٣] .

على أن هناك افتراضا عكسيا يذهب أصحـابه الى أن السبيلية فى

---

60) H. Junker, Bericht uber die Von der Akademie de Wissenschaften in Wien Nach dem Westdelta Entsendete Expedition, Wien, 1928, P. 14.

61) J. De Morgan, la Prehistoire Orientale, II, L'Egypte et L'Afrique du Nord, Paris, 1926, fig. 86, 88, P. 31, 82.

(٦٢) أرمنت : كانت واحـدة من المدن الاربعة التى تكـون الاقليم الرابع من أقاليم الصعيد (طيبة والمدامو وطود) ، قبل أن ينتقل مركـز الثقل الى طيبـة (الاقصر) لتصبح العاصمة ، وتقع أرمنت على مبعـدة ١٥ كيلا جنوبى الاقصر (٧٤٧ كيلا جنوبى القاهـرة) ، وكان معبودهـا «مونتو» ، وقد سميت فى العهد الاغريقى «هرمونتس» ، وأصبحت منذ الاسرة التاسعة والعشرين تحوى جبانة العمل المقدس «بوخيس» (الموسوعة المصرية ١/٩٠ ، وكذا ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية ص ١٣٥ ــ ١٣٦ ، وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 116.

63) S. A. Huzayyin, The Place of Egypt in Prehistory, A Correlated Study of Climates and Cultures of The Old World, MIE, 43, 1941, P. 292.

R . Mond, O. H. Mayers, Cemeteries of Armant, London, 1937, P. 198-199.

مصر العليا هى المهد الذى ولدت فيه الحضارة القفصية ، وكل صناعة ميكروليثية أخرى ، غير أن «بالو» انما ذهب الى أن تقويم السبيلية لا يعتمد على تسلسل الطبقات ، وأن انقطاع الصلة بين انسان «نياندرتال» (حامل الصناعة الموستيرية) وانسان الصناعة القفصية ، لا يتفق مع وجود صلة تطور ، ومن ثم فان البعض انما يرى أن السبيليه والقفصية حضارتان ميكروليتان متشابهتان الى حد كبير ، من حيث التقنية والشكل، وخاصة فى المرحلة الاخيرة من تطورهما[٦٤] ، غير أن هذا الاتجاه لم يعد أن يكون مجرد فرض ، وليس نظرية علمية ، فضلا عن أن تكون حقيقة تاريخيـــة •

(٦٤) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٥٢ ، وكذا
L. Balout, Op. Cit., P. 416.

الفصل الثانى

العصر الحجرى الحديث

(١) تقديـــم :

ينظر الباحثون فى عصور ما قبل التاريخ الى مرحلة العصر الحجرى الحديث ــ بصفة عامة ــ على أنها نقلة هامة وحاسمة فى تاريخ الانسان ، ففى هذه المرحلة الخطيرة ينتقل الانســان من مرحلة الجمع والالتقاط والتجوال وعدم الاستقــرار الى مرحلة الانتاج والاستقرار المــادى والفكرى ، لأول مرة فى حياته ، ومن هنا كانت أهمية المرحلة السابقة مباشرة لهذا العصر ، والتى نظر اليها علماء عصور ما قبل التاريخ ، على أنها بمثابة ((ثورة)) ، أو تغيير حاسم فى حياة الانسان ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من المراحل الحاسمة فى تاريخ البشرية ، كمرحلة استخدام القوة البخارية فى القرن الثامن عشر الميلادى ، ومرحلة استخدام قوة الطاقة الذرية فى القرن العشرين الميلادى[١] .

وهكذا بدأ الانسان فى هــذا العصر الحجرى الحديث يســتقر فى جماعات ، قريبا من موارد المياه ، ثم سرعــان ما ألجأته الضرورة الى ضمان غذائه ، فاستأنس الحيوان وعرف الزراعة ، التى أصبحت حرفته الرئيسية ومن ثم فقد تحول من حياة الجمع والالتقاط والصيد الى انتاج الطعام ، وكان من الضرورى ، وقد عرف الزراعة ، أن يختزن محصوله ، فعرف صناعة الاوانى ، وبذلك أقام حياته على أسس اقتصادية ثابتة .

وهكذا بدأ الانسان فى هذا العصر ــ الذى شهد تحوله الى انتاج الطعام عن طريق التوصل الى معرفة الزراعة ــ فى اقامة القرى التى

---

(١) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٢٣ .

تضم عددا أكبر من المساكن والافراد ، والتى تعبر عن استقرار دائم ، ولم تعد مجرد استقرار موسمى ، كما كان عليه الحال من قبل ، وهكذا قامت المجتمعات المستقــرة التى أخذت تنمو ، حتى بلغ عدد ســكان «مرمدة بنى سلامة» (على مبعدة ٥١ كيلا شمال غرب القاهرة) — والتى تمثل أكبر قرية فى العصر الحجرى الحديث فى مصر — بلغ ، فيما يرى بعض الباحثين ، نحــوا من ١٦ ألف ، وهو عدد لا يستهان به فى ذلك الزمن الموغل فى القدم ، بل اننا نراه نوعا من المبالغة غير المقبولة[٢] •

وأيا ما كان الامــر ، فليس هناك من ريب فى أن مرحلــة «العصر الحجرى الحديث» انما تعتبر بمثابة تغيير جذرى فى حياة الانسان وقت ذاك ، أو هى فى بعض الاحايين بمثابة «ثورة» (ثورة انتاج الطعام) ، غيرت من نظم حياة الانسان ، وانتقلت به الى مرحلة جديدة ، سرعان ما تقفز بحياته الى مجتمع جديد ، ذلك لان العصر الحجرى الحديث انما تميز بعملية انتاج الطعام ، بعد الجمع والالتقاط ، والاستقــرار بعد التجوال والترحال ، وزيادة قدرته فى مجــال صنع الادوات الحجرية ، فضلا عن التوصل الى صناعة الفخار ، وهكذا كان لهذا العصر ســمات خاصة ، أصبحت بمثابة علامات استدلال على هذه المرحلة الهامة من حياة بنى الانسان ، فهو عصر حجرى حديث ، حينما يمارس الانسان صقل الآلة الحجرية ، أو يقوم بتشذيب الاداة من وجهيها تشذيبا كثيفا، غير ذلك الذى مارسه من قبل ، أو حينما يصنع رؤوس السهام ، أو الاوانى الفخارية ، أو يمارس الزراعة ، أو يقوم بتربية الحيوان ، ومن البدهى أن لا نتوقع منه أن يتوصل الى معرفة كل هذه الامور فى وقت واحد ، أو أنها جميعا يجب أن توجد فى مجتمع من المجتمعات ، ومن ثم فقد يعرف انسان هذه المرحلة بعضها ، ويغيب عن ادراكه بعضها الاخر، ولكنها فى مجملها انما يتكون منها ذلك التقدم الهائل الذى يكون الثورة النيوليتية •

---

(٢) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول — ص ٢١٢ وكذا
R. Braidwood and C. Reed, The Achievement and Early Consequences Food-Production, SOB. XXII, 1907, P. 19-31.

على أن تحديد العصر الحجرى الحـديث لا يمكن أن يتم بمعرفة المنجزات التى أشرنا اليها آنفا فحسب ، فصقل الاداة الحجرية مثلا قد عرفته بعض المجتمعات فى مرحلة تسبق مرحلة العصر الحجرى الحديث، كما حدث فى المغرب ، حين عرف أصحاب مرحلة Epipaleolithique هـذه التقنية ومارسوها فى نطاق محدود ، كما أن الزراعة وحـدها لا تكفى كدليل أثرى على العصر الحجرى الحديث ، فوجـود المناجل بكثرة فى مرحلة سابقة للعصر الحجرى الحديث ، ربما تشير الى زراعة أولية ، كما أن عدم وجود الفخار لا يعتبر دليل نفى للعصر الحجرى الحديث ، ذلك لان هناك من المجتمعات ما وصل الى هـذا العصر قبل أن يعرف الفخـار •

غير أنه من غير المقبول أن يصل مجتمع ما الى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، دون الوصول الى درجة من وجوه الحضارة النيوليتية ، كما أنه لا يمكن القول بأن مجتمعات العصر الحجرى الحديث عرفت جميعها مجالات الحضارة النيوليتية كلها ، ذلك لان هناك قلة من هذه المجتمعات — ولاسباب محلية — لم تمارس بعض جوانب هذه الحضارة ، ومن ثم فقد كانت سمة العصر الحديث فى المغرب — وخاصة القطاع الشمالى — سمة المجتمعات الرعوية والصناعية والزراعة المحدودة ، أكثر منها سمة مجتمع القرية الزراعى المستقر ، والذى ظهر بوضـوح فى مجتمعات الشرق الادنى القديم ، بسبب التضاريس الطبيعية التى عملت أيضا على اطالة فترة العصر الحجرى الحديث حتى العصر التاريخى(٣) •

وعلى أية حال ، فان العصر الحجرى الحديث انما يبدأ فى «برقة» فى حوالى منتصف الالف الخامس قبل الميلاد ، وفى بقية أجزاء المغرب حوالى منتصف الالف الرابع قبل الميلاد ، ويستمر حتى حوالى ١٢٠٠ ق•م،الى أن تمكن الفينيقيون الى الانتقال بالانسان المغربى الى العصر

---

(٣) حسن الشريف : دراسة تاريخية لحضارة المغـرب القديم أثناء العصر الحجرى الحديث ـ الاسكندرية ١٩٧٥ ص ٨٦ ـ ٨٨ ، وكذا
L. Balout, Op. Cit., P. 451.

التاريخى ، على أن العصر الحجرى الحديث انما استمر فى بعض أجزاء المغرب الداخلى فترة ما من العصر التاريخى الى أن تكونت الممالك البربرية فى الداخل حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان البربر — كما أطلقوا على أنفسهم اسم «الامازيغ» (أى الاحرار) — بمثابة شعبة من عائلة اللغات والشعوب الحامية ، اختلطت ببعض العناصر السامية والشمالية ، واستقرت فى شمال افريقيا ، قرب نهاية العصر الحجرى القديم الاعلى ، وبداية العصر الحجرى الحديث[٤] .

وعلى أية حال ، فلم يكن الشمال الافريقى يختلف كثيرا عن مصر أو غيرها من مناطق الشرق الادنى القديم ، وكما يقول « جولدن تشايلد» ان الزراعة كانت ضرورة اقتضتها تغير الظروف المناخية بالنسبة للشمال الافريقى ، بعد انتهاء الفترة المطيرة ، وما نتج عن ذلك من تحول مساحات كبيرة من مروج خضراء الى مناطق صحراوية ، حيث حل الجفاف التدريجى محل المطر ، ومن ثم فقد تركزت الحياة حول العيون والآبار فى الواحات ، وعلى ضفاف الانهار .

هذا وقد أثبتت الابحاث أن منطقة الشرق الادنى القديم — وخاصة فى مصر والعراق وفلسطين — انما كان لها السبق على غيرها فى مناطق العالم الاخرى ، فى التوصل الى مرحلة انتاج الطعام والزراعة والاستقرار — لأول مرة فى تاريخ البشرية — وذلك لاسباب كثيرة ، لاشك فى أن العامل البيئى انما كان من أهمها ، وقد قدمت لنا الحفريات الاثرية مئات الادلة على سبق المنطقة فى هذا المضمار .

ففى مصر : انتشرت حضارات العصر الحجرى الحديث (النيوليتى Neolithic فى عدد من المواقع الاثرية فى مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) ، كما فى الفيوم فى مواقع أكوام (ك) و (م) على شواطىء بحيرة قارون ، وفى «مرمدة بنى سلامة» فى غرب الدلتا ، وفى حلوان العمرى (على مبعدة ٣ كيلا الى الشمال من مدينة حلوان ، ٧كيلا

---

(٤) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ص ١٥٤ .

الى الشرق من النيل قرب مدخل وادى حسوف) ، ثم فى «ديرتاسا» (الى الشمال قليلا من مدينة البدارى ؛ وأمام مدينة أبو تيج عبر النهر، بمحافظة أسيوط) ، وفى كل هذه المواقع نجد الاستقرار واضحا ، والذى نستدل عليه من القرى (مساكن الاحياء) أو فى الجبانة (مساكن الاموات) ، ذلك لان هذه القرى ، وتلك الجبانات ، لا يقيمها الا قوم مستقرون فى أماكنهم ، وقد كشف فى دير تاسا عن الجبانة فقط ، وفى الفيوم عن القرية ، وجمعت مرمدة وحلوان العمرى بين الجبانة والقرية[٥] .

وفى شمال العراق : قامت قرى : «جرمو» على حافة واد عميق فى سهل جمجمال ، أى خارج نطاق السهل الميزوبوتامى ، و «تل حسونة» فى غرب نهر دجلة جنوب الموصل ، وتعد من أقدم المواقع الحضارية فى صميم السهل الميزوبوتامى[٦] .

وفى فلسطين : قرية أريحا ، والتى تعد من أهم مواقع العصر الحجرى الحديث ، وفى سورية (بمعناها الجغرافى الواسع وتشمل دول: سورية ولبنان والاردن وفلسطين) توجد منطقة العمق : وتقع فى شمال سورية على مقربة من مصب نهر العاصى ، وفى لبنان : جبيل[٧] ، وحراجل وبركة راما وعين ابل ، ونهر الكلب ونهر الزهرانى وغيرها ، وتعد «جبيل» من أهم المواقع نظرا لوفرة آثارها المنتمية الى تلك المرحلة[٨] .

---

(٥) أنظر عن حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر (محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الاول ص ٢١٢ ــ ٢٤٦) .

6) P. Morten, on The Chronology of Early Village Farming Communities in Northern Iraq, in Sumer, 18, 1962, P. 35, 74-76.

(٧) جبيل : كانت تكتب فى الدولة القديمة «كبن» وفى الدولة الوسطى «كبنى» ، وفى الدولة الحديثة «كبنا» ، وذكرها الاشوريون باسم «جويلا» ، والاغريق «بيبلوس» ، والعرب «جبيل» ، وتقع على مبعدة ٤٠ كيلا شمال بيروت (A. H. Gardiner, Onom., I, P. 267)

(٨) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ص ١٣٠ ــ ١٥٢ .

وفى ايران «تبة جوران» (على نهر الكرخة ، وعلى مبعدة ٦٧ كيلا جنوب كرمنشاة) ، و «تبة ساراب» (على مبعدة ٧ كيلا شمـــال شرق كرمنشاة) ، وموقع «على كوش» (على مبعدة ٥ر٢ كيلا غرب موسيان، ٥ر١ كيلا جنوب تبة جوران) ، و «تبة سايز» الى الجنوب مباشرة من موقع على كوش ، و «تبة موسيان» (على مبعــــدة ١٢ كيلا شرق نهر طيب) و «تبة جودين» فى الركن الجنوبى الشرقى لوادى كانجوفار ، وكهف بلت وكهف هوتو وتبة حاج فيروز ، وتبة سيالك (على مبعدة ٣ كيلا جنوب غرب كاشان) وتبة جيات وتبة دالما وغيرها[٩] .

وفى الاناضول : تل تشاتال ، وهاكيلار فى جنوب الهضبة الاناضولية بل ان «ملارت» مكتشف الموقعين انمـــا يزعم لهما أولوية على كافـــة حضارات الشرق الادنى القديم ، اعتمادا على عدد من الادلة الاثرية التى عثر عليها فى الموقعين ، كما يؤرخ لهما — طبقا لطريقة كربون ١٤ — بحوالى ٧٠٠٠ ق٠م[١٠] .

(٢) الموطن الاول للزراعة :

قام ، ومايزال ، جدل طويل بين علماء عصور ما قبل التاريخ خاصة، والمؤرخين عامة ، حول الموطن الاول للزراعة ، فذهب فـــريق الى أن الموطن الاول للزراعة انما كان فى جنوب غربى آسيا ، وبخاصة فى جنوب سورية وفلسطين وميزوبوتاميا (العراق القديم أو بلاد النهرين) وغرب ايران[١١] ، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن مصر انما كانت هى الموطن الاول للزراعة ، ذلك لان وادى النيل انما كان ، دونما أى ريب ، هو المكان الوحيد الذى نشأت فيه حضارة متميزة ، خارج منطقة

---

(٩) أحمد سليم : ايران منذ أقدم العصور حتى أواسط الالف الثالث قبل الميلاد — بيروت ١٩٨٨ ص ١٦١ — ١٩٧ .

(١٠) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٥٥ وكذا

J. Mellart, Earliest Civilizations of The Near East, London, 1965, P. 77.

11) H. J. E. Peake, The Origines of Agriculture, London, 1928, P. 22.

J. De Morgan, La Prehistoire Orientale, II, Paris, 1926, P. 76.

غربى آسيا[١٢] •

وفى الواقع ، فانه على الرغم من صعوبة التوصل الى مكان وزمان نشأة الزراعة على وجـــه اليقين ، ورغم أن ظروف الجفـــاف جعلت المجتمعات التى تعيش نفس الظروف ، تستجيب استجابة تلقائية سريعة الى هذا الاكتشاف منذ بداية ظهوره ، ومن ثم فربما قد اكتشفت الزراعة فى عدة مناطق فى وقت واحد تقريبا ـــ فى وادى النيل ، وفى جنوب غربى آسيا ـــ فان كثيرا من الباحثين انما يذهبون الى أن جميع شعوب الشرق الادنى القديم ، فضلا عن الشرق الاقصى ، انما قد نسبت الى شخصيات خرافية فى تاريخها ، شرف التوصل الى معرفة القمح»[١٣] فالمصريون مثلا انما ينسبون الى «أوزير» أنه قد علم الناس الضرع والزرع ، ومن ثم فقد ربطوا بين أوزير وبين كل التطورات التى تحدث على سطح الارض طوال العـــام ، وتؤثر فى انتاجهم الزراعى ، ومن هنـــا كانت الاشارات التى تقرن أوزير بحياة النبات أو توحده معها أو بها ، ومن ثم فقد كان تمثيله باعتباره «الها للخضرة» سائدا فى مصر فى كل العصور المتأخرة ، وربما ساد منذ العصور المبكرة ، عندما نقابل اسمه ـــ لأول مرة ـــ فى الوثائق المكتوبة[١٤] •

وأيا ما كان الامر ، فليس هناك من سبيل الى ريب فى أن البيئـــة المصرية ، انما قد ساعدت على معرفة الزراعة ، فالنيل بفيضانه المنتظم، واخصابه للتربة ، فضلا عن دور الشمس فى البيئة المصرية ، كل ذلك قد ساعد فى الوصول الى مرحلة الزراعة والاستقرار ، قبل أمم أخرى •

وفى الواقع ، فان أرض مصر انما قد انفردت بميزة خاصة ، ذلك

---

12) G. Clark, Prehistory of The World, Cambridge, 1962, P. 99.

13) F. Hartmann, L'Agriculture dans L'Ancienne Egypte, Paris, 1923, P. 48.

(١٤) انظر عن «أسطورة أوزير» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الاول ـ الاداب والعلـوم ـ الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٠ ـ ٢٨) •

أن فيضان النيل انما كان يأتي في أواخر الصيف وأوائل الخريف،حتى اذا ما تقدم هذا الفصل الاخير في السنة ، بدأت مياه الفيضان تنحسر عن جوانب الوادي ودلتاه ، وهنا نلاحظ أن منتصف الخريف أو أواخره انما هو الوقت الملائم لزراعة نباتات الحبوب الشتوية ، وأهمها القمح والشعير ، وبعبارة أخرى ، كان الفيضان يأتي فيمد أرض مصر بالطمي والماء ، ثم ينحسر عنها في أصلح وقت لزراعة تلك النباتات ، حتى اذا ما زرعت ونبتت كان فصل الامطار الشتوية في مصر قد بدأ .

والظاهر أن تلك الامطار كانت في العصر الحجري الحديث،ومابعده، كانت أوفر منها الان ، فكانت تغذي النباتات وتمدها بالحياة في أشهر الشتاء ، حتى اذا ما جاء آخر الربيع ، وكانات نباتات الشمال قد اكتمل نموها ، انقطع المطر ، وحل فصل الحصاد ، وهكذا تكامل عنصران في مصر — الفيضان والامطار الشتوية — وكان من ثمرات ذلك التكامل أن أصبحت أرض النيل صالحة ، كل الصلاحية ، لتكون مهدا من مهـاد الزراعات الشتوية القديمة ، على أن التكامل بين عناصر البيئة الطبيعية في مصر لا يقف عند ذلك ، فبعد أن يتم الحصاد ، يحل أول الصيف ، وهو فصل شديد الحرارة ، فتجف التربة ، وتتشقق الارض ، وتموت الحشائش الضارة ، التي تمتص خير الارض ، ولا تفيد شيئا ، يؤدي التشقق الى تفتح التربة ، ودخول غازات الهواء التي تجدد خصبها ، حتى اذا ما جاء الفيضان الجديد في آخر الصيف ، عاد فغطى الارض وكساها بطبقة من الطمي ، حتى ينحسر الفيضان ، ويجيء الانسـان ليزرع الارض من جديد ، وهكذا أصبحت دورة الطبيعة متكاملة العناصر والعوامل ، وتلك ظاهرة لا تجدها في نهر آخر في العالم ، بل تلك ظاهرة ميزت أرض مصر منذ فجر التاريخ ، وربما كانت هي العامل الاساسي فيما عرفناه من استمرار الحياة والحضارة وتجددهما في أرض مصر على مر السنين(١٥) .

---

(١٥) سليمان حزين : تاريخ الحضـارة المصرية — المجلـد الاول — العصر الفرعوني — القاهرة ١٩٦٢ ص ١٦ ، محمد بيومي مهران : مصر — الجزء الاول — ص ٢١٢ — ٢١٤ .

(٣) العصر الحجرى الحديث فى المغرب :

اختلفت ظروف الانسان فى المغرب عنها فى الشرق القديم اختلافا كبيرا ، ذلك لان البيئة المغربية — بطبيعتها الجغرافية الخاصة — انما قد وجهت الانسان المغربى القديم الى طابع آخر فى مجال تطوره الحضارى ، فبينما كان الطابع المميز للعصر الحجرى الحديث فى الشرق الادنى القديم هو الزراعة ، كان الرعى هو الطابع المميز لهذه المرحلة فى المغرب ، بجانب بعض مظاهر الانتاج الزراعى المحدود ، وذلك لان طبيعة الاقاليم المغربية تتفق فى ذلك الوقت مع حياة الرعى ، أكثر منها مع حياة الزراعة وانتاج الطعام ، ومن ثم فقد تأخر العصر الحجرى الحديث فى المغرب عن نظيره فى الشرق الادنى القديم ، فبينما يبدأ فى المشرق فى حوالى منتصف الالف السادس قبل الميلاد ، يبدأ فى المغرب بعد ذلك بألف عام — أى فى حوالى منتصف الالف الخامس قبل الميلاد ، حيث يبدأ عصر الحجر والنحاس وما يليه من عصور ما قبل وقبيل الاسرات ثم العصر التاريخى ، فى نفس الوقت الذى يستمر فيه العصر الحجرى الحديث فى المغرب حتى حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ، بل انما يستمر فى بعض المناطق الداخلية حتى العصر الرومانى ، ولعل السبب فى ذلك انما يرجع الى الصعوبات البيئة الارضية والمائية التى تزيد من مجهود الانسان فى محاولة تحكمه فيها ، وتتطلب وقتا أطول فى هذا الصدد(١٦) .

هذا فضلا عن أن الانتاج الحضارى فى المغرب مختلف من حيث طبيعته عن نظيره فى المشرق ، وذلك دون شك بسبب اختلاف البيئة ، وهكذا اتجه الانسان فى مصر — مثلا — الى وادى نهر النيل ، وقام ببناء المجتمعات الزراعية فى مجاورات النهر ، بينما اتجه الانسان فى المغرب الى التركيز على الرعى ، أكثر من الزراعة ، وذلك لان طبيعة تضاريس المنطقة انما تتطلب جهودا مضاعفة لتحقيق التحكم فى مياه الانهار وتنفيذ المشروعات الزراعية ، التى تساعد على تيسير الرعى،وهو

---

(١٦) رشيد الناضورى : المغرب الكبير ١٢٤/١ .

نوع آخر من الاستقرار ، وكان من نتائج ذلك كله أن مواقـــع العصر الحجرى الحديث فى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الاقصى ، انما تدل على أن الانسان هناك لم يترك آثارا لقرى كثيرة — كما فعل نظيره فى الشرق الادنى القديم — وانما اعتمد على الكهوف والمغارات التى تركتها عوامل التعرية الطبيعية على طول الساحل الافريقى الاطلسى ، فضلا عن تلك التى على سواحل البحـــر المتوسط ، بالاضافة الى الكهـــوف الداخلية(١٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن علماء عصور ماقبل التاريخ، انما قسموا مرحلة العصر الحجرى الحديث فى الشمال الافريقى الى مرحلتين ، الواحدة : منطقة المغرب القديم ، وتقع شمال سلسلة جبال الاطلس الصحراوى ، والاخرى : منطقة الصحراء : وتقع جنوب سلسلة جبال أطلس الصحراوى ، ولعل السبب فى ذلك انما يرجع لظروف كل من المنطقتين الطبيعية ، فضلا عن التأثيرات الاجنبية .

(١) العصر الحجرى الحديث فى منطقة المغرب القديم :

وقد تميز هذا العصر بصناعة ذات تقليد قفصى ، ذهب ((فوفرى)) الى أنها تتميز بخلوها التام من الادوات القفصية النموذجية ، وخاصة المذنبات الكبيرة والمطاحن والازاميل ذات الزاوية ، أما بالنسبة للادوات القزمية التى تميزت بها الحضارة القفصية فى مرحلتها الحديثة ، فقد أضيف اليها فى هذا العصر الحجرى الحديث رؤوس السهـــام المورقة ، وعندما تأخذ الادوات القزمية للقفصية الحديثة فى التلاشى والاندثار ، تظهر عناصر جديدة ، منها رؤوس سهام ، وفؤوس مصقولة أو مفرطحة أو ذات مقطع مصقول ، وشفرات دقيقة فضلا عن استخدام الفخار(١٨) .

هـــذا وقد وجـــدت أدوات العصر الحجـــرى الحديث ذات التقليد

---

(١٧) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا ١٥٢/١ — ١٥٣ .

18) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 368.

القفصى فى عدة مواقع تمتد من تونس شرقا ، وحتى المغــرب الاقصى غربا ، ومن أهمها مواقع : الصنفصاف والكف الاحمر والكيفان وجاعتشة، ثم مخبأ رديف ، وهو أهمها جميعا ، (ويقع على سفح جبل رديف غربى قفصة بحوالى ٥٥ كيلا ، وعلى مبعدة كيلو متر واحد من بلدة رديف على الشاطئ الشمالى لخور ينزل من جبل رديف) ، ويذهب «جوبار» الى أن موقع «مخبأ رديف» هذا،انما يمثل حدا مشتركا بين العصر الحجرى الحديث فى المغرب القديم والصحراء ، أو هو — فيما يرى فوفرى — نقطة عبور من السمة الصحراوية الى سمة العصر الحجرى الحديث ذى التقليد القفصى[١٩] .

ثم هناك موقع «برزينة» (جنوب وهران فى الجزائر) ، ويمثــل مرحلة انتقال من العصر الحجرى الحــديث (١) (موقــع رديف) الى العصر الحجرى الحديث (٢) (دار السلطان) ، فيما يرى «بالوه»[٢٠]، وان ذهب «فوفرى» الى أن الموقع متأخر زمنيا عن مواقع أخرى وجدت فى وهران ، وذلك لقلة الادوات القفصية ، وزيادة الادوات النيوليتية الخالصة فى الموقع ، وأما الفخــار فلم يعثر منه على آنية كاملة ، وانما عثر على كسور ذات زخرفة بمسحة المشط أو بالاصــابع ، فضلا عن كسور ذات لون واحد ، أحمر وأسود ، بدون زخرفة ، على أن هناك نوعا أحمرا ذا قمة سوداء يشبه فخار عصر ما قبل الاسرات فى مصر ، وآخر بلون أحمر يشبه فخار المعادى ، والفخار جميعه اما ذو قــاع مخروطى أو دائرى[٢١] .

ثم هناك موقــع «دار السلطان» (وهو مغــارة على مبعدة ٦ كيلا جنوب غرب الرباط) ، ويتكون من بقايا مواقد نيوليتية ذات تقليد قفصى ثم مجموعة من النصــال والمحكات ، وأما فخــاره فهو — فيما يرى

---

19) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 291-306.
20) A. Rhulman, La Grotte Prehistoirique De Dar-Essoltan, Paris, 1951, P. 88.
21) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 360.

رولمان — أكثر تطـــورا من موقع فخار رديف ، كما أن زخرفته جـــد متفوقة ، وهى التى تسمى تقنية مسحة المشط التى تغطى مساحة الاناء بأكمه ، وقد يكون له فى بعض الاحـــايين نتوءات (مثل أذنين) ، ربما لرفع الاناء(٢٢) .

ثم هناك موقع «أشكار» (فى أقصى شمال غرب طنجة على سواحل الاطلسى) ، ويمثل هذا الموقع العصر الحجرى الحديث الخالص من كل تقليد ، فلا وجود للادوات الميكروليتية به ، الى جانب المجرفة والمعول، مما يشير الى اكتشاف الزراعة،خاصة وقد عرفت هذه المنطقة الاستقرار والنظام الاجتماعى ، وقد كشف «رولمان» فى «وادى باث» على مقربة من طنجة ، عن ثلاث مجمعات سكنية ، لا يبعد الواحد منها عن الاخر، بأكثر من خمس كيلو مترات(٢٣) .

ولعل من الجدير بالاشارةهنا الى أن«فوفرى» انما يذهب الى أنمصر انما كانت وراء التغيرات التى مر بها العصر الحجرى الحديث فى المغرب القديم ، من القفصية فى مرحلتها العليا الحديثة الى العصر الحجرى الحديث ذى التقليد القفصى ، ذلك لان عنـــاصر الاصل المصرى جـــد مجتمعة فى العصر الحجرى الحديث ذى التقليد القفصى ، والذى امتد من حوالى ٥٢٠٠ ق٠م الى ٣٥٠٠ ق٠م ، ويبدو أن العصر النيوليتى فى المغرب انما قد تأخر عنه فى مصر ، فلقد أرخ «كربون ١٤» لموقـــع جاعتشة بحوالى ٣٠٥٠ ق٠م ± ١٥٠ سنة ق٠م ، وهو تاريخ قد يوافق الاسرة الثانية فى مصر(٢٤)

هذا فضلا عن أن آثار العصر الحجرى الحديث فى موقع «هوافتيح» بمنطقة الجبل الاخضر فى برقة ، وعلى رأسها الفخار ، انما تثبت توصل الانسان هناك الى الاستقرار والزراعة ، وقد طبقت طريقة «كربون١٤»

---

22) A. Rhubman, Op. Cit., P. 88.
23) Ibid., P. 105-106.
24) L. Balout, Op. Cit., P. 481.

المشع على آثار الطبقة الاخيرة فى موقع هوافتيح ، وأرخت نتيجة لذلك بحوالى النصف الثانى من الالف الخامس قبل الميلاد[٢٥] .

وعلى اية حال ، فهناك ما يشير الى مؤثرات مصرية واضحة فى هذه الآثار الليبية،فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم وبين موقع هوافتيح، والامر كذلك فى الصناعات الحجرية ، كرؤوس السهام ، والتى لم يعثر على جذور لها فى المواقع الليبية ، الامر الذى يؤكد وجود التاثيرات المصرية ، خاصة وأن حضارة الفيوم أ ، فيمـا يرى كثير من الباحثين — ومنهم سليمان حزين ، وكاتون طمسون ، وبورنتز ، وجاك فانديية ، ووليم هيز — انما كانت أسبق من حضارة مرمدة[٢٦] ، ذلك لان مجتمع الفيوم أ ، رغم أنه كان مجتمعا مستقرا ، ولكن دون أن يقيم أكواخا ، أو يتخذ له مأوى ثابتا — كما فعل أهل مرمدة وحلوان العمرى — هذا فضلا عن أن ادوات أهل الفيوم انما كانت أقل تطورا ، وفخارهم أكثر خشونة ، وربما يرجع الى منتصف الالف السادس قبل الميلاد[٢٧] .

---

(٢٥) L. Balout, Op. Cit., P. 481.
وانظر عن الاراء المختلفـة حـول التواريخ المقترحة لعصر التأسيس (الاسرتين الاولى والثانية فى مصر الفرعونية) : محمـد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٩ — ١٢ .

26) W. C. Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago, 1962, P. 70.
G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, The Fayum, I, 1943, P. 295-296.
S. A. Huzayyin, Op. Cit., P. 295-296.

(٢٧) اختلف العلماء حول بداية العصر الحجرى الحديث فى مصر ونهايته ، فهناك من يقترح البداية فى الالف العاشر أو الثامن قبل الميلاد ، ومن يقترح حوالى عام ٦٥٠٠ ق.م ، كبداية بالنسبة للفيوم (أ) ، وحوالى ٥٠٠٠ ق.م بالنسبة للزراعة ، بينما يتجه فريق ثالث الى أن البداية كانت حوالى ٥٠٠٠ ق.م ، وأنه استمـر حوالى ٨٠٠ عام ، على أن فريقا رابعا يرى أن العصر الحجرى الحديث يبدأ فى الربع الاول من الالف الخامسة ، أو حوالى منتصفها فى الوجه البحرى ، وأخيرا فهناك من يراه فيمـا بين منتصف الالف الخامسة وبداية الالف الرابعة قبل الميلاد (أنظـر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول ص ٢١٥ — ٢١٦ ، وكذا
W. C. Hayes, Op. Cit., P. 113-116.
E. Massoulard, Op. Cit., P. 48.
G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, Op. Cit., P. 93.

=

وعلى أية حال ، فهناك صلات حضارية بين حضارة الفيوم أ ، وبين مواقع سيوه والخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية ، مما يؤكد وجود سير خط حضارى بين منطقة شرقى ليبيا وبين وادى النيل الادنى وخاصة منطقة الفيوم ، فى ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الانسان •

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن الجذور الاولى لحضارة العصر الحجرى الحديث فى شمال افريقيا ، بوجه عام ، انما ترجع فى الحقيقة الى جهود الانسان وقت ذاك فى منطقة الصحراء الكبرى — وهى منطقة فسيحة تمتد من البحر الاحمر وحتى المحيط الاطلسى — وكانت مسرحا ضخما لتجول الانسان وتنقله بين الاودية والعيون والواحات والابار ، خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية ، وقد عثر الآثاريون على عدد كبير من المواقع الاثرية فى أجزاء من هذه المنطقة ، وقد أكدت أبحاث «كاتون طمسون» وجود صلات حضارية فى التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الاثرية •

وقرب نهاية العصر الحجرى القديم الاعلى ، وبداية الانتقال للعصر الحجرى الحديث ، أى بعد ظهور مراحل الجفاف الاخيرة ، اضطر الانسان فى هذه المنطقة الصحراوية الى الرحيل نحو الاودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه ، ومن ثم فقد اتجهت مجموعات من هذا الانسان نحو الشمال — نحو برقة وتونس — واتجه بعضها نحو الشرق — نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الادنى — وقد تمكن هؤلاء الذين انتقلوا الى المنطقة الاخيرة من أسبقية التوصل الى الاستقرار ، وانشاء القرى ، وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية الانفة الذكر ، بين حضارة الفيوم أ ، وبين حضارة منطقة

=

K. W. Butzer, BSRGE, 32, 1959, P. 43.
G. Clark, Op. Cit.,, P. 227.
J. Vandier, Op. Cit., P. 188.

شرقى ليبيا ، على أساس امكانية انتماء كلتا الحضـارتين أصلا ، الى جذور وتقاليد حضارية واحدة فى منطقة الصحراء الكبرى[٢٨] .

هذا ويذهب الدكتور يسرى الجوهرى الى أن تفسير بعض التشابه بين مواقع سيوه والخارجة والفيوم وكهف هوافتيح ، انما وجد عن طريق افتراض امكانية انتماء حضارة الفيوم وشرق ليبيا ، الى جذور وتقاليد حضارية واحدة فى الصحراء[٢٩] .

ويذهب «أركل» — والذى قام بحفريات فى منطقة شهيناب ، على الضفة الشرقية للنيل ، وعلى مبعدة ٤٨ كيلا شمال أم درمـان ، وفى الخرطوم[٣٠] — الى أن «شهيناب» والفيوم انما يشتركان فى عدة نقاط ، منها تقنية التشظية المورقة والفؤوس المصقولة وأحجار المقالع والازاميل، غير أن رؤوس السهام غير متوفرة فى موقع «شهيناب» ، ومن ثم فقد اعتبر موقع شهيناب هذا ، أقدم من موقع الفيوم .

غـير أن هنـاك من «التنيرى» Tenere صنـاعة مشابهة لصنـاعة الفيوم ، وتحتوى على الفؤوس المصقولة المشظاة والازاميل ، فضلا عن

---

(٢٨) رشيد الناضورى : المغرب الكبير ١٢٦/١ — ١٢٧ .

(٢٩) يسرى الجوهرى : جغرافية المغرب العربى — منشأة المعارف — الاسكندرية ١٩٨١ ص ٥٤ .

(٣٠) أثـارت اكتشافات «أركل» هـذه ، والتى تمـت فى الفتـرة (١٩٤٤ — ١٩٥٠م) ضجة كبيرة بين الاثاريين ، فقد كان الاعتقاد السائد بأن هذه المنطقـة التى اكتشفها ، انمـا هى موقع سكنى قديم لصـيادى الاسماك ، وليس فيها ما يشير الى تربية الماشية أو زراعة النبات ، بينما تشكل عظـام الحيوانات البرية ٩٨٪ من العظـام المكتشـفة فى منطقـة «شهيناب ، هذا ١ضلا عن بقايا عظام ماعز أهلى ، الامـر الذى يؤكد — الى جانب الاكتشافات الخزفية — وجود نظام معيشى معين كان مألوفا فى العصر الحجرى الحديث ، وطبقا لتاريخ «كربون ١٤» فان تاريخ هـذه الاماكن الاثرية ، انما يرجع الى حوالى عام ٣٤٩٦ قبل الميلاد ، بفارق ٣٨٠ سنة (زيادة أو نقصا) الى العصر الحجرى المتطور (رودلف كوبر : ما هو العصر الحجرى الحديث فى الصحراء الكبرى — من كتاب الصحراء الكبرى — ترجمة مكاييل محرز — ليبيـا ١٩٧٩ ص ٦٩ — ٧١) .

رؤوس سهام ذات قاعدة مقعـرة[٣١] ، وتذهب «كاتون طمسون» الى أن «التبستى» (الصحراء الجنوبية) هى المكان الوحيد الذى انطلقت منه المؤثرات الحضارية النيوليثية الى الفيوم والخرطوم وتنيرى ، وأن منطقة التبستى هى محاجر الخامات التى صنعت منها أدوات الحضارة الفيومية[٣٢] .

(٢) العصر الحجرى الحديث فى الصحراء :

هناك ما يشير الى أن العمران لم يتغير فى الصحراء أثناء العصر الحجرى الحديث على مـا كان عليه سابقا ، لا من حيث زيـادة تجمع السكان حول موارد المياه ، الامر الذى أدى الى زيادة التوسع العمرانى الذى عرفته الصحراء أثناء هذا العصر ، وهو توسع لم تعرفه الصحراء طيلة عصورها السابقة ، وقد تميز العصر الحجرى الحديث الصحراوى بنوعين من الادوات ، الواحدة كبيرة من حجـر الكوارتز ، والاخرى قزمية (ميكوليتية) من الظران .

وتشبه الادوات الكبيرة التقليد القفصى ، بمكاشطها ونصالها المثلمة وأزاميلها ، كما تضـاف اليها النصال الرشيقة ذات اللمسـات الجيدة الصنع ، والتى كثيرا ما تكون مدببة ، وكذلك المكاشط القصيرة المستديرة وأحيانا يكون لها قاطعا مسننا ، وتعطينا هـذه التقنية — المتوارثة عن التقنية الاشولية المتطورة — نصالا مورقة ، ومدى حـادة الرؤوس ، وهى كثيرا ما تكون مطابقة لمثيلاتها المصرية ، الامر الذى دفع كل من «اليمان» و «فلامند» الى القول بوصول حضارة مصرية الى الصحراء ، بدليل وجود مدى كبيرة منحنية ذات تشذيب ، وتشبه مدى (سكاكين) الفيوم ، هذا فضلا عن «مدى» صقل أحد وجهيها ، بينما أجريت للوجه الاخر لمسات طولية ، بالاضافة الى وجـود قطع بيضاوية مثقوبة فى الوسط بغرض التعليق[٣٣] .

---

31) A. J. Arkell, Shaheinab, Oxford, 1953, P. 105.

32) G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, The Desert of Fayum, P. 87-88.

(٣٣) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٧١ — ٧٢ ، وكذا
H. Alimen, Op. Cit., P. 197.

وأما الادوات القزمية ، فتشمل على نصيلات صغيرة ، وقواطع قزمية مذنبة ورؤوس سهام مشذبة على الوجهين ومثاقب صغيرة كانت تستعمل فى صناعة الحلى ، ورؤوس سهام متنوعة لكل أنماط المغرب القديم وغيرها ، وتعتبر رؤوس السهام المقعرة القاعدة ، عديمة الذنيب، أقدم أنواع رؤوس السهام ، وهناك رؤوس سهام على شكل متوازى الاضلاع ، وأخرى ذات شكل مغزلى ، وأما رؤوس السهام المذنبة ، والمذنبة المجنحة ، فهى متأخرة فى الظهور ، ويذهب البعض الى أنها ذات علاقة بفترة ثانية من فترات التأثير المصرى على الصحراء ، وخاصة رؤوس السهام من نمط حلوان ، وهى من الكوارتز والصوان معا(٣٤) •

وأما أهم المواقع الصحراوية فى العصر الحجرى الحديث فهى كثيرة العدد ، لعل من أهمها ، موقع عبد العظيم ، ويقع فى أقصى الجنوب الغربى على حافة وادى الساورة ، ثم موقع زميله بركة ، ويعد من أغنى المواقع ، ويقع على مبعدة ٢ كيلا جنوب غرب واحة أوغرطة ، ١٥٠ كيلا شمال موقع عبد العظيم ، ثم موقع زفان على مبعدة ٢٥ كيلا جنوب شرق مدينة زفان ، ثم موقع سريول ، فموقع تبلبلة ، ويقع غرب الساورة ويتميز برؤوس سهام وفؤوس ونصال ومدى ذات تأثير مصرى •

ثم هناك موقع «أمكين» ، ويقع فى أقصى الجنوب الشرقى للصحراء الجزائرية ، وعلى مبعدة ٤٠ كيلا شمال غرب «تمتراست» ، وهو تل مرتفع يشرف على السهل ، حيث يجرى عند السفح مجرى مائى كبير يمد السكان بالماء والاسماك ، كما وجدت آثار لمساكن متناثرة بين الكتل الصخرية ، وقد وجدت بجانبها أحواض الطحين محفورة فى الصخر ، وتعتمد الصناعة فى هذه المواقع على الكوارتز ، ومن أدواتها نصيلات مسننة وؤوس سهام •

هذا ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن المواقع الاثرية الصحراوية انما وجدت فى الهضاب أيضا — كما وجدت فى الجبال — وقد عثر على أدوات

---

34) H. Alimen, Op. Cit., P. 178.

على السطح ، وقد كشف «فورو لامى» فى عام ١٩٠٥م فى العرق الشرقى الكبير عن أكثر من ٢٣٢ موقعا ، فى مساحة لا يتعدى طولها ٤٨٥ كيلا ، وعرضها ٣٢٠ كيلا ، وقد عثر فيها على نصـــال عادية ، وأخرى متنوعة قزمية ، وفؤوس وسهام موستيرية ، وأخرى عاترية ، كما عثر على ما يدل على استخدام القوم هنـــاك فى العرق الشرقى لقشـــور بيض النعـــام والفخـــار[٣٥] .

(٣) من مظاهر الحضارة فى العصر الحجرى الحديث :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة هنـــا الى بعض الجوانب الفكرية والدينية فى هذه الفترة من تاريخ المغرب القديم ، فلقد عثر على بعض الظواهر الفكرية فى تلك المرحلة ، والتى تتمثل فى النقوش التى سجلها الانسان وقت ذاك على صخور الهضات والجبال ، وهى نقوش تعبر عن أفكار الانسان ، فضلا عن البيئة الحيوانية والنباتية المحيطة به فى ذلك الوقت ، وتعتبر هذه النقوش أو الرسوم خطوة هامة فى تطور قدرات الانسان التعبيرية ، سرعان ما تتطور حتى تصـــل الى التعبير بالرموز والكتابة قبل العصر التاريخى ، وهى ، على أية حال ، مصـــدر رئيسى للتعرف على الفكر الانســـانى وقت ذاك ، ورغم صعوبـــة تأريخ هذه النقوش بدقة ، الا أن العثور على آثار للانسان بجوارها ، انما يساعدنا فى تحديد هذا التأريخ ، وهى فى غالبيتها انما تنتمى الى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، بوجه عـــام ، وأما موضوعها فيغلب عليها الرسوم الحيوانية ، فضلا عن رموز يصعب على الباحث تفسيرها ، وان كان لاشك فى أن لها مفاهيمها الخاصة لدى أصحابها فى المغرب القديم[٣٦] .

---

(٣٥) أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٧١ ـ ٧٤ ، طاهـــر العدوانى : دراسة للحضارة فى عصور ما قبل التاريخ بالصحراء الجزائرية ، وخاصة أثناء العصر الحجرى الحديث ـ الاسكندريـــة ١٩٧٥ ص ١٦٠ ـ ١٦١ ، وكذا

Foureau Lamy, Documents Scientifiques De La Mission Saharnenne, II, Publications De La Societe Geographyique De Paris, 1905, P. 1100-1125.

(٣٦) رشيد الناضورى : المغرب الكبير ص ١٣٩ .

ومن ذلك أن الانسان قد استمر فى تشكيل بعض القطع على هيئة معينة ، كما فى كهف Marhsal و «كهف أشـــكار» ، هذا الى جـــانب المجموعة التى اكتشفها Buchet والتى رأى فيها Kochler رموزا قفصية مرتبطة بالمعبودات النسائية التى سادت رموزها حوض البحر المتوسط ، وقد عرفت بمعبودات أشكار [٣٧] •

وهناك أيضا امكانية وجود غاية سحرية فى هذه الرســـوم ، على أساس تصور الانسان واظهـــار تحكمه فيها ، ليحمل فى طيـــاته معنى تجسيم هذه الفكرة فى الواقع ، ذلك لان الانسان — رغم تقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثناء العصر الحجرى القديم — فهو لا يزال يبحث عن الامان والطمأنينة ، فضلا عن الانتصار على القوى الشريرة الضارة بحياته ومستقبله •

وهناك من الرسوم ما يسترعى الانتباه ، كرسوم الكباش التى تحمل فوق رؤوسها رموزا بيضاوية الشكل ، ويوجد أحيانا أمامها رجل يتميز بخصلة شعرية جانبية فى رأسه ، ويرتدى قميصا وحزاما عريضا ، الامر الذى ربما يشير الى وجود شبه بين هذه الكباش ، والكبش المصرى فى العصر الفرعونى ، والذى يحمل على رأسه رمز الشمس ، ويمثل المعبود «أمون رع» فى الدين المصرى القديم ، وقد عثر على هذه الرسوم جنوب وهران وفى برقة ، هذا وقد ذكرت النصوص المصرية القديمة ، موضوع خصلة الشعر الجانبية التى تميز الانسان سالف الذكـــر ، كعلاقة تميز بعض الكهنة المصريين ، كما فى نصوص التوابيت من الدولة الوسطى ، وقد عثر أيضا جنوب طرابلس على رسوم تمثل بعض الشخصيات التى تشبه المعبود المصرى «بس» ، فضلا عن رسم لرجل قد ترك ذقنه بشكل يشبه رسم المعبود «أوزير» •

---

37) H. Camps-Febrer, Op. Cit., P. 401.
H. Kochler, La grotte d'Achakar au Cap Spertel, Bull, de Inst. d'Et des Reliy. de Eveleche de Rabat, 1931.
R. Vaufrey, Op. Cit., P. 365.

هذا وتؤرخ هذه الرسوم بالفترة التى تمتد من حوالى منتصف الالف الثالث وحتى منتصف الاول قبل الميلاد ، وهى فترة تقابل فترات هامة من صميم العصر التاريخى فى مصر الفرعونية ، الأمر الذى يؤكد ان هذه الرسوم انما تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة ، مما يعد استمرارا للصلات المصرية ببلاد المغرب ، وان كان هناك اتجاه الى أن هذه الرسوم انما قد جاءت من غربى أوربا وأسبانيا ، أو هى تطور من الحضارة القفصية ، وان كان هذا الاتجاه يصعب الاعتماد ، اذا ما قورن بالادلة الاثرية الانفة الذكر[٣٨] .

وعلى أية حال ، فلقد كشف فى المستويات السفلى من «تل سوس» على مجموعة من التماثيل الصغيرة — الحيوانية والانسانية — والمصنوعة من الحجر أو الطين أو العاج[٣٩] ، وقد كشف فى مصر عن تماثيل من الصلصال فى مقابر البدارى ونقادة — وكذا فى العالم الايجى — تمثل الى حد ما تلك التى وجدت فى «أشكار»[٤٠] ، مما يشير الى انتشار هذا النوع فى اقليم البحر المتوسط ، وعلى أية حال ، فرغم اختلاف التفسيرات من حول هذه الاشكال ، فأكبر الظن انها ترتبط بمعبودات البحر المتوسط ، كرمز أنثوى لشعائر الخصوبة .

وأما المقابر وطريقة الدفن المغربية ، فقد كان يتم دفن الموتى فى وضع مثنى ، وكانت هذه الانثناءة من القوة — فى بعض الحالات — مما أوحى الى «بالوه» باستعمال أربطة فى ذلك[٤١] ، وعلى أية حال ، فلقد كان القوم — ربما منذ القفصية العليا — يدفنون موتاهم مع عقودهم وعناصر زينتهم من أصداف مثقوبة ، وحبات نظمت من قشور بيض النعام — كما كانوا يمارسون عادة در المغرة الحمراء على المتوفى ، الامر الذى مارسه بعض أصحاب الحضارات القديمة الاخرى — كما فى ايران ،

---

(٣٨) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٣٩ — ١٤٤ .

39) H. Camps-Febrer, Op. Cit., P. 402.

40) A. Jodin, Les grottes de Khril a Achakar, (Province de Tanger), Bull d'Archeol. Norac, III, 1959, P. 249-331.

41) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 414.

وفى فلسطين على أيام الحضارة النطوفية(٤٢) ـــ ربما لارتبـــاط التراب الاحمر بموضوع الخلود ، واستمرار الحياة فى العالم الآخر .

هذا وكان القوم فى المغـــرب القديم يتجهون بهيكل المتوفى نحـــو الشمال ، كما كان يغطى بثلاثة قطع حجرية ضخمة مسطحة(٤٣) ، وتمثل هذه الظاهرة مرحلة مبكرة جدا من مراحل المحافظة على جسد المتوفى ، وقد أرتبطت هذه الظاهرة فى حضارات الشرق الادنى القديم بالعقيدة الدينية لدى الانسان ، الامـــر الذى يظهر بوضوح فى أرفـــع درجاته وأرقاها فى «التحنيط»(٤٤) الذى امتازت به الحضـــارة المصرية القديمة

---

(٤٢) الحضارة النطوفية : وقد نسبت الى وادى النطوف ، شـــمال غرب القدس ، وقد عثر فى طبقات هذا الموقع على آثار تمثل النقلـــة من مرحلة جمع الطعام الى مرحلة الاستقرار ، فهنـــاك الادوات الحجريـــة ورؤوس السهام وغيرها من آثار العصر الحجرى القديم الاعلى ، فضلا عن المناجل والاجران التى تمثل عنصرا حضاريا جديدا يقترب بالانسان الى انتاج الطعام والاستقرار ، أكثر من انتمائه الى مرحلة الجمع والالتقاط ، كما دلت بعض عظام الحيوانات على اتفاقها مع الحياة المستأنسة اكثر من الحياة البرية ، حتى وان ذهب البعض الى عدم توصل أصحاب الحضارة النطوفية الى استئناس الحيـــوان ، وطبقا لكربون ١٤ ، فـــان الحضـــارة النطوفية تؤرخ بحوالى ١٠٠٠٠ عام ق.م ، وان كان هذا التقدير قد بولغ فيه كثيرا ، وقد جمعت الحضارة النطوفية فى مواقعها الاثرية بين الكهوف والساحات الممتدة أمامها ، وخاصة فى نواحى جبل الكرمل ، وبين مواقع القرى فى وادى نهر الاردن ، حيث يلاحظ اتضاح التطور الحضارى

وأما اهم مواقع الحضارة النطوفية الاثرية فى منطقة وادى نهر الاردن فهى : عين ملاحة شمال غرب بحيرة الحولة حيث عثر على عدد من القرى تتميز بمنازلها الحجرية الدائرية ، وكانت أرضيتها دون مســـتوى سطح الاردن ، وفى هذه المنازل وجدت آثار هذه الحضارة ، الحجرية والعظمية ، وكذا الفنية كالتماثيل الصغـــيرة التى تعد أقـــدم أمثلـــة للنحت فى الشرق الادنى القديم ، وكذا الاثار المصنوعة من الخرز والاصداف ، كما عثر على عدد من المقابر الفردية والجماعية التى تشير الى الاعتقاد فى العالم الاخر ، فقد لوحظ تغطية الهيكل العظمى للمتوفى بالكتل الحجريـــة التى تمثل مرحلة مبكرة جدا للحفاظ على جسد المتوفى ، والتى تطـــورت فيما بعد الى بناء علوى للمقبرة (رشيد الناضورى : غربى آســـيا وشمال أفريقيـــا ص ١١٣ ـ ١١٦) .

43) **R. Vaufrey, Op. Cit., P. 342.**

(٤٤) أنظر عن التحنيط (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الآول ـ الاداب والعلوم ص ٤٤٤ ـ ٤٥٥) .

منذ بواكيرها ، فهناك آثار للتحنيط منذ الاسرة الاولى[45] (حوالى عام ٣٢٠٠ ق٠م) ثم لا نلبث أن نتثبتها فى وضوح فى عصر الاسرة الثانية[46] وان كان المصريون قد توصلوا الى التحنيط بالمعنى الصحيح ومارسوه فعلا فى الاسرة الثالثة (حوالى عام ٢٧٠٠ ق٠م) ، اذ وجدت من عصر هذه الاسرة توابيت لحفظ المومياء ، وتوابيت أخرى بها أربعة أوان من المرمر لحفظ الاحشاء المحنطة ، كما وجدت بقايا مومياء الملك «زوسر» (ثانى ملـــوك الاسرة) فى غرفـــة الدفن الجرانيتية فى هرمه المدرج فى ســـقارة[47] ٠

وعلى أية حال ، فهناك اكثير من الاشارات فى المقابر المغربية التى تدل على دفن بعض لوازم ومنقولات المتوفى معه فى مقبرته ، كما يبدو ذلك أكثر وضوحا فى كهف أشكار ، هذا فضلا عن أن القوم انما مارسوا كذلك عادة الدفن الجماعى ، كما تدل على ذلك مقبرة «الكيفن» El-Kiffen — على مقربة من كهف بلتيه فى تماريس بالدار البيضاء — حيث عثر فيها على ١٧ جمجمة ، وان قدر الباحثون عدد من دفن فيها بعشرين شخصا ٠

هذا وقد استعمل القوم التمائم ، من قطع تؤخذ من أجزاء معينة من عظام السلحفاة ، أو من درعها ، ثم تصقل هذه الاجزاء وتثقب لتعليقها كتميمة ، ومن عجب ، كما يقول بعض الباحثين ، أن السلحفاة ما تزال حتى اليوم فى اقليم قفصة موضوعـــا للوشم ، ولا يزال النوع الذى يعيش فى الماء العذب شائعا فى قفصة ، ولا يقبل الناس على قتله ، وعلى أية حال ، فربما أنيطت هـــذه التمائم المصنوعة من عظم السلحفاة أو درعها بفكرة طول البقاء والعمر المديد ، وربما كانت السلحفاة — فى نظر القوم وقت ذاك — تمثل تجسيدا لفكرة الخلود[48] ٠

---

45) JEA, 7, 1921, P. 7-31.

46) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, II, London, 1948, P. 230.

(٤٧) زكى اسكندر — التحنيط فى مصر القـديمة — القاهرة ١٩٧٣ ص ١٠ ٠

48) H. Camps-Fabrer, Op. Cit., P. 242.

D. Deyrolle, La Tortue en Prehistoire, Bull, de S. P. F., 8, 1911, P. 123-124.

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك — فيما يرى فيرون — ما يشير الى أن الصحراء وشمال أفريقيا ، انما كانت فى العصر الحجرى الحديث مسكونة بقوم من الرعاة قدموا من الشرق ، مع قطعان لهم(٤٩) ، من الخراف والماعز(٥٠) والثيران ذات القرون ، والبقر(٥١) والكباش ،

---

(٤٩) يذهب بعض العلماء الى أن استئناس الحيوان واستخدام الزراعة ، انما كان موطنهما الأصلى فى مكان ما فى الشرق الادنى القديم ، وطبقا لرأى «ماك برنى» فانه فى غربى آسيا ، على أن هناك فريقا آخر يميل الى انهما قد ظهرا فى أماكن مختلفة ، ومستقلة عن أى تأثير أو اتصال ، على أن «ريموند مورى» انما يقترح طريقين لوصول الحيوانات المستأنسة من الشرق الادنى القديم الى الشمال الافريقى ، عن طريق مصر ، أولهما : على طول سواحل البحر المتوسط ، وحتى المغرب القديم ، ومنه اجتاز الاطلسى الصحراوى بحثا عن الماء ، حتى وصل التاسيلى والهوفار ، بينما يمتد الطريق الثانى مباشرة من مصر العليا (الصعيد) الى الصحراء على طول خط عرض ٢٠° (عشرين درجة) ٠

ولكن يقف دون ذلك أمران : الواحد : عدم وجود آثار استئناس الحيوان فى مصر ، أقدم من وجوده فى الصحراء الوسطى (الصحراء الجزائرية) ، كما أن «العير» أو «الحمادة» (وتقع جنوب جبال الهوفار فى الجزائر ، وتمثل مناطق عظيمة الاتساع تغطيها صخور شديدة الصلابة ، عارية من الرواسب والخصوبة ، بسبب فعل الرياح) انما تعتبر طريق مرور من مصر العليا الى الصحراء الوسطى ، ومع ذلك ، فلا أثر لماشية مستأنسة هناك (أنظر : أم الخير العقون : المرجع السابق ص ٧٥ — ٧٦ ،
C. B. M. Mc Burney, Op. Cit., P. 248.
A. R. Wilcox, Rock Art of Africa, New York, 1948, P. 35).

(٥٠) ليس هناك ما يميز الهياكل العظمية للماعز عن تلك التى للاغنام ، وان استؤنست الماعز أولا ، وهناك من يرجع أصل الماعز الى النوبة ، غير أن حفريات «أركل» فى «شهيناب» (٤٨ كيلا شمال أم درمان) أثبتت أن الماعز لم يستأنس محليا ، وانما وفدت من الخارج ، وعلى أية حال ، فلقد وجدت آثارها فى كهف «دوارف» فى الصحراء الجزائرية وفى جنوب السودان ، وهناك احتمال دخول الماعز من كهف دوارف الى شهيناب ، كما وصلت وادى النيل عن طريق التبستى ، ومن ثم فهناك من يذهب الى أن الانسان فى شمال أفريقيا قد استأنس الحيوانات محليا ، وفى وقت مبكر ، وكان هذا اتجاها فرضته الظروف الطبيعية عليه ، اما الزراعة فقد وصلتهم عن طريق أقوام شرقيين (أنظر :
A. J. Arkell, Shaheinab, P. 15-16.
R. Vaufrey, L'Art Rupestre Nord Africian, 1939, P. 65. وكذا

(٥١) هناك نوعان من البقر فى المغرب القديم ، الاول : كبير الحجم ، وهو سليل الابقار البرية ، والثانى صغير الحجم ، يذهب العلماء الى أنه من ايبريا ٠

فضلا عن الحصان المستأنس (حوالى ١٥٠٠ ق٠م) والجمل المستأنس (ربما قبل القرن الثالث أو الرابع قبل هذا العصر موضوع الحديث)، وكذا الفيل والخرتيت والجاموس الضخم(٥٣)، ومن المؤكد أن الثور قد تم استئناثه حوالى عام ٤٠٠ ق٠م، على الاقل، وليس مستحيـلا أن تكون الماشية قد استئنثت قبل ذلك فى «أكاكاس» (Acacus) ، وهى جبال تقـع فى أقصى الجنوب المغربى للجماهيرية الليبية قـرب حدود الجزائـر(٥٣).

هذا وقد انتشرت فى هذه الفترة من تاريخ المغرب القديم الرسوم الصخرية، وقـد كشف عنها الاثاريون فى مناطق عـدة من الشـمال الافريقى، حتى زاد عددها الان عن عشرين ألف رسم صخرى(٥٤)، وقد عثر على هذه النقوش والرسوم الصخرية فى الاقاليم الجبلية لأطلس التل(٥٥)، فمثلا توجد نقوش فى «خنفة حجار» (على مبعدة ٥٠ كيلا شرقى قسنطية)(٥٦)، وفى كهف الخلوس فى وادى هليل على مقربـة من «كيفين»(٥٧)، وعلى رصيف صخرى يعرف باسـم «فجة الخيل» (كودية الخروبة من ضواحى عين مليلة)(٥٨)، ثم على الركائم الصخرية فى «جارة الطالب»(٥٩).

---

52) H. Alimen, Op. Cit., P. 422.
R. Furon, Manuel de Prehistoire generale, Paris, 1958, P. 311.
53) W. Resch, Das Rind in den Felsbilddarstellungen Nordafrrikas, P.5 2. P. Beck et P. Huard, Tihesti, Carrefour de la Prehistoire Saharienne, Paris, 1969.
(٥٤) كارل شتريتر : الرسوم الصخرية كمصـدر تاريخى – كتاب الصحراء الكبرى – ترجمة عماد الدين غانم – ليبيا ١٩٧٩ ص ١٤٥ – ١٥٥
55) H. Alimen, Op. Cit., P. 422.
56) R. Vaufrey, Op. Cit., P. 414.
57) Ibid., P. 616.
58) Ibid., Pl. 49.
H. Alimen, Op. Cit., P. 427.
59) R. Vaufrey, Op. Cit., Pl. 44.

الباب الثاني

سكان المغرب القديم

الفصل الأول

سكان المغرب القديم فيما قبل هجرات شعوب البحر

(١) فى العصر الحجرى القديم :

عاش الانسان فى البيئة المغربية ، رغم الصعوبات المناخية ، كما عاش فى غيرها من البيئات ، وقد قام العلماء بالبحث عن أقدم انسان وصل الى تلك المنطقة وصناعته وحضارته الاولى ، فضلا عن علاقاته بغيره من سكان قارتى أوربا وأفريقيا ، وقد عثر على عظام هذا الانسان الاول فى مواقع تنتمى الى العصر الحجرى القديم ــ بأقسامه الثلاثة ، الاسفل والاوسط والاعلى ــ فضلا عن العصر الحجرى الحديث .

ولعل أقدم ما عثر عليه من بقايا العظام الانسانية من مرحلة العصر الحجرى الاسفل انما كان فى موقع «باليكاو» فى الجزائر ، وهى عبارة عن ثلاثة عظام لفك أسفل تتميز بكبرها وثقلها ، الى جانب عظمة جدار أيمن للجمجمة ، هذا فضلا عما عثر عليه فى «محجر سيدى عبد الرحمن»، وهو أحد المحاجر الكثيرة المنتشرة فى نواحى مدينة «الدار البيضاء» نتيجة تجمع الرسوبيات البحرية والحجر الرملى والجص طوال العصور الجيولوجية ، وقد تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظمية لحيوانات فقرية ــ كفرس النهر ووحيد القرن ــ وحيوانات لا فقرية ، فضلا عن البقايا الاثرية ــ التى خلفها الانسان من تلك المرحلة ، وتنحدر هذه المواقع من ارتفاع يزيد عن مائة متر ، والى مسافة ٥ كيلا ، تجاه المحيط الاطلسى ، كما تمتد نحو الجنوب الغربى ، حيث عثر على «كهف الدببة» (Grotte des Ours) ، و «كهف ليتورين» (Grotte des Littorines) وقد كشف فى الكهف الاخير (ليتورين) فى عام ١٩٥٥ م عن فك سفلى انسانى من قطعتين ، وفى حالة جيدة ، ينتمى الى مجموعة انسان

«باليكاو» ، أى «مجموعة أتلانثروبوس» ، اتى ترتبط بمجموعة الشرق الاقصى (انسان جاوه ، وانســان بكين) ، وان كان حجم الاسنان فى كهف «ليتورين» (Littorines) يقل عن نظيره فى «باليكاو» •

وفى شهر فبراير عام ١٩٣٣م ، عثر فى نواحى «الرباط» على بقايا انسان ، عرف باسم «انســان الرباط» ، وأغلب الظـن أنه ينتمى الى مجموعة انسان باليكاو ، وسيدى عبد الرحمن (مجموعة أتلانثروبوس) ، كما يؤكد التشابه الجيولوجى بين طبقات محجرى سيدى عبد الرحمن والرباط ، تشابه البيئة المحيطة بحياة الانسان الاول فى كلا الموقعين[١] •

هذا وقد عثر من مرحلــة العصر الحجرى القديم الاوسط على فك انسانى فى كهف «هوافتيح» — الى الشرق قليــلا من مرس ســوسة (أبوا ونا القديمة) فى غرب درنة بمنطقة الجبل الاخضر فى ليبيا — وطبقا لتأريخ «كربون ١٤» ، فلقد أرخ الفحم الخشبى الذى عثر عليه فى الموقع بحوالى ٤٣٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد[٢] ، وقد أكدت الدراســات الدقيقة لانسان «هوافتيح» أنه قريب الشبه بانسان «الطابون» و «الكرمل» فى فلسطين[٣] ، فضلا عن التشابه فى الصناعة الحجرية ، مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنــوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ، مما دفع البعض الى القول بأن هذا الانســان قد دخل هذه المنطقة من الجنوب اثر هجرة جنوبية — شمالية ، ظهرت آثارها كذلك فى وادى النيل ، ثم تطور بعد استقراره فى هذه المنطقة[٤] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه قد عثر على عدد من البقايا

---

(١) رشيد الناضورى : المغرب الكبير ص ٥٤ — ٦١ ، وانظر :
H. V. Vallois, L'homme de Rabat, BAM, III, 1958-1959, P. 89.
C. B. M. Mc Burney, The Stone Age of Northern Africa, London, 1960, P. 118.

2) C. B. M. Mc Burney, The Haua Fteeh (Cyrenaica) and The Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1961, P. 168.
3) Ibid., P. 349.

(٤) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٦١ — ٦٢ •

العظمية الانســانية فى الكهوف والمغارات الساحلية المواجهــة للمحيط الاطلسى ، والتى تمتد على طول الساحل المغربى مثل كهوف : مغــارة العالية وأشقر فى مجاورات طنجة ، ودار السلطان — على مبعدة ٦ كيلا جنوب غرب الرباط ، والخنزيرة جنوب الجديدة وغيرها ، بسبب عوامل التحات والتعرية الناجمة عن مياه المحيط والصخور المتاخمة للساحل ، وكانت هذه الكهوف مأوى للانسان فى تلك المناطق منذ عصــور ما قبل التــاريخ[٥] •

وأما فى العصر الحجــرى القديم الاعلى ، والذى تتمثل حضارته — كما أشرنا من قبل — فى حضارتين ، الواحدة : الحضارة الوهرانية (الايبرو مغربية = الايبرو موريتانية)[٦] ، والاخــرى : الحضــارة القفصيــة •

وكان أصحاب الحضارة الوهرانية من ســلالة «مشتا العربى»[٧] (حوالى ١٣٫٠٠٠ ق٠م) ، وهم طوال القامة (١٫٧٣ مترا فى المتوسط) ، مستطيلو الرؤوس ، لهم جبهة ضيقة ، وشفاه طويلة ، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطنا فى المغرب[٨] ، وكانوا يمارسون عادة خلع الاسنان القاطعة ، ثم بدا يظهر تحول نحو قصر الرأس ونحافة الجسم فى أماكن

---

(٥) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٦٢ •

(٦) أنظر ما سبق أن ذكرناه فى هذه الدراسة عن هذه المصطلحات •

(٧) هناك من يذهب الى أن العنصر البشرى فى المغــرب فى مرحلة العصر الحجرى الحديث — كما أظهــرته الجمــاجم والهيــاكل العظمية الانسانية فى الطبقات الاثرية — انما ينتمى الى انسان «مشتى العــرب» (مشتا العربى) ، وهذا يتفق مع الانتقال الذى تم تدريجيا من حضارات القفصية والايبروموريتانية الى حضارة العصر الحجرى الحديث ، ويعتبر غياب الشواهد من الطبقات الاثرية عن تغيير فجائى فى هيئة التسليح ، انما يشير الى عدم قدوم عناصر جديدة فى شكل هجرات باعداد كبيرة قادرة على تغيير أنماط الحياة التى كانت سائدة (أنظر : حسن الشريف : دراسة تاريخية لحضارة المغرب القديم أثناء العصر الحجرى القديم : ص ١٨٢ ، وكذا

C. Arambourg, M. Boule, H. Vallios et R. Verneau, les grottes Paleolithiques des Beni-Segoual (Algerie), AIPH, Memoire, 31, 1934.

8) L. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1955, P. 375-377.

G. Camps, Op. Cit., 1974, P. 81-86.

معينـــة أظهرهـــا «كولومناتـــا» (Columnata) في غرب الجزائر[٩] ، وذلك حوالي عام ٦٠٠٠ ق٠م ٠

ولعل من الجدير بالاشارة الى أن هناك من يذهب الى أن انســـان «مشتا العربي» من أصل غربي لوجود شبه بينه وبين انسان كرومانيون ، وكذا انسان جزر كناريا ، والتي كانت بمثابة ملجأ بشري تصـــل اليه العناصر البشرية من المغرب ، غير أن هناك فريقا من العلماء انما يرى أن ذلك أمـــرا بعيد الاحتمـــال ، ذلك لأن «الجـــوانشيين» (Guanches) رغم أنهم مشابهون أنثروبولوجيا لرجـــال «مشتا العربي» ، فانهم لا يماثلونهم في الحرف والصناعات والعادات ، كما أن الحضارة الوهرانية لم تأت من أوربا ، ذلك لأنها انما ظهرت قبل بداية الملاحة عبر المضايق (حوالي الالف الرابع قبل الميلاد) ، ومن والى صقلية ، وهناك ما يحمل على الظن بأن أصولها شرقية ، ومن المحتمل أيضا أنها أتت من شـــمال سودان وادي النيل — فيما يرى تكسيير — ومن ثم فما داموا قد أتوا تحت ضغط من الشعوب المهاجرة ، فلا شك أن «الايبيريين — الموريتانيين» قد اتخذوا ملاجيء في التـــلال ، ويمكن أن يعتبروا أحـــد العنـــاصر الانثروبولوجية لسكان الجبـــال[١٠] ٠

وأما القفصيون ، فقد ظهروا حوالي عام ٧٠٠٠ ق٠م ، وهم قوم لهم قوام رشيق ، من جنس البحر المتوسط ، ولكنهم لم يخلو من الصفات شبه الزنجية ، وقد ازدهروا في منطقة غير محددة تماما ، ولكنها بالتأكيد تقع في الجزء الداخلي ، دون الامتداد ، فيما يبدو ، الى أقصى الحدود الغربية لشمال أفريقيا ، ولا الى الصحراء الجنوبية ، وفي الغالب ، فلقد استوطنـــوا روابي أو منحدرات قرب مصـــب مائي ، ولكنهم في بعض الاحايين ، انما كانوا يستوطنون السهول التي تنتشر فيها البحيرات أو

---

(٩) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣١ — ٤٣٢ ، وكذا
M. C. Chamle, Les home epipaleolithiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C.R.A.P.E, XV, 1970, P. 113-114.

(١٠) جيهان ديزانج : المرجع الســـابق ص ٤٣٢ ٠

المستنقعات ، وكان غذاؤهم يشمل القواقع ، وأما الثقافة القفصية فقد جاءت كذلك من الشرق ، ولم تستطع الانتشار عن طريق البحر ، وقد أنتهت حوالى عام ٤٥٠٠ ق٠م[١١] ٠

هذا ورغم أن الجمجمة القفصية انما كانت مشابهة للانواع المعاصرة لها من الجماجم ، فمن المعتقد أنه لم يكن هنـاك أى دليل على وجـود البربر البدائيين الاصليين حتى العصر الحجرى الحديث ، حيث يبدو أن شعائر القفصيين فى الدفن لم تنتشر فى عالم ليبيا البربرية[١٢] ، ومع ذلك ، فان عادة استخدام وتزيين بيض النعام ، والتى كانت — فيما يرى كامبس — فابريه — احدى خصائص الحياة القفصية ، استمرت أثناء العصر الحجرى الحديث ، حتى الوقت الذى ذكرت فيه الشعوب الليبية فى السجلات التاريخية ، مثل الجرمانتيين[١٣] ٠

وطبقـا لـ «لوكيانـوس» Lucianus [١٤] فلقـد استخـدم الجرمانتيين البيض فى أغراض شتى ، كما تشير الى ذلك الحفائر التى أجريت فى «أبو نجيم» (فى المناطق الداخلية فى تريبوليتانيا — اقليم طرابلس) ، ومع هذا ، فليس هناك من ريب فى أن رجال العصر الحجرى الحديث انما يعتبرون أبناء عمومه القفصيين ، ومهما يكن من أمر ، فان التعمير التاريخى للمغرب انما هو ، على وجه اليقين ، نتيجة اندمـاج — بنسب لم تحدد بعد — بين ثلاثة عناصر : الايبيريين — الموريتانيين ، ثم القفصيين ، فسلالة العصر الحجرى الحديث[١٥] ٠

---

(١١) جيهان ديزانج : المرجع السـابق ص ٤٣٢ ، وكذا
G. Camps, Op. Cit., P. 159, 265.

12) L. Balout, Op. Cit., P. 435-437.

13) H. Camps-Fabrer, Matiere et art Mobilier dans la Prehistoire Nord Africaine et Saharienne, Paris, 1966, P. 7.

14) R. Rebuffat, Zella et Les routes d'Egypte, Libya antiqua, VI-VII, 1969-197, P. 12.

(١٥) جيهان ديزانج : المرجع السـابق ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ ٠

(٢) فى العصر الحجرى الحديث :

سكنت القبائل البربرية المغرب فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، والذى تميز بالاستقرار والرعى والزراعة ، هذا وقــد أختلف العلماء أختلافا كبيرا ، حول أصل البربر ، والعائلة البشرية التى ينتمون اليها ، وكتب فى هذا الموضوع كثير من المؤرخين ، وخاصة العلامة «عبد الرحمن ابن خلدون» (١٣٣٢ — ١٤٠٦م) ، وقد أطلق البربر على أنفسهم اسم «الامازيغ» — أى الاحرار — وأغلب الظن أنهم ينتمون الى مجموعة الشعوب الحامية التى جاءت عن طريق شبه جزيرة سيناء ، أو عن طريق القرن الافريقى ، من موطنها الاصلى الذى يظن أنه كان فى اليمن أو عمـان •

وأما كلمة «بربر» ، فأكبر الظن أنها مشـــتقة من الكلمة اللاتينيــة (Barbarus) ، وهــو التعبــير الذى استخدمه الرومــان للشـــعوب التى يرون أنها أقل منهم حضارة ، وعلى أية حال ، فالبربر ، انما هم من جنس البحر الابيض المتوسط بوجه عام وان تفاوتت صفات هذا الجنس فيهم حسب أماكن استقرار قبائلهم فلقد استقرت بعض القبائل فى الشمال ، والاخرى فى الجنوب ، الامر الذى جعلها تتأثر بالموجات البشرية القادمة عن طريق البحر المتوسط أو عن طريق الصحراء(١٦) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشـــارة الى أنه من المتفق عليه — بصفة عامة — أن العصر الحجرى الحديث انما يبدأ بصناعة الفخار ، وطبقا لتأريخ «كربون ١٤» ، فان استخدام الفخار انما قد انتشر من الصحراء الوسطى والشرقية ، وداخل هذه المنطقة — التى تعد أقدم مثال على العصر الحجرى الحديث — يظهر التأثير السودانى ، ويمكن أن تؤرخ بدايات صناعة الفخار بالالف السابع قبل الميلاد ، فى المنطقة الممتدة من «أنــدى» (Ennedi) الى «الهوجار» (Hoggar) ، وربمـــا كان الصناع سودا ، أو أشباه زنوج ، ينتمون الى ســـودانى الخـــرطوم

---

(١٦) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٦٥ — ٦٦ •

المبكـــرة[١٧] .

بقيت الاشارة الى أنه فى الأزمنة القديمة ، كان الرجال ذو البشرة السوداء ، الذين أسماهم الاغريق فيمـا بعد «الاثيوبيين» (بمعنى الوجوه المحروقة) ، على اتصال بالعالم البربرى الليبى ، فى معظم واحات الصحراء — فى «فزان» ، وفى كل المنحدرات الصحـراوية فى سلسلة أطلس — وقد عاشوا مسالمين ، واشتغلوا بجمع الطعام والصيد ، فضلا عن الزراعة التى قامت على طرق الرى القديمة ، وان ذهب البعض الى أن جمع الطعام استمر لوقت طويل المصدر الرئيسى لهؤلاء الاثيوبيين[١٨]

ومن الخطأ أن نتصور وجود صحراء أثيوبية كاملة فى العصرين — الحجرى الحديث وما قبل التاريخ — حتى وان حرصنا على اعطاء لفظ «أثيوبى» معناه الواضح ، وهو «رجل ملون» ، وليس «رجلا زنجيا» ، ويذهب «شاملا» الى أن ربع الهياكل العظمية فى هذه الفترة هو الذى يمكن أن يتماثل مع هياكل الرجال السود ، بينمـا لا تبين أكثر من ٤٠٪ أية صفات زنجية[١٩] .

وعلى أية حال ، فهناك الكثير من الأدلة على وجود الاثيوبيين على الحدود الجنوبية لأفريقيا الصغرى ، وخلال العصر القديم ذكرت كذلك شعوب تنتمى للسلالات المتوسطة : الجيتوليون السود (Melano Getulas) والاثيوبيـون البيض (Leuco Ethiopians) ، بصـفة خاصـة عند

---

17) G. Camps, Op. Cit., P. 269.
H. J. Hugot, Recherches dans L'Ahaggar Nord Occidental, 1950-1957. MCRAPE, I, 1963, P. 134, 138, 185.

(١٨) أنظـر :

S. Gsell, Histoire ancienne de L'Afrique du Nord, P. 293-304.
H. Lhote, Problemes Sahariens, P. 67-68.

(١٩) أنظـر :

M. C. Chamla, Les Populations anciennes du Sahara et des regions Limitrophes Etude des restes Osseux humains Neolithiques et Protohistoriques, Mem. CRAPE, IX, 1968, P. 248. Pl. 8.

بطليموس الجغرافى ، وقد وصف الجرمانتيون أنفسهم أحيانا ، بأنهم سود نوعا ، أو حتى شديدو السواد ، وطبقا لبطليموس ، فانهم قليلو السواد ، وأنهم على الارجح أثيوبيون ، ويؤكد مســح أنثروبولوجى أجرى فى مدافنهم ، ان صفاتهم الجنسية ذات طبيعة مختلطة[٢٠] .

(٢٠) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٣٦ .

الفصل الثانى

التحنو والتمحو والمشوش والليبو

شهدت الاعوام ما بين ١٤٠٠ ، ١١٠٠ ق٠م ، تغيرات خطيرة فى منطقة البحر الابيض المتوسط ، والبلاد الواقعة الى الشرق منه ، ذلك لأن هذه المنطقة كانت قد تعرضت فى أوائل القرن الرابع عشر ق٠م لهجمات اعداد لا حصر لها ، سواء من الشعوب المتبربرة التى تنتمى أصلا الى وسط آسيا والتى يطلق المؤرخون عليها اسم الشعوب «الهندو — أوربية» (الهندية الاوربية) ، أو من الشعوب التى زحزحها هؤلاء عن أماكنهم ، وقد قدمت هذه الشعوب المهاجرة من الشمال ، ويبدو أنها وصلت الى مناطق شرق أوربا من شمال البحر الاسود ، وحطوا رحالهم فى شمال البلقان ، ثم انتشروا جنوبا على عربات ثقيلة تجرها الخيول ، وكانوا دائمى التحرك ، محبين للنزال والقتال ، قساة القلوب تواقين الى سفك الدماء ، وانتهى بهم المقام فى هذه المنطقة ، فاستقر الايوليون فى شمال البلقان ، واستقر الايونيون فى وسط بلاد اليونان ، وانتشر الدوريون فى أنحاء الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى الغربية المطلة على بحر الارخبيل وفى جزر هذا البحر ، وهكذا بدأ التاريخ يتحدث عن الاغريق القدماء الذين التقوا لأول مرة بحضارة الايجيين الزاهرة المتقدمة ، وكانوا فى التقائهم بأهلها على جانب من الوحشية والقسوة ، بحيث أن حضارة كريت اندثرت وانتهت على أيديهم ، كما كانت جزر بحر الارخبيل بمثابة ميادين لقتال مرير بين أهلها الاصليين وبين المغيرين ، وانتهى الامر بأن الآلاف من الاسرات التى كانت تسكن هذه الجزر قد اضطرت الى الهرب ، فركبت سفنها وهامت على وجهها فى البحر المتوسط تبحث عن وطن جديد[1] .

---

(١) د٠ عبد المنعم أبو بكر ـ كفاحنا ضد الغزاة ص ٤١ .

وفى أثناء ذلك كانت هناك موجة جديدة تنحدر من وطن هندو أوربى فى اشمال الشرقى ، وتستجمع قواها لتصبح صاحبة السلطان فى المناطق الساحلية فى شرق البحر الابيض المتوسط ولتنافس سكانه الاصليين من المصريين والسوريين والحيثيين على السيادة ، ولتحطم تماما ذلك التوازن الذى كان سائدا فى بلاد الشرق القديم ، وكانت بلاد الاناضـــول هى المسرح الاول للصدام المرير المرتقب •

ومن الغريب أن كل هذه الافواج المتحركة ، سواء من المغيرين ، أو من المهاجرين أمامهم ، وسواء وصلت الى سورية ، أو اتجهت بسفنها غربا ونزلت على سواحل أفريقيا الشمالية كانت كلها تتجـــه بأبصارها الى وادى النيل الخصيب الموفور الثـــراء حتى كأنما كانوا جميعا على موعد ، فقد هبت أفواجهم كالجراد ، واتجهوا الى حدود مصر الشرقية والغربية ، وتحركوا فى جماعات لا حصر لها ، كل منهم يرغب فى الوصول الى أرض الكنانة ، ففيها يجد ذلك الوطن الرؤوم والحياة السهلة والثراء السريـــع[٢] •

وهكذا تعرضت مصر فى الفترة ما بين السنة الخامسة من عهد مرنبتاح (١٢٢٤ — ١٢١٤ ق•م) والسنة الحادية عشرة من عهد رعمسيس الثالث (١١٨٢ — ١١٥١ق•م)[٣] الى غزوات ثلاث من ناحية الغرب ، والى واحدة — على الاقل — من ناحية الشرق ، وقد يكون الامر غير خطير ان كانت مصر فى أوج قوتها — كما كانت أيام تحوتمس الثالث — ولكن الامر يختلف هنا ، اذ أن مصر كانت فى هذه الفترة تمر بأزمات عصيبة ، وتضعضعت قواها وأخذت تنحدر نحو الانحلال والتدهور ، ومع ذلك فقد استطاع كل من «مرنبتاح» و «رعمسيس الثالث» أن يثبت أنه على مستوى المسئولية ، وأنه جدير بعرش الفراعين ، ونجح كل منهم فى أن ينقذ مصر — بل وسورية وفلسطين — من هذا الخطر الداهم •

(٢) نفس المرجع الســابق ص ٤٢ •
(٣) هذه التواريخ من جاردنر
(Egypt of the Pharaohs, P. 445-6).

وأما هذه الشعوب التى هاجمت مصر ، فقد كانت على أيام مرنبتاح تتكون من الليبيين وأقربائهم المشوش وقهق ، بجانب خمسة من شعوب البحـــر ، هم «الاقاواشـــا» (اقوش) ، ولوكا وتورشـــا والشردان وشيكلش ، وأما نصوص رعمسيس الثالث فتشير (كما سنذكر ذلك فيما بعد) الى جماعات فى الغرب وهى : تحنو وتمحو والمشوش والليبـو والاسبات والقايقاش والشايتب والهاسا والبقان ، وأما جماعات شعوب البحر فهى : البلست والثيكر والشكلش ودنين ، و «وششن» ، وسنحاول فيما يلى التعرف على هذه الشعوب وموقعهـــا بالنسبة لمصر على قدر الامكـــان •

أولا ــ الشـــعوب الليبيـــة

(١) ــ التحنـــــو :

لقـــد ورد اسم تحنـــو فى نصوص رعمسيس الثالث ، الا أن ذكر التحنو ، أو تحنى (TJehnu, Thny) قد جاء فى النقوش المصرية منذ فجر التاريخ المصرى ، وأقدم اشارة اليهم ترجع الى عهد الملك العقرب ، اذ كتب اسم بلادهم على أثر يصور أسلابا أحضرت من هناك ، ثم من عهـــد الملك نعرمـــر Narm ، ومنذ الدولة القديمة حتى الاسرة الثامنة عشرة كان سكان تحنو (T Jehnu) Thnu يذكرون باعتبارهم «حاتبوعا» Hatyu - ca وهو لفظ كان يطلق على الامراء المصريين[٤] ، وبذا فان «تحنو» اسم منطقة جغرافية وليس اسما لقوم ، هذا وقد ذكرت بلاد تحنو كذلك على أثر من عهد الملك منتوحتب (نب حتب رع) من الاسرة الحادية عشرة ، الى جانب قومى النوبيين والاسيويين ، كما جاء ذكرهم فى قصة «سنوهى» بأنهم الذين يسكنون بلاد تحنو ، ويرى الدكتور أحمد فخرى أن كلمة «تحنو» قد استعملت منذ الاسرة الثانية عشرة للسكان ، كذلك ، وذلك حين فقدت كلمة تحنو معناها الاصلى[٥] •

---

4) Gardiner, A. H. Onomastica, I, 1974, P. 116-117.

5) Fakhry, A. Bahria Oasis, I, 1942, P. 5.

وأما موقع أرض تحنو ، فكانت تقع — دون شك — الى الغرب من مصر ، ذلك لانها تذكر دائما عندما تذكر أسماء البلاد التى تقع غربى مصر ، كما أنها تذكر بموقعها الغربى عند الحديث عن جيران مصر ، هذا الى أن نقوش «ساحورع» قد ذكرت لنا بلاد «تحنو T Jehnu - Thny بأنها غربى مصر ، ويحددها لنا «هولشر» بطريقة أكثر دقة ، فيرى أن هذا الاسم كان يطلق غالبا على المكان الذى يستخرج منه النطرون الذى كان يستعمل فى مصر لتحضير طلاء أشكال الخزف والزجاج[6] ، ولكن هذه البقعة ليس فيها من الخيرات ، ما يصلح لسكنى عدد كبير من الناس ، وكذلك يلاحظ أن تصوير الاشجار ضمن الغنائم — كما فى لوحتى المعقرب ونعرمر — يوحى الينا بأن أرض تحنو لا تشمل بلادا صحراوية فحسب ، بل تشمل كذلك بقاعا خصبة فى غربى وادى النيل ، ومن هنا يتجه الانسان الى التفكير فى واحة ، قد تكون واحة الفيوم ، ويذكر هولشر نأن «بسنج» قد أكد ذلك ، اذ شاهد فى نقش من عهد «منتوحتب» وفيه يعلق أحد رؤساء تحنو صور سمك فى حزامه، ومن هنا استنتج أن الفيوم هى موطنه ، كما أن الاله «سبك» (التمساح) منذ القدم كان يقدس فى الفيوم ، كما أننا نرى «سبك» فى نص يرجع الى عهد طهراقا يمثل بلاد تحنو ، (كما كان الاله «ددون» يمثل النوبة ، و «سبدو» يمثل بلاد آسيا ، و «حور» يمثل مصر) ، كما أننا نشاهد «سبك» يمثل عدة مرات بوصفه سيد بلاد «باش» وهى — طبقا لنصوص ساحورع — جزء من بلاد تحنو ، كما ذكرته نصوص الاهرام[7] ، «سبك سيدباش» ثم ذكر بعد ذلك مباشرة أهل («أعموا» العظام جدا الذين فى مقدمة «تحنو») ، كما ذكر فى كتاب الموتى بأن «سبك سيد باش» عدة مرات ويذكر هولشر كذلك أن «زيته» تكلم باسهاب عن موقع بلاد «باش» بوصفها غربى مصر ، ثم يقرر بعد مناقشة طويلة أن بلاد

6) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Indestries, London, 1948, P. 106.

(٧) أنظر :

K. Sethe, Pyramiden Texte, L. 456 a.

تحنـــو تقع فى اقليم وادى النطـــرون والفيوم ، وأن قوم تحنـــو قد استوطنوها ، خاصة وأنه ليس لدينا ما يناقض ذلك من نقوش الاسرة الخامسة بصفة خاصة[٨] .

ويعترض الدكتور فخرى على هذه النظرية ، بأن كلا من المكانين — وادى النظرون والفيوم — كان معروفا للمصريين جيدا ، وقـــد وجدت أسماؤها على آثار الاسرتين الرابعة والخامسة ، كما أن وادى النطرون مكان فقير يستطيع بالكاد اعالة ما يزيد على الالفين من الســـكان وفى مستوى معيشى فقير ، ومن هنا فان هذا المكان لا يمكن أن يكون مقرا لهؤلاء القوم الذين كانوا مزعجين للفراعنة باستمرار ،أما عن الفيوم فقدكان ينظر اليها منذ بداية التاريخ المصرى بوصفها احدى الاقاليم المصرية ، وكانت تسمى البحيرة ، ومن هنا فيجب علينا أن نبحث عن مكان آخر ، ويرى بعد ذلك أن مريوط وواحة سيوه والبحرية وبرقـــة هى الاماكن التى يحتمل أنها كانت أرضا للتحنو ، ويرى أن تفسير «نيوبرى» بأنها بلد الزيتون معقول ، ذلك لان أشجار الزيتون تنمـــو بكثرة فى مريوط والواحات وبرقة ، وربما سمى المصريون هذا الاقليم باسم الشـــجرة الغير مألوفة فى مصر ، وان كانوا قد استعملوا زيتها[٩] .

ويرى «جاردنر» أن التحنو يظهـــرون ، وكأن بينهم وبين المصريين قرابة وثيقة ، وقد وضع اسم تحنو على لوحة الملك العقرب بين عدد من الاشجار ، ويذكر «جاردنر» أن «نيوبرى» اعتقد أنها شجر الزيتون ، ومما له أهميـــة فى هذا الصـــدد ، أن هناك نوعـــا من الزيت قد ذكر باسم «حاتت تحنو Hatt - Thnu (أى زيت من الدرجة الاولى) ، وقد كتبت هنـــا كلمة « تحنـــو » ، بنفس الطريقـــة التى كتبت بهـــا «بلاد تحنو» وقد برهن «نيوبرى» أن شجر الزيتون يعد من الاشجار المتوطنة فى الشمال الغربى من أفريقية .

---

8) Holscher, W. Libyer und Agypter, P. 21 F.
9) Fakhry, A,. Op. Cit., P. 5-6.

ويرى «جاردنر» بعد ذلك أن ملاحظة نيوبرى رغم أنها لم تساعدنا على تحديد موقع بلاد تحنو بالضبط ، فان وجهة نظره بأنها تقع مباشرة فى الغرب من الشمال الغربى للدلتا ، تتفق مع حقائق أخرى فى رأينا ، ففى حملة سنوسرت الاول ضد بلاد تحنو ، قد أحضر معه أسرى وصفوا بأنهم «هؤلاء الذين هم فى أرض تحنو» ، هذا فضلا عن احضاره ماشية كان من المستحيل أن تجد ما يلزمها الا فى أرض على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، هذا ولدينا طقوس تربط بلاد تحنو بغرب الدلتا ، منها الاله «تحنوى» (أى صاحب تحنو) ، فانه يوجد ضمن آلهة أخرى من آلهة الوجه البحرى ، ويمكن توحيده بالاله «حور تحنو» الذى ذكر فى مناسبات مماثلة ذكرها — فيما يرى جاردنر — «نافيل» فى كتابه المسمى «قاعة العمد»[١٠] كما يذكر «جاردنر» أن أن «كيس Kees » قد وحد هذا الاله بالاله «تحنو» صاحب الذراع العالية ، والذى ذكر عدة مرات فى عهد الدولة القديمة ، وكذلك نجد الالهة «نايت» صاحبة تحنو قد ذكرت مرة •

وعند هذه النقطة — يرى جاردنر — أنه يجب أن نناقش بعض الحقائق التى دعت «زيته» وتبعه فيها «هولشر» الى أن يقترح بأن الفيوم ربما كانت فى الازمنة القديمة ضمن بلاد تحنو ، فقد سجل فى مناظر المعبد الجنزرى لـ «ساحورع» كلمة «بباش» (والمعروف بـ «باخو») Ba h W وهو اسم ، على الرغم من أنه أطلق فيما بعد على جبل يعرف بأنه الافق الشرقى لمصر ، كان فى الاصل جبلا فى الغرب ، وكان الاله «باخو» هو الاله «سبك» الذى يمثل فى صورة تمساح ولم تكن عبادة «سبك» قاصرة على الفيوم ، بل ان قائمة ادفو العظيمة وصفته بأنه اله المقاطعة الرابعة من مصر السفلى وكذلك وصف «سبك» بأنه ابن الالهة «نايت» ، وقد عبد فى المقاطعة الصاوية (نسبة الى صا الحجر) ، ومع ذلك فرغم العلاقات الوثيقة بين آلهة الدلتا وبين بلاد تحنو ، فليست لدينا براهين قاطعة على امتدادها

---

(١٠) أنظر : E. Naville, Festival Hall, P.. 7, 20.

بعيدا الى الجنوب ، وكل ما يمكن استنتاجه مما سبق ان «تحنو» تقع فى غربى مصر ، وأن تحنـو الدولة القديمة ، وما فيها من آلهـة مصر السفلى وما فيها من اسماء مصرية الاصل وملابس رؤسائها التى تتفق تماما مع الملابس المصرية يـدل على ان بلادهم كانت تشتمل التخوم الغربية للدلتا ، أو كانت تقع على حدودها تماما .

وأما فى غزوات مرنبتاح ورعمسيس الثالث ، فنلاحظ أن كلمة تحنو ، وعبارة قوم تحنو ، قد استعملت كلها فى الغالب بمعنى تقليدى مبهم ، ولكن لما كانت نقوش الكرنك العظيمة التى تركها مرنبتاح تقرر : «أن أمير لبيـو قـد انقض علـى أرض التحنـو Hast nt Thnu فيمكننا أن نعتبر التعبير يـدل على أن هـذا الاقليم ما زال هـو الملاصـق للدلتا مباشرة من جهة الغرب ، ومن المحتمل أنهم كانوا دائما يعدون من أصل لبيى ، ذو بشرة بيضاء ، ويتكلمون لغة بربرية[11] .

وأما عن التشابه بينهم وبين المصريين ، فقد كانوا سمرا مثلهم ، كما كانوا يختتنون مثلهم كذلك ، وكان التحنـو يعلقون فى ملابسهم ذيولا (الذيل المعلق فى الحزام) كالتى كان يعلقها الفراعين ، ويحلون جباههم بخصلة من الشعر تحاكى صورة الصل المقدس الذى كـان يتحلى به الفرعون ليحميه من شمر الاعداء اذا هاجموه ، ويذكـر الدكتور سليم حسن أن «دولر» يرى أن خصلة الشعر التى تزين الجبهة هذه ،توجد كذلك عند الحاميين الذين يسكنون جنوبى مصر ، وكذلك عند أهل كريت ، هذا فضلا عن أننا نراها حتى يومنا هذا فى شرقى آسيا وقد ظن البعض أن هذه الخصلة هى الصل نفسه ، بيد أن من ينعم النظر يجدها خصلة شعر وحسب[12] ، وكانوا كذلك يرتدون قرابـا يضعون فيها عضـو التذكير ، وهى التى لبسها مصريو عصر ما قبل التاريخ ، وهذه الخصائص كانت تميز التحنو عن الليبيين وعن التمحو كذلك[13] . بل انهم كانوا

11) Gardiner, A. H. Onom. I, P. 117-19.

(١٢) د. سليم حسـن ــ مصر القديمة ج ٧ ص ٢٦ .

13) Gardiner, A. H. Op. Cit., P. 117.

يشبهون المصريين فى الاسماء ، فمثلا «ونى» و «خوتفس» والاول اسم القائد المعروف فى الاسرة السادسة ، والثــانى (ومعناه : المحمى من والده) اسم كثير التداول بين الاعلام المصرية ، يضاف الى ذلك أن لفظة «تحنو» ترجع الى أصــل مصرى بمعنى «البراق» (وقد تعــزى الى الملابس البراقة التى يلبسها التحنو) ، ونفس الكلمة «تحنـــو» معناها كذلك زجاج أو قاشانى ، وقد استعملت لفظة «تحنو» لتدل على الزجاج ، كما ان كلمة «صينى» تدل على القاشانى المجلوب من الصين أولا[١٤] .

وهكذا توجد أوجه شبه بين تحنو والمصريين ، مما يشير الى وجود علاقة وثيقة بين المصريين والتحنو من بعض الوجوه ، غير أن هذا التشابه لا يصل الى الملامــح ، الا كما يرى ، «ادوارد مايــر» — فيما يذكر هولشر — بأن المصريين يرجع أصلهم الى الجنس الليبى ، وهم الذين وفدوا على وادى النيل فى بادىء الامر بوصفهم صيادين ورعاة ماشية ، ثم أصبحوا فيما بعد زراعا . بل ان «هولشر» يرى أننا يمكننا أن نقرر أن كلمة تحنـــو مصرية ، ذلك لان التحنـــو يختلفون عن الليبيين الذين يقطنون بجوارهم ، فهم لا يتحلون بالريشة ، شعار الليبيين المميز ، وأن لهم صلة بالمصريين ، — بعكس الاقوام الاخرى — كل ذلك يوحى بأن التحنو كانوا فى الاصل — مصريين وأنهم سكنوا الوجه البحـــرى ، ثم هاجروا منه فى وقت ما نحو الغرب ، وسكنوا أقليم «تحنو» الواقع على الحدود المصرية ، حقا أنه لم يصل الينا حتى الان أثـــر من بلاد الدلتا يحدثنا عن هذه السلالة من الناس ، بيد أننا فى الوقت نفســـه لا نعد الاثرين الخاصين بالتحنو ، وهما أثرا الملك العقرب والملك نعرمر مجرد صدفة ، بل انهما أقيما بمناسبة انتصار الملكين على التحنو ، ذلك النصر الذى كان قبل توحيد الوجهين ، ويمكن القول أن أمير تحنو كان أميرا صغيرا بمثابة حاكم مقاطعة (حاتى عا) قد أصبح يطلق عليه أمير التحنو، وبمرور الزمن أصبح اللقب يطلق على هذه السلالة التى هجرت موطنها الاصلى ، وقد أحيط هؤلاء القوم الجدد فى موطنهم الجديد بأقوام لهم

(١٤) د. سليم حســن : المرجع السابق ص ٢٨ .

ثقافة خاصة ، وبخاصة وانهم قد انفصلوا عن مصر وقد كانت لهم ثقافة راقية ، ولكنهم قد اخذوا من ثقافة جيرانهم الجدد فى موطنهم الجديد بأقوام لهم ثقافة خاصة ، وبخاصة وانهم قد انفصلوا عن مصر وقد كانت لهم ثقافة راقية ، ولكنهم قد اخذوا من ثقافة جيرانهم الجدد ، ودليلنا وجود اسم غيرهم فى نقوش «ساحورع» وهم قوم «وسا» ، وعلى الرغم من هذا الاختلاط الجديد ، فانهم قد حافظوا على شخصيتهم وتقاليدهم وملابسهم الخاصة • وأما كيس عضو التناسل واستعمالهم له فيمكن أن يعزو الى أصل لبيى ، لانه كان مستعملا منذ الازمنــة السحيقة وبقى استعماله ، بينما هجــر فى مصر منذ وقت مبكــر ، ولم يستعمل الا فى الاحتفالات الدينية ، فنشاهد «زوسر» يلبسه فى حفل «شــوط تقديم القربان» ، كما نجد بعض الالهة يلبسونه من وقت لآخر[١٥] •

وقد حدث تغيير فى مدلول اسم «تحنو» بظهور ســلالة جديدة من الليبيين يطلق عليها اسم «تمحو» ، وترينا المناظر المصورة على جدران معابد «ساحورع» و «ببى الاول» الجهود الاخــيرة للتحنو فى نضالهم مع التمحو ، وفى الدولة الوسطى ، نرى اسم البلاد يطلق على سكانها ، كما أصبحت كلمة الغرب تطلق على بلاد تحنو ، ومن ثم أطلق على أهل البلاد «سكان الغرب» ، بل اننا لا نستطيع أن نميزهم على وجه التأكيد بعد الاسرة الخامسة ، اذ أصبحت كلمة تحنو ــ فيما بعد ــ تدل على الليبيين ، ففى نقوش «منتوحتب» (من الاسرة الحادية عشرة) نجد أن مميزات ملابسهم قد اختفت ، واذا ما وصلنا الى الدولة الحديثة نرى الملكة حتشبسوت تذكر فى قاعدة مسلتها بالاقصر ، أن الجزية من بلاد تحنو سبعمائة ســن فيل ، وذلك ينطبق على بــلاد نائية موقعهــا فى الجنوب[١٦] •

---

(١٥) د• سليم حســن : المرجع الســابق ص ٢٨ ، ٢٩ •
وكذا ASAE, 27, P. 108.
وكذا JEA, 12, P. 163.
وكذا L. Borchandt, Sahure, I, I, P. 50, Pl. 24.
16) W. Holscher, Op. Cit., P.19.
وكذا Urkunder, IV, P. 373.

وهكذا نجد أن لفظ تحنو فى أقدم العصور كان يدل على اسم مكان ويدل على أقرب الجهات الى مصر من ناحية الغرب ، ثم تغيرت دلالته فأصبح يطلق على اسم الاقوام الذين سكنوا فى غرب مصر ، ولكن بمرور الزمن أصبح هذا اللفظ لكثرة تداوله يدل على الليبيين عموما ، ولذا فان العودة الى استخدامه فى نصوص الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين (مرنبتاح ورعمسيس الثالث) الى جانب الفاظ تدل على أقوام آخرين قادمين من الغرب ، انما يوحى بأن المقصود به هنا هو الشعوب التى كانت أقرب الى مصر ، وخاصة من جهة الشمال الغربى ٠

(٢) التمحو :

ورد اسم التمحو فى نصوص رعمسيس الثالث — كما ورد اسم تحنو — ولكنهم مختلفون عنهم تماما ، ذلك لأن التمحو قوم ذو بشرة بيضاء وشعر أشقر وعيون زرقاء ، ولابد أن هؤلاء الذين كانوا يسكنون شمال أفريقية وصحراء ليبيا كانوا معروفين لدى المصريين قبل أن يظهر اسمهم فى النصوص المصرية ، ذلك لأنه فى عهد الاسرة الرابعة قد عرف أفراد ينسبون اليهم مثلوا على الاثار المصرية ، والواقع أنه قد صادفتنا حالة واحدة لم تتكرر ، وان كانت شواهد الاحوال تدل على أن هؤلاء التمحو هم الذين تتمثل فيهم الثقافة الليبية[17] ٠ أما هذه الحالة للتمحو ، فهى فى مقبرة «مرسى عنخ الثالثة» بالجيزة ، اذ وجدت والدتها «حتب حرس الثانية» (ابنة خوفو) قد صورت فى ثوب غير مصرى بعقدتين بارزتين على الكتف ، وتظهر ببشرة بيضاء ، وشعر أصفر براق ٠

وقد ذكر التمحو — لأول مرة — على الاثار المصرية فى عهد ببى الاول ، حيث ذكر «ونى» فى لوحته المشهورة[18] بلاد تمحو Ta - Tmh كواحدة من الاماكن التى حصل منها على جنود

---

17) Holscher, W., Op. Cit., P. 25.

(١٨) وجدت لوحة «ونى» بمقبرته بأبيدوس ، وهى الآن بمتحف القاهرة وتحمل رقم ١٤٣٥ ، وقد نشرت عدة مرات ، ولكن أحدث نشر لنقوشها ما قام به «ويلسون» ANET, P. 227-228.

لجيشه ، ويرى الدكتور سليم حسن أن علاقة مصر لم تكن وقتئذ وثيقة ببلاد التمحو ، ولا يمكن أن نفهم من وجود فرقة من هؤلاء التمحو فى الجيش المصرى ، أنهم كانــوا خاضعين للسيطرة المصريــة ، ولكن من المحتمل أنه كان يوجد جزء منفصل من قوم التمحو يعملون فى الجيش المصرى(١٩) .

وفى عهد الملك «مرى ان رع» خليفــة ببى الاول ذهب «حرخوف» شريف اليفانتين أثناء رحلته الثالثة الى «ايام» ، فوجد زعيمها ذاهبا الى «أرض تمحــو» (Ta - Tmh) ، هــذا وقــد اعتــاد التمحــو أن يهــاجروا الى مصر بعــائلاتهم ، امــا للاستقــرار أو ربمـــا للتجارة ، والمنظر المشهور فى مقبرة «خنــوم حتب» من عهد أمنمحات الاول فى بنى حسن ، يصور قافلة من هؤلاء التجـــار ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، وفى عهد الدولة الحديثة ازدادت الملاقـــات بين مصر وبين القوم الذين يعيشون على الحدود المغربية ، وقــد بدأوا فى تهديد أمن وادى النيل ، وقد بقيت اسماء التمحو والتحنو فى الاستعمال كأسماء جغرافية ، ولكن سادت أسماء قبيلتين أخريين من هؤلاء القــوم ، هم المشوش وليبو ، وقد أعطى الاخيرون اسمهم للبلاد التى سميت به حتى اليــوم(٢٠) .

وأما عن موطنهم ، فيقدم لنا «جاردنر» نظريته التــالية : انه من المستحيل توحيد أرض التمحو التى ذهب اليها أمير «ايام» ليشن حربا ضدها بالاقليم الشمالى الذى يحمل هذا الاسم الذى سمعنا عنه فيما بعد ، أما النظرية الجريئة التى تقترح أن أرض التمحو كانت تطلق على أى اقليم يحتله الليبيون ذو البشرة البيضاء فقد تجاوزت الحد ، فمثلا أن المدد الذى ضمه «ونى» الى جيشه من أرض التمحو كانوا قد أتوا من الواحة الخارجة ، وذلك لأنهم لم يذكروا فى الفقرة الخاصة بالدلتا ،

---

(١٩) سليم حســن : مصر القديمة جـ ٧ ص ٣٨ .

20) Fakhry, A., Op. Cit., P. 8.

ولكنهم ذكروا مع قبائل نوبية عـدة ، ولكن مما يدعو الى الحـيرة أن «حرخوف» يذكر أنه أثناء رحلته الثالثة الى «ايام» وجـد زعيمها قد رحل الى أرض التمحو «ليذبح التمح فى ركن السماء الغربى» ، ويبدو أن قيام رئيس قبيلة صغيرة من النوبيين بحملة الى الخارجة يعد مشروعا مستحيل المنال ، هذا فضلا عن أن الواحة الخارجة تقع فى اتجاه مغاير لموطن «حرخوف» فى اليفنتين ، كما انها بعيدة جدا عن بلاد يام ، وعند وصوله الى هناك وجد أن رئيسها قد ذهب لمحاربة الليبيين ، الذين يتوقع الانسان بناء على ذلك أن يكونوا فى مكان أبعد الى الجنوب ، ورغم ذلك فلا يوجد فى هذا الاتجاه منطقة مسكونة حتى «دنقلة» ، كما أن واحة «سليمة» لا تكاد تكون فى هذه المنزلة ، وحتى دنقلة لا يمكن أن تكون أرض التمحو التى كان ينشدها «حرخوف» أكثر من الواحة الخارجة .

واننى لأعترف أن هذه الفقرة قد هزمتنى تماما ، وأن أرض تمحو التى غزاها سنوسرت الاول — كما فى قصة سنوهى — يجب أن تكون فى شمال غرب الدلتا ، ومن الجائز أنها كانت تمتد غربا حتى «طرابلس» (أى أن أرض التمحـو تمتد فى شمال غرب الدلتـا حتى طرابلس) ، ويلاحظ أن عبارة «قوم تمحو» فى الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين كانت تستعمل على ما يظهر بمعنى تقليدى مهم ، فى حـين أن التسمية الاكثر دقة هى «الليبوومشوش» ، واذا كـان هناك أى فرق بين هـذه العبارة ، والعبارة التقليدية (تحنو) ، فانه ينحصر فى أن أرض تحنـو كانت أقرب الى أرض مصر من أرض تمحو(٢١) .

وهكذا يرى «جاردنر» أن بلاد التمحـو تمتد على الحدود الغربية لمصر حتى طرابلس والنوبة ، غير أن سليم حسن يذكر أن «مولر» يعتقد أنهم كانوا يسكنون فى غرب مريوط ، وعلى ذلك فهو يـرى أن التمحو الذين ذكروا فى قصة سنوهى قد بقى اسمهم حتى العصر الاغريقى فى لفظة «درماح» ومنه اشتق الاسم الليبى «دورماح — ثورناح» ، وفى

---

21) Gardiner, A. H. Op. Cit., P. 115-6.

المصرية القديمة «ترماح»[٢٢] ، والواقع أن هذا الاشتقاق فى ظاهره مغر ، وبخاصة عندما نعلم أن الكلمة اليونانية الاصلية «اترماح» معناها «أزرق العينين» ، كما ذكر لنا «فروبينوس» ، غير أن هذا الاشتقاق لا يرتكز على قواعد علمية صحيحة[٢٣] • والواقع أنه لا يوجد للان اشتقاق نطمئن اليه ، فالكلمة تتكون من ثلاثة حروف ساكنة «تمح» (ت م ح) — كما فى نقش حرخوف وقصة سنوهى — ثم نجد بعد ذلك اختلافات بسيطة فى الدولة الحديثة ، فكتب تمحو فى مقابر الملوك ، وفى متن الاجناس الاربعة التى كان يعتقد المصريون أن العالم مكون منها[٢٤] — ويرى بعض المؤرخين انها مشتقة من «تامح» ارض الشمال ، وأن رأوا أن هذا الاشتقاق غير صحيح ، وانه اما اشتقاق عامى ، أو نوع من التورية[٢٥] •

وأما رأى الدكتور فخرى فى موطنهم فهو يختلف عن ذلك ، اذ يرى أن التمحو كانوا يعيشون فى بلاد احتلها التحنو من قبل ، وربما قد عاش الشعبان فى نفس الوقت جنبا الى جنب ، ولكن التحنو قد فقدوا كيانهم ، وسرعان ما اندمجوا مع غزاتهم التمحو ، وليست هناك حاجة الى أن نفترض أن التمحو قد عاشوا فقط فى الجنوب ، ذلك لأنهم فى الحقيقة قد شغلوا كل اقليم التحنو ، وربما الشاطىء ، وقد تجولت بعض قبائلهم نحو الجنوب واحتلوا الواحات الخصيبة حتى دارفور[٢٦] ، وهذا ما يميل اليه الباحث •

وأما عن أصل التمحو • وهل هم مواطنون أفريقيون ، أم مهاجرون من قارة أخرى ؟ فهناك نظريتان ، أما الاولى ، فقد نادى بها — كما

---

(٢٢) د• سليم حسن : المرجع السابق ص ٦٣ •

23) Holscher, W., Op. Cit., P. 50.

(٢٤) كان المصريون القدامى يعتقدون أن العالم يتكون من أربعة أجناس هى : «رمث» (المصريون) و «العامو» (الاسيويون) و «النحسيو» (النوبيون أو السودانيون) ، «التمحو» (سكان الغرب) أو «الليبيون» •

(٢٥) د• سليم حسن : المرجع السابق ص ٦٤ •

26) Fakhry, A., Op. Cit., P. 7.

يذكر سليم حسن — «مولر» وقبلها «زيته» و «بيت» وترى أن سلالة التمحد ذو البشرة البيضاء ينتسبون الى قبائل البربر القاطنين فى شمال أفريقية وأنهم لا صلة لهم بسلالة تحنو ذو البشرة السمراء ، وأن التمحو ليسوا فرعا من التحنو ، كما أن التحنو ليسوا فرعا من التمحو[27] — وأنهم قد اتوا من أوربا الى شمال أفريقية ، ثم تجولوا على طول الشاطىء ، ثم توغاوا الى الجنوب ، ونحن نعرف أن هذا قد حدث عدة مرات فى العصور التاريخية ، وأنهم ينحدرون من قبائل الوندال (Vandals) أو أى جنس شمالى (Nordic) آخر[28] . ولكن هناك من يرى أن نسبة التمحو الى ليبى شمال افريقية الاخرين لا يرتكز على أساس متين ، وأن ما اتخذه «مولر» ليبرهن به على أن مقبرة بنى حسن — وان لم تذكر كلمة ليبيين — كانوا من التمحو معتمدا فى ذلك على صورة وجدها فى الدير البحرى وقد كتب عليها «رقص التمحو» فيمكن أن تتخذ دليلا ضده لا له ، اذ أن هؤلاء الراقصين مصريون ، ويمثلون رقصة هؤلاء القوم فحسب ، هذا فضلا عن أن أوجه الشبه بين الليبيين الممثلين فى مقبرة خنوم حتب وبين هؤلاء الراقصين ضعيف جدا ، وبخاصة اذا لاحظنا أن أول ظهورهم فى العهد الاغريقى يختلف عن الصور القديمة اختلافا بينا ، ولا يصح أن نجزم بالقول بأن ليبى مقبرة «خنوم حتب» هم من التمحو ، اذ أن الموضوع لا يزال معلقا[29] .

---

(٢٧) د. سليم حسن : مصر القديمة جـ ٧ ص ٤١ .

28) Fakhry, A. Op. Cit., P. 7.

(٢٩) د. سليم حسن : المرجع السابق ص ٤٣ ، ٤٤ وكذا
Moller, Die Agypter und ihr Libyschen Nachbarn P. 45, Note. I.
وكذا W. Holscher, Op. Cit., P. 30.
وكذا L. D, III, 136 d.

وهناك نظرية أخــرى ترى أن قوم «مجموعة ن »[٣٠] النوبيين فرع من التمحو ، وقد اعتمدت على أنها تظهر صلة بين الثقافة الاوروبية والافريقية عن طريق التمحو[٣١] ، ذلك أن الرحالة «نيوبلد» قام برحلة فى صيف ١٩٢٣م الى «وادى هوى Wadi Howa » كما قام بمثلها غيره ، وقد عثروا فى «وادى هــوى»[٣٢] هذا ، على فخار يشبه فخار «مجموعة C » التى كشف عنها «ريزنر» وغيره فى بلدة «كرما» وغيرها من بلاد النوبة ، ثم بدأ العلماء يربطون بين الاثنين وقد كتب الاثرى «باتس Bates » عن مجموعة C فى الصحراء الغربية ، وقال : «ان وجود الفخار هناك يعزى الى قبيلة من أصل ليبى هــاجرت الى هناك ، ويرى أنها من قوم «تمحو» ، معتمدا فى ذلك ــ كما يذكر سليم حسن ــ على التشابه بين الجماجم التى وجدت فى مقابر مجموعة C والتى وجدت فى المقابر الميجالينية فى شمال أفريقية ، ويذكر سليم حسن كذلك ، أن «هولشر» قد عضد هذا الرأى ببعض البراهين ، منهــا أنه يمكن تحديد تاريخ المجموعة C من أواخــر الأسرة السادسة حتى الاسرة الثامنة عشرة وهذه الفترة تعــد العصر الذهبى فى تاريخ قوم التمحـــــو •

ويبدو أن التمحو قد سلكوا طريقهم من الجنوب الغربى للصحراء متجهين نحو الشمال ، يؤكد ذلك ما عثر عليه فى وادى هوى من فخــار يشبه فخار المجموعة C ، هذا الى أن فخــار المجموعة C هذا لا توجد أوان سابقة له بل ظهر فجأة فى بلاد النوبة ، مما أوجــد احتمال غزو أجنبى ولكننا نجد فى منطقة مجاورة أوان مماثلة ، وربمــا كانت معاصرة ، وان كان لا يوجـد شىء بجوارها • ويحتمل أنهــا ليست فى موطنها الاصلى ، بل هى فى الواقع محطة فى طريق المهاجرين أو الجالبين للفخار النوبى ، وهكذا يعتبر فخار وادى هوى أنه كان فى طريق هجرة

---

(٣٠) يؤرخ عصر حضارة المجموعة (C) أو الثالثة بالفترة (٢٤٠٠ ــ ١٦٠٠ق٠م) بينما يؤرخ عصر المجموعة الثانية بالفترة (٢٩٠٠ ــ ٢٤٠٠ ق٠م) والاولى بالفترة (٥٠٠٠ ــ ٢٩٠٠ ق٠م) •

31) A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 7.

(٣٢) يقع وادى هوى على مبعدة ٤٠٠ كيلا جنوب غرب الشلال الثالث •

التمحو ، وهكذا نصل الى ان هناك صلة بين التمحو — وهم سكان شمال أفريقية الشقر — وبين هذه الاوانى الفخارية ، والان وقد عرفنـــا أن الفخار المصرى كانت به زخرفة أجنبية غائرة ، ومن ثم نصل الى الموطن المحتمل للتمحو ، والذى يعتقد انه ، اما أوربا أو اقليم البحر الابيض المتوسط ، وذلك لأن الفخار المصرى فوق أنه يمتاز بزخرفة خاصة وهى التلوين بوضع طبقة من الدهان ، كان يفضل من جهة أخرى فخار البحر الابيض المتوسط ، وكذلك غربى وشمال أوربا فى عهـــد ما قبل التاريخ بسبب الزخرفة المحززة • والواقع ان هناك صلة مدهشة من حيث الشكل والزينة بين هذا النوع من الزخرفة وبين الزخرفة الافريقية لا يمكن أن تكون مجرد صدفة أو توافق افكار ، ولاشك أنه توجد هنا روابط عظيمة قديمة لها أهميتها وضرورتها البالغة ، لأنها تجعلنا نطل على دور لعبـــة هؤلاء القوم فى حالات خاصة ليس فى الثقافة المصرية فحسب ، بل كذلك فى اقامة مبانيها(٣٣) •

(٣) المشـــواش :

المشـــوش أو المشـــواش Meshwesh احدى الشعـــوب التى ذكرت فى نصـــوص رعمسيس الثـــالث ، وهم قوم ليبيـــون ، وحدهم «بروكش» — كما يذكر جاردنر — بقوم «الماساى» والذين قـــال عنهم «بروكش» — كما يذكر جاردنر — يقوم «الماساى» والذين قال عنهم «هيرودوت» (٤ : ١٩١) انهم فى مجاورات تونس(٣٤) ، وهم يكونون احدى القبيلتين الهامتين — المشوش والليبيين — فى البلاد التى أصبحت تعرف باسم «ليبيا» بصفة عامة ، وأن هناك أشياء كثـــيرة مشتركة بين الليبيين والمشوش مما يثبت أنهما كانا من نفس الجنس ، ولكنهم يختلفون فى تفصيلات جـــوهرية ، منها أن الليبو كانوا لا يستعملون كيس عضو التناسل ، وأنهم كانوا لا يختتنون ، ولهذا السبب فقـــد كانوا يعتبرون دنسين ، بينما استعمل المشوش كيس عضو التناسل ، كما كانوا يختتنون وان كان «وينرايت» يرى غير ذلك لأن رعمسيس الثـــالث فعل معهم ما

(٣٣) د• سليم حسن مصر القديمة ج ٧ ص ٦٥ ، ٧٤ •

34) Gardiner, A. H. Onomastica, I P. 119.

فعله مع الليبو ، اذ قطع غلفهم وأيديهم كذلك ، هذا الى أن مرنبتاح يقرر فى مناسبات ، عدة أن عضو التذكير الليبى كان بغلف ، وهذا يعنى أنهم كانوا غير مختونين ، ومن هنا فيجب أن نأخــذه على أن المشوش كانوا كذلك غير مختونين ، وهكذا فان اختلاف الملابس بينهم وبين ليبو كانت مجرد نوع من الطراز • وان قرر بعد ذلك أنه ليست هناك صلات جنسية أو جسدية ، وهكذا فان المشوش ليبيون بالكاد — بقدر ما يذهب اليه دليلنا — وقد أتى ذلك تحت تأثيرات هــامة من شعوب البحــر ، منها استعمال السيف الطويل ، ومنهــا استعمال اشــارة لابعــاد الشر (Apotropaic sign) ، وذلك بالاشــارة باليد فى هيئــة القــرن فى وجــه الاعــداء (Manu Cornuta) ، وهــذه المقابلــة بين المشــوش والشماليين تميز المشوش عن الليبيين الاخرين •

ويناقش «وينرايت» بعد ذلك هذه المقابلة أو المشـــابهة ، فأما عن السيوف الطويلة ، فــيرى أنهم قد حصلوا عليها بطريقة ما ، وبأعــداد كثيرة ميزتهم عن أسرى مرنبتاح الاخرين ، حتى أن هذه الاسلحة قد احتلت المكان الاول بين غنائمه ، كما وصفهــا كذلك رعمسيس الثالث فى قائمة أسلا به التى غنمها من المشوش ، ويبدو أن المشوش قد حصلوا على السيوف الطويلة من أقوام أكثر منهم حضارة ، ذلك لأنهم أنفسهم كانوا مجرد رعاة ، وربما قد حصلوا عليها من قرصان البحر — كما يذكر باتس Bates وهولشر — ذلك لان بعض شعوب البحر — وبخاصة الفلسطينيين والشردان — قد حملوهـــا كذلك ، وان رأى «باتس» بعد ذلك أن المشوش قد حصلوا على السيوف الطويلة من الخارج ، لأنهم أنفسهم لا يستطيعون صنعها بسبب ندرة التكوينات المعدنية فى أوطانهم •

وهكذا فان المشوش لم يكونوا قادرين على صنع أسلحة جديدة ، بل ولا حتى على اصلاح القديم منها ، ودليلنا على ذلك الاسلحة القليلة التى حصل عليها رعمسيس الثالث منهم ، بعكس العــدد الكبير الذى حصل عليه مرنبتاح ، اذ أنه قد حصــل على ٢٣٩ سيفا من عدد القتلى ٣٨٨٦ من المشوش أى بنسبة حوالى ١ : ١٥ محارب ، وربما يفيد ذلك أن الغزو فى عهد رعمسيس الثالث كان أقل منه فى عهــد مرنبتاح وأن

عدد السيوف التى يمكن أن يحصل عليها من المشوش فى هجومهم الاخير كان أقل مما كان منذ ٦٠ سنة مضت •

وأما الوسيلة الاخرى التى يتشابه فيها المشوش مع شعوب البحر فهى الاشارة باليد فى هيئة القرن فى وجه الاعداء (Manu Cornuta) وقد كان أول من استعملها رجل يدعى «تحنـو» ويلبس ملابس تحنو القديمة ، «ومششر» زعيم المشوش فى عهد رعمسيس الثالث ، وان كان ليس لدينا دليل على أن تحنـو الدولة القديمة قد استعملوها ، وانمـا تقابلنا هذه الاشارة أول مرة فى عهد سيتى الاول ، ثم عملت مرتين ضد رعمسيس الثانى ، وهكذا يظهر المشوش فى التاريخ قبيل عهد رعمسيس الثانى وأثنائه[٣٥] — وان رأى «سـير ألن جاردنر» أن ذكرهم قد جاء لاول مرة فى عهد الملك أمنحتب الثالث[٣٦] — هذا وقد كانت هذه الاشارة تعمل اما بابهام اليد والاصابع الامامية،واما بالابهام والأصبع الصغرى• وربما ترجع اشارة الاصبع والابهام الى عادة صيد عرفت منذ الاسرة الخامسة ، حيث يشير الصياد بأصبع واحدة على أسد يمسك ثورا ، وعلى أية حال فربما استعمل الليبو — الذين يشبهون المشوش — هذه الاشارة، هذا الى أن الفلسطينيين كانوا أول شعوب البحر الذين استعملوها ، وان كنا لا نعرف ان كان أقوام «اقوش وتيرش ولوكـا وشيكلش» الذين هاجموا مرنبتاح مع المشوش قد استعملوا هذه الاشارة ، وان كان من الواضح أن الشردان الذين أتوا معهم لم يستعملوها ، ولكن الفلسطينيين ليست لهم أية علاقة بالمشوش ، فهم لم يهاجموا مرنبتاح أو رعمسيس الثالث مع المشوش أو الليبو ، انهم غـزاة مختلفون تماما هاجمـوا رعمسيس الثالث فى سنته الثامنة مع أقـوام آخرين من الشرق وليس من الغرب ، كما أن أحدهم كان يشير بالاصبـع الامامية المفردة ، ولم يكن يشبه فى ذلك المشوش ، وانما كان يشبه صـائد الاسرة الخامسة

35) Wainwright, G. A. The Meshwesh, in JEA, 48, 1962 P. 89.
36) Gardiner, A. H. Egypt of The Pharaohs, 1961, P. 283.

المذكور أعلاه ، كما أن الفلسطينيين يبدو أنهم قد علموا هذه الاشارة الى بعض الآموريين والحيثيين .

وأما عن شـــكل اسم المشوش ، فيرى «وينرايت» انه ينتهى بـ «شا» Sha ككثير من أسماء الشماليين مثل اقوش وتيرش وشيكلش ، وهكذا يبدو أن مشوش ينتمون الى نفس المجموعة ، ولكن ثبت أن هذه المشابهة مجرد صدفة ، فملابسهم وطنية ، كما أن «باتس» — كما يذكر وينرايت — يقرر أن اسم مشوش أو بالاحرى «مشو» هو شكل شائع عند البربر ، ثم يرى «وينرايت» بعد ذلك أن «شا» Sha لا يمكن أن تشتق من القبائل الاسيوية ، لأنها كانت مستعملة لمدة ١٥٠ سنة قبل أن تظهر شعوب البحر فى افريقيا فى عهـد مرنبتاح ذلك لأن أمنحتب الثالث قد استعمل الاســم فى سنته الرابعة والثلاثين ، أى فى عــام ١٣٧٤ ق.م[٣٧] . ومن هنا فان البــاحث يميل الى أن المشــوش من الليبيين — وليسوا من شعوب البحر — .

وأما عن علاقتهم بمصر ، فقد عرف اسمهم منذ عهد آمنحتب الثالث — كما ذكرنا آنفا — الا أنهم يذكرون بصراحة منذ عهد رعمسيس الثانى ، ورغم أنهم هم الذين كان يعنيهم سيتى الاول فى حروبــه الليبية ، فانه سماهم بالتحنو . وان لم يسلحوا بالسيوف الطويلة فى هذه الحرب ، ولم يحملوا اسم «المشوش» الا فى عهد رعمسيس الثانى حيث ذكروا مع الشردان وقهق والنوبيين ، وربما كانوا يؤلفون فرقــة فى الجيش المصرى ، وربما حدثت حروب ليبية أخذ فيها المشوش أسرى ، أما فى عهد مرنبتاح ورعمسيس الثالث فقــد اشتركوا مع الليبيين وغيرهم فى الهجوم عليها ، الا أنهم لعبوا دورا رئيسيا فى حرب رعمسيس الثالث الليبية الثــانية ، حتى أن «وينرايت» ليرى أن حــروب سيتى الاول ورعمسيس الثالث فى سنته الحادية عشرة قد سميت بالحرب الليبية ، رغم أنها كانت ضد المشوش وليست ضــد الليبيين ، بل انــه يرى أن

37) Wainwright, G. A., Op. Cit., P. 99.

الليبيين لم يظهروا بالمرة فى عهـد سيتى الاول[٣٨] (١٣٠٩ — ١٢٩١ ق.م) .

لقد استطاع رعمسيس الثالث أن يسحق هجوم القبائل الليبية التى هاجمت حدوده الغربية ، الا أن ذلك النصر لم يمنع المشوش من أن يأتوا الى مصر مسالمين هذه المرة ، ثم وضعوا أنفسهم تحت تصرف الفرعون ، وانضم كثير منهم الى الجيش كمرتزقة ، الا أن قلة الحروب فى الاسرة العشرين بعد عهد رعمسيس الثالث ، وعـدم توفر المال اللازم لدفـع أجورهم ، بجانب وجود فراعين ضعاف على العرش المصرى ، كل ذلك قوى من نفوذ هؤلاء الاجانب ، بمرور الزمن أصبح هؤلاء الذين أتوا الى أرض الكنانة يطلبون الرزق مثار قلق واضطراب ، حتى أننا أصبحنا نرى «العمال قد توقفوا عن العمل بسبب الخوف الذى أصـابهم من المشوش» ، كما اننا نرى عمال الجبانة يكتبون الى الوزير محذرين بأن «المشوش قد أتوا الى طيبة[٣٩] .

ولكن العلاقات لم تكن دائمـا عدائية مع هؤلاء المشوش (كمـا سنفصل ذلك فى البـاب التالى) حتى أن جماعة منهم قـد أقامت فى هيراقليوبوليس التى لا تبعد كثيرا عن مدخل الفيوم ، وسيكون منهم ذلك الزعيم الذى سيعتلى عرش الفراعنة باسم شيشنق مؤسس الاسرة الثانية والعشرين[٤٠] ، والذى كان قبل وصوله العرش يحمل لقب «رئيس المشواش العظيم» وهى تسميه ترجع فى أصلهـا — فيما يرى الدكتور الناضورى — الى منطقة شط الجريد جنوب قرطاج (تونس)[٤١] ، ومن ثم نجد كثيرا من الامراء الصغار يحملون هذا ـاللقب (أمير) ، مستعملين اما الكلمة المصرية (ور ـ Wr) أو الكلمة الليبية (مس Ms) ، وغالبا

---

38) Ibid., P. 89.
39) Wilson, J., AJSL, LI P. 81.
40) Cerny, G. Egypt from the death of Ramesses III to the end of 21 dynasty. P. 16.
(٤١) د. رشيد الناضورى المغرب الكبير ج ١ ص ٢٢٤ .

ما يكتبون كلمة «مشوش» باختصار «مي M = Me » ثم استقر المشوش في الاسرة الثانية والعشرين في الواحة الداخلة ، وفي داخل مصر كذلك، وأحدث اشارة وجدت على لوحة «بعنخي» حيث نجد على الاقل ستة من أمراء «مي» قد ذكروا كحكام لمدن مختلفة منها أبو صير ومنديس[٤٢] •

(٤) الليبيـــون :

ليبو Libu أو «ريب Rb » احدى الشعوب الغربية التى ذكرت في نصوص رعمسيس الثالث ، والكلمة مصرية تعني كلا من الارض والشعب ، ومن الواضح أنها تشير الى قبيلة خاصة في شـــمال أفريقية تعيش على مسافة كبيرة من مصر ، وعند الكتاب الاغريق الاوائل ، فان «ليبو» (ليبيا) لم تعد اسما لمنطقة خاصة ، وانمـــا تدل على كل شمال افريقيـــا غرب النيل وأمـــا اقدم ذكر لهم فكان من عهـــد رعمسيس الثاني[٤٣] (١٢٩٠ — ١٢٢٤ ق٠م) •

وبدأ الليبيون يلعبون دورا هاما بعد ذلك في التاريخ المصري ، فقد اشتركوا في الحروب ضد مرنبتاح ورعمسيس الثالث ، وكـــان أميرهم محرضا للحروب التي لعب المشوش وشعوب البحر فيها دورا هاما ثم استطاعوا — بعد حروب رعمسيس الثالث — أن يتسللوا الى البلاد،وأن يحتل بعضهم مراكز هامة فيها حتى رأينا أحد المتهمين في مؤامرة الحريم ضد رعمسيس الثالث كان من قوم ريبو ، وانه كـــان يعمل حاجبا في القصر الفرعوني ، ثم زاد عددهـــم في البلاد ، وشـــاركوا في كثير من الاحداث التي شارك المشوش فيها ، وهكذا يبدو أن الحدود الغربية ربما تركت مفتوحة نسبيا بعد حروب رعمسيس الثالث ، حتى «أصبحنا بعد ثلاثين سنة من موته نرى الليبيين يتجولون بمصر في جماعات للسلب» ويسرد دفتر يومية العمال في الجبانة الملكية بغرب طيبه عدة أيام كان

42) Gardiner, A. H. Onom. I, P. 120.
43) Ibid., P. 121.

العمل معطلا فيها «بسبب رييو» وحينما كانت تأتى هــذه القبائل الى العاصمة كانت تسبب الاضطرابات ، وتقضى على الامن فيها[٤٤] • ويبدو أن ذكر الليبيين أصبح نادرا بعد الاسرة الحــادية والعشرين ، فلم نر ذكرهم الا فى مثال على لوحة الامير الليبى الذى كان أميرا من المشوش ، وفى مثال آخر من عهد شيشنق الرابع ، وفى مثال ثالث عن أمير من نفس العهد يدعى «عنخ حر» ، وهكذا فانه من غير الواضح لنا : من أين أتى الكتاب الاغريق الاول بالاسم ، ثم أعطوه المعنى الواسع ، وربما تعلموه من الليبيين أنفسهم[٤٥] •

وقد صور الليبيون فى مقبرة سيتى الاول ، بأنهم كانوا يلبسون ثوبا ضيقا طويلا مفتوحا من الجانب ، مغطيا الكتف اليمنى تاركــا الذراع اليسرى عارية ، وهذا الثوب أبيض اللون ومزخرف بمشبك من نماذج مختلفة من الجانب المغلق ، وفى شعورهم ريشتان ، وللرجل دقن صغيرة وشارب كامل ، وأما صفاتهم المميزة لمظهرهم العام ، فبشرة بيضاء وشعر أحمر وعيون زرقاء ، هذا وقد وشم الذراع والساق ، كما أنهم لبسوا النقبة بدل كيس عضو التناسل ، كما كانوا غير مختونين •

وأما عن اسلحتهم فيرى هولشر — كما يذكر سليم حســن — أن الليبى لم يعرف سوى القوس والنشــاب ، غير أن أقواســهم ليست بالاقواس الخشبية البسيطة ، ولكنها كانت أقواسا مركبة وتظهر المناظر انها كانت من نوع يطلق عليه «القوس ذو الزاوية» ولم نجد فى صور المواقع الحربية ليبيا واحدا قد شد قوسه ليضرب به ، بل نجد قوسه ملقى على الارض أو معلقا على كتفه أو ممسكا به فى يده ومطلقا لساقيه العنان ، ولذا لم نجد السهم مركبا فى القوس ، ولا نستطيع الحكم على صورة السهم عند الليبيين ، ولكن ينبغى علينا أن نعتقد أن السهم كان مصنوعا من حجر النار وانه كان ذا أسنان ، وبخاصة أننا صادفنا بهذه

44) Wilson, J. Op. Cit., P. 81-82.
45) Gardiner, A. H. Op. Cit., P. 122.

الصورة فيما بعد[٤٦] • كما نشاهد عدة صور للكنانة وهى على هيئـــة قربة ، فالقوس هو السلاح الوحيد الوطنى الذى ظل الليبى يستعمله ، كما أنه ســـلاحه الوحيد البعيد المرمى ، ولم يعثـــر فى أيدى الليبيين المحاربين — طبقا للرسوم — على الرمح أو الحربة ، وقد ترجم برستد كلمة «خت عا» بكلمة حربة ، وهذا خطأ ، ويحتمل أن الترجمة الحقيقية عصا رماية ، وذلك لأن نقوش الدولة الحديثة لم تظهر فيها هذه الكلمة بوصفها سلاح حرب ، بينما نجد أن ليبيى «مقبرة خنوم» كانوا يحملون عصى رماية فى شعائر الالهة «موت» كان التمحو يستعملونها ســـلاح صيد ، وهناك كان يطلق عليه لفظ «قما»[٤٧] هذا وقد استعمل الليبيون فى عهد رعمسيس الثالث العربات ، فقد غنم منهم ٩٢ عربـــة ، وكانت عرباتهم تشبه العربات المصرية ، الا أن عجلاتهم لها أربع شوكات بدلا من ست فى العربة المصرية حينئذ ، ومن هنا فلابد أن نسلم بأن الليبى قد أخذ استعمال العربة عن المصرى[٤٨] •

وأما شعوب «الاسبات والقايقاش والشايتب والهاسا والبقان» ، والتى جاء ذكرها فى نص السنة الحادية عشرة والتى تخص الحرب الليبية الثانية «فيبدو أن اللغة المفياضة التى تضم الكثير من الكلمات الاجنبية غير المعروفة التى يلجأ اليها رعمسيس الثالث كثيرا[٤٩]» هى السبب فى ذكر هذه الشعوب التى لا تعنى سوى أسماء غير معروفة لنا على الاقل •

(٥) قهـــق KhK

لم يذكر قوم قهق فى نصوص رعمسيس الثالث التاريخية ، وانما ذكروا فى نصوص مرنبتاح ، ولعل الذى دفعنا الى ذكرهم هنا هو هذا السبب • بالاضافة الى ذكرهم فى بردية هاريس •

وهناك اتفاق عـــام على ان «قهق» هى المنطقة التى احضر منهـــا

46) Holscher, W. Op. Cit., P. 39.
47) Ibid., P. 39.
(٤٨) د• سليم حسن المرجع السابق ، ص ٥٣ •
49) Gardiner, A. H. EP., P. 287.

«(أحمس بن نخبت)) فى عهد أمنحتب الاول أسلابا،وتعد أرضا يحتمل أنها فى النوبة ، وعلى ذلك فـان ما جاء فى بردية انستاسى الاولى من ذكر الشردان والقهق والمشوش والنوبيين بوصفهم فرقا فى الجيش المصرى يعد أقدم اشارة لهم ، وقد ذكر القهق فى سجلات مرنبتاح مع الليبيـو بوصفهم أسرى ، كما نجد ذكرهم مع الشردان فى بردية هاريس بوصفهم محاربين فى الجيش المصرى ، وقد ذكروا فى نفس البردية على أنهم كانوا يعيشون فى أمان فى بلاد ملكهم ، هذا وليس هناك ما يبرر أنهم ليبيون سوى ذكرهم فى سجـلات مرنبتاح ، وهنـاك فى متحف تورين بعض النصوص التى يقال انها كتبت بلغة القهق فى متن سحرى[٥٠] .

50) Gardiner, A. H. Onom I, P. 123.

الباب الثالث

علاقات مصر بالشمال الافريقى (ليبيا)

الفصل الأول

علاقات مصر بالشمال الافريقى
فيما قبل عصر الدولة الحديثة

(١) تقـــديم :

لعل من الافضل هنا — بادىء ذى بدء — أن نشير الى عدة أمور ، منها (أولا) أن المدلول الجغرافى لأســماء الاقاليم والدول لم يكن فى العصور القــديمة — موضوع الدراسة — محددا بوضوح ، كمــا هو الحال فى أيامنا هذه ، وانما كانت البلاد تسمى غالبا باسم الشعب الذى يسكنها ، ومنها (ثانيا) أن مصر لم يكن يفصلها عن جيرانها فى المغرب حدود واضحة — كما هى الحال الآن — ذلك لأن الرقعة المغربية من مصر انما تكاد تكون صحراء تماما ، ولكن علينا أن نقدر مدى الجفاف الذى حل بها خلال الخمسة آلاف عام الماضية ، وعلى أية حــال ، فلقد كان هناك على طول البحر المتوسط اقليم مأهول بالسكان ، تشغل جانبا منه المراعى ، وتشغل جانبــا آخر منه أرضــين صالحة للزراعة ، كانت موطنا للبيض ذوى الشعور الحمراء ، والعيون الزرقاء ، الذين — متابعة منا للاغريق — نعرف أنهم «الليبيون» ، وهذه التسمية فى الواقع تسمية غير صحيحة ، ولا تتمشى مع تسلسل الاحداث ، ذلك لأن القبيلة المعروفة المشهورة باسم «ليبــو» سمع عنها ، لأول مرة ، فى عصر «مرنبتــاح» (حوالى عام ١٢٢٥ ق٠م) ، حين قامت على رأس حلف من الغــزاة ، الذين قدموا من اقليم أبعد غربا ، ونستطيع أن نميز فى العصور الاقدم مجموعتين ، هما «تحنو» و «تمحو» ، وتشبه الاولى منهــا المصريين — جنسا وثقافة — وان كانوا يعتبرون دائما كأنما هم أجانب[1] ، وقد قدمنا فى الباب السابق دراســة شبه متكاملة عن هذه الشعوب ٠

---

1) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 43-35.

ومنها (ثالثا) أن تسمية «ليبيا» انما جاءت من اسم القبيلة المشهورة «ليبو» (ريبو = ريب) ، وكانت تعيش فى شمال أفريقيا على مسافة كبيرة من مصر ، ثم نقل الاغريق الاوائل هذه التسمية ، وان استخدموها لتدل على شمال أفريقيا غرب النيل ، ومن هنا رأينا «هيرودوت» (٤٨٤ — ٤٣٠ ق٠م) انما يذهب الى أن ليبيا تقع غــرب النيل ، وتمتد حتى المحيط الاطلسى ، وتحدها جنوبا أثيوبيا[٣] ، كما يذهب الى أن ليبيـــا يحيط بها البحر من جميع الجهات ، الا من جهة اتصالها بآسيا[٣] ، ومن ثم فقد كانت ليبيا عند الجغرافيين القدامى قارة بذاتها ، ولم يظهر اسم «أفريقيا» الا فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وهو نسبة الى قبيلة «افرى» التى تقطن جنوب تونس[٤] .

وهكذا ، وطبقا لما جاء فى كتابات هيرودوت — فان ليبيا انما تشمل كل شمال أفريقيا الى الغرب من مصر ، ومن ثم فقد حدد مكان سكنى « المشواش » — احدى القبائل الليبية — والذين أطلق عليهم اســم «ماكسييس» (الماكسيون) بجوار تونس[٥] ، كما أنه حدد سواحل ليبيا الشمالية بأنها تطل على البحر الشمالى (البحر المتوسط) ابتداء من مصر، وحتى رأس سولون[٦] ، وأكبــر الظن — فيما يرى الدكتـــور أحمد بدوى — أن «رأس سولون» هنا انما المقصود به تلك المنطقة الصخرية من ساحل أفريقيا الغربى ، وهى التى عرفت فيما بعد باسم Spartel وان كان بعضهم يظن أن المقصـــود بها الصخور المعروفـــة باســـم (Cantin)[٧] .

ومنها (رابعا) أنه — طبقـــا لدراسة «كابار» للصفـــات السلالية

---

2) Oric Bates, The Eastern Libyans, London, 1970, P. 51.

3) Herodotus, IV, 254-255.

4) P. E. Berry, The Tehenu, Obive land, in Ancient Egypt, 1915, P. 98.

5) A. Gardner, Op. Cit., P. 283.

(٦) هيرودوت يتحدث عن مصر ٠ ترجمة محمد صقر خفاجة — تقديم وشرح أحمد بدوى — القاهرة ١٩٦٦ ص ١١١ — ١١٢ ٠

(٧) أحمد بدوى : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١١٢ ، هامش ١ ٠

(الاثنية) لليبيين القدامى — فقد كانوا يسكنون شمال أفريقيا بأسماء مختلفة ، منها البربر والقبايل Kabyles والشـــاوية والطوارق والجوانشيين ، من صفاتهم الجبهة العالية والجمجمة المرتفعـــة والأنف المعقوف والشعر المفلفـــل والبشرة البيضـــاء والعيون الزرقـــاء واللحية المدببة[٨] ، ومنها (خامسا) أن «شارل أندريه جوليان» انما يذهب الى أن أصل قبيلة «ريبو» يمكن أن يكون من جيل الاطلسى الصحراوى فى شمال أفريقيا ، حيث يسكن حاليا «الشاوية» ، وأن أسماء زعماء «ريبو» انما تشبه كثيرا أسماء النوميديين الى حد كبير[٩] .

(٢) فى عصور ما قبل التاريخ :

لا ريب فى أن هناك علاقة ما بين مصر والشمال الافريقى فى عصور ما قبل التاريخ — كما رأينا من قبل فى الباب الاول — وخاصة فى مرحلة الحضارتين — العاترية والقفصية — من العصر الحجرى القديم ، الامر كذلك بالنسبة الى مرحلة العصر الحجرى الحديث فى المغرب ، الامـــر الذى فصلناه من قبل فى الباب الاول كذلك ، ورأينا بوضوح كيف أثرت مصر فى المغرب القديم ، كمـــا تأثرت به ، وأعطته الكثير من عنـــاصر الحضارة ، كما أخذت عنه أيضا .

(٣) فى عصر ما قبل الاسرات :

كانت مصر فى العصرين — الحجرى القديم والحديث — فى مستوى حضارى يعادل ، وربما يتفوق قليلا أو كثيرا على مستواه فى كثير من بلدان العالم القديم ، غير أن مصر سرعان ما انفردت بعد ذلك بالتفوق الحضارى والخصوصية الثقافية ، ومهدت للحضارة العظيمة التى ظهرت فى عصر الاسرات ، ومن ثم فان مصر توضع فى هذه الفتـــرة فى مرحلة

---

8) M. Kapart, le Prehistorique Egyptien, Bruxelles, 1904, P. 6.

9) C. A. Julien, Histoire de L'Afrique Du Nord., Paris, 1957, P. 54.
وأما النوميديون : فهم سكان المغرب القديم أثناء حكم القرطاجيين فى شمال أفريقيـــا ، وقـــد كون هؤلاء البربر ممـــالك نوميدية ، منها مملكة نوميديا الشرقية ، وعاصمتها «سرته» (Cirta) ، وهى قسنطية الحالية فى الجزائر (أم الخير العقون : المرجع السابق ص ١٢٦) .

حضارية خاصة بها ، أطلق عليها «عصر ما قبل الاسرات» ، وتقابل بداية عصر استخدام المعادن فى مناطق الشرق الادنى القديم الاخرى ، ففى هذه الفترة التزم المصريون الوادى بصفة نهائية ، وزادت عنايتهم بحرف الاستقرار — وخاصة الزراعة — ومن ثم فقد زادت عنايتهم بملكية الارض ، مما أدى فى نهاية الامر الى قيام الوحدات الاقليمية ، التى انتهت بوحدة سياسية مستقلة فى الصعيد ، عرفت بمملكة الصعيد ، واتخذت من «نخن» (البصيلية — مركز ادفو — محافظة أسوان) عاصمة لها ، وأخرى فى الدلتا ، عرفت بمملكة الدلتا ، واتخذت من «بى» (تل الفراعين — مركز دسوق — محافظة كفر الشيخ) عاصمة لها ، كما تميز عصر ما قبل الاسرات كذلك باستخدام المعادن ، وكان النحاس هو الذى استخدم طوال هذا العصر •

وهكذا يمكن القول ، أن انسان العصر الحجرى الحديث ، ان كان قد شهد مولد حضارة جديدة ، قد أسست دعائمها على الاستقرار ، وابتكار الزراعة ، واستئناس الحيوان ، وتشييد أول مسكن ، وانشاء أول قرية ، فقد شهد انسان عصر ما قبل الاسرات مرحلة حاسمة فى تاريخ الحضارة المصرية ، تخطى خلالها أكثر العقبات التى كانت تقف فى سبيل تقدمه ، وأرسى قواعد الحضارة التاريخية التى أعقبتها ، ومهد الطريق لقيام أول وحدة سياسية عرفها تاريخ البشرية ، فقد عرفت حضارة ما قبل الاسرات استخدام النحاس والكتابة ، وتميزت بقيام المدن ، وتقوية الصلات بالاقطار المجاورة ، وظهور الوحدات الاقليمية ، وقيام الممالك المحلية ، واختفاء نظام العشائر [١٠] •

هذا وقد قام جدل طويل بين العلماء حول منشأ حضارة عصر ما قبل الاسرات (وتمثلها فى الصعيد حضارات : العمرة وجرزة والسماينة ، وفى الدلتا : حضارات حلوان الثانية والمعادى) [١١] ، فذهب فريق الى

---

(١٠) مصطفى عامر : تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى — حضارات عصر ما قبل التاريخ — القاهرة ١٩٦٢ ص ٥٨ •

(١١) أنظر عن حضارات عصر ما قبل الاسرات فى مصر (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٧٥ — ٢٩١)

أنها لم تنشأ فى الصعيد ، وانما أتى بها قوم من جنوب بلاد العرب ، عبر البحر الاحمر ، وليس عن طريق برزخ السويس(١٢) ، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن أصحاب هذه الحضارة ، انما قد أتوا من الجهات الواقعة ، فيما بين الوادى والبحر الاحمر ، حيث توجد جميع الاحجار التى استعملت فى هذه الحضارة ، وأن النماذج المصرية فى هذه الحضارة ، انما هى تقليد لنماذج معروفة عند أصحاب هذه الحضارة فى مواطنهم الاصلية(١٣) .

وهناك وجه ثالث للنظر يذهب الى أن الجنوب (النوبة) هو منبع حضارة مصر فى عصر ما قبل الاسرات(١٤) ، الامر الذى عارضه جمهرة الباحثين ، بل ان العلماء انما يجمعون — أو يكادون — على أن مصر هى التى أمدت النوبة بعناصر الحضارة — وليس العكس — كما حدث طوال العصور التالية(١٥) .

على أن هناك وجها رابعا للنظر يذهب الى أن هناك أوجه شبه بين حضارة عصر ما قبل الاسرات فى مصر ، وبين الحضارة الليبية ، وأن هناك من يرى أن الحضارة الليبية هى التى أخذت عن الحضارة المصرية ، وليس العكس(١٦) .

وأيا ما كان الامر ، فان جمهرة العلماء انما تذهب الى أن حضارة عصر ما قبل الاسرات الاول ، انما هى حضارة محلية متطورة من

---

12) A. Scharff, Some Prehistoric Vasses in The British Musum, JEA, 14, 1928, P. 267-270.
13) W.M.F. Petrie, Prehistoric Egypt, BSAE, 31, London, 1920, P. 48. وكذا A. Scharff, Op. Cit., P. 273.
14) E. J. Baumgartel, The Culture of Prehistoric Egypt, I, Oxford, P. 18, 49.
15) E. Massoulard, Prehistoire et Protohiștoire d'Egypt, Paris, 1949, P. 173.
16) Ibid., P. 172-173.

«حضارة البدارى»[١٧] وأنها قد تلتها مباشرة ، بل انها كانت — فيما يبدو — متداخلة معها زمنيا الى حد كبير ، ذلك لأن الطقوس الجنازية فيها واحدة ، كما ان كثيرا من أنواع الفخار انما يشبه بعضــه البعض الآخر ، كالفخار الاحمر المصقول ، والفخار الاسود المصقول ، والفخار ذى القمة السوداء ، هذا فضلا عن الشبه الكبير بين تماثيل النساء فى حضارة البدارى ، وحضارة عصر ما قبل الأسرات الاولى[١٨] •

على أن هذا لا يمنع من القول بأن هناك — فيما يرى بعض الباحثين — عناصر جديدة ، ربمـا وفدت مع مهاجرين جدد من الغرب ، ومن تلك العناصر نوع من الادوات الحمراء عليه نقوش برسوم بيضـاء ، على هيئة خطوط مستقيمة ، وأحيانا على هيئة صور بشرية ، وأخرى حيوانية، وقد أطلق الباحثون على هذه الزخرفة الجديدة اسم «الخطوط البيضاء المتقاطعـة» (White Crossed Lines) ، هــذا الى جانب الرســوم المحفورة فى سطح الفخار ذى الحـافة السوداء ، أو المنقوشـة على اللوحات الاردوازية ، والتى تـدل على قرابتهـا الوثيقة بالنقـوش القفصية •

هذا فضلا عن أوجه شبه بين حضارة عصر ما قبل التاريخ فى مصر ، وبين فن الصحراء الكبرى ، حيث ظهر على فخار الغمرة ذى الخطوط البيضاء ، رسوم غطاء الرأس ذى الريش المعروف على صخور الصحراء الغربية كما أن عقرد قشر بيض النعام انما هى تطـور لهذه الصناعة المعروفة عن الحضارة القفصية فى شمال أفريقيا[١٩] •

---

(١٧) أنظر عن «حضارة البدارى» (محمد بيومى مهـران : مصر — الجزء الاول ص ٢٤٧ — ٢٥٧) •

18) E. Massoulard, Op. Cit., P. 171.

(١٩) ابراهيم أحمد رزقانه : الحضارات المصرية فى فجـر التاريخ — مكتبة الاداب — القاهرة ١٩٤٧ ص ١٧٩ ، وأم الخير العقـون : المرجع السابق ص ١٣٩ •

ومن ثم فقد ذهب «وينرايت» الى أن هناك عنصرا ليبيا سكن مصر ، وكانت له مراكز قوية فى «سايس» (ساو المصرية ، و «صـا الحجر» الحالية ، على مبعدة ٧ كيـلا شمال بسيون بمحافظة الغربية) ونقادة (بمحافظة قنا) ، وأما دليله ، فهو الريشتان ، وهما علامة الزعيم الليبى ، وكانتا توجدان فى العصور التاريخية ضمن مقاطعات الصعيد فى : نخن وطيبة (الاقصر) و «قفط» (على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا) و«دندرة» (على مبعدة ٥ كيلا شمال غرب قنا ، عبر النهر) و «ديوسبوليس بارفا» (هو الحالية ، على مبعدة ٥ كيلا جنوب نجع حمادى) ، وأبيدوس (عرابة أبيدوس ، على مبعدة ١٠ كيلا غربى البلينا ، بمحافظة سوهـاج) ثم أخميم[٢٠] ــ فى مقابل سوهاج ، عبر النهر ــ •

ولعل من الاهمية بمكان أن هناك بعض اللوحات المصرية من عصر ما قبل الاسرات ــ حوالى منتصف الالف الرابعة قبل الميلاد ، ربمـا تشير بوضوح أكثـر الى علاقات مصر بجيرانهـا الغربيين ، ومن ذلك «سكين جبل العركى» (مركز فرشوط ــ بمحافظة قنا) ، وقد صـور الليبيون عليها بشعور طويلة ، عراة الا من حزام لستر العورة[٢١] •

وهناك «صلاية صيد الاسود» ، وقد عثـر عليها من ثلاث قطع ، الواحدة بمتحف اللوفر ، والاخريان بالمتحف البريطانى ، وقد نقش على أحد وجهيها مجموعتان من الرجال ، انتظمـوا فى صفين على حافتيهـا العريضتين ، وحملوا أسلحة مختلفة ومعروفة لدى المصريين من قبل ، كالاقواس والحراب ذات الرأسين والعصا المعقوفة وحبـال الصيد ، وسلاح جديد منه البلط ذات الحدين والتروس البيضاوية ، هذا وقـد صور كل رجل من رجال الصلاية بشعر مستعار ولحية مستعارة ، ونقبة نصفية خططت أو فصلت بما يشبه خطوط سعف النخل ، وتدلى خلف

---

20) G. A. Wainwright, The Red Crawn in Early Prehistoric Times, JEA, 9, 27-30.

(٢١) جيهان ديزانج : البربر الاصليون ــ تاريخ أفريقيا العام ــ تورينو ١٩٨٥ ص ٤٣٨ •

ظهره ذيل ذئب أو ابن آوى ، كما وضع كل رجل ريشه أو ريشتين فوق رأسه ، باعتباره من رجال الحرب ، وقد ظلت هذه الريشة بدورها ، مما يميز صور الجنود فى العلامات الهيروغليفية خلال العصور التاريخية[٢٢] .

هذا وقد لحظ بعض الباحثين (ماسبيرو — جاردنر) تصوير الامراء الليبيين فى المناظر المصرية التاريخية ببعض هذه المناظر ، لا سيما الذقن المستعار والريشة ، هذا فضلا عن ذيول متصلة بنقبهم القصيرة ، وكانت الذيول ميزة خاصة بالفراعين أنفسهم ، ولم تعرف لدى غيرهم ، الا فى صور الليبيين المقهورين المرسومة على جدران يؤدى الى معبد هــرم «ساحورع» من ملوك الاسرة الخامسة ، ولنفس هؤلاء الرؤساء الليبيين الذين يضعون قضبانهم داخل غمد ، كذلك خصلة شـــعر غريبة صغيرة فوق مقدم رؤوسهم تذكرنا بالصل (الكوبرا) على جبهة فرعون ، ومن ثم فقد تساءل «جاردنر» عما اذا كان ذلك يدل على أن ملوك الدلتـــا فيما قبل الاسرات كانوا ذوى صلة بليبيا ، أم أن الامراء الليبيين هم الذين قلدوا الحكام المصريين فى مظاهر الرياسة التى تخيروها لأنفسهم[٢٣] .

وهناك «صلاية الاسد والعقبان» ، وقد نقشت من وجهها وظهرها ، وفقدت جانبا من جزئها الاعلى ، وبقى جزؤها الاســـفل من قطعتين — الواحدة بالمتحف البريطانى ، والاخــرى بمتحف أشموليـــان فى أكسفورد — واختلفت مناظر كل من الوجه والظهــر فى مواضيعهما ، فصور أحدهما ختام معركة عنيفة ، وصور الاخر وحدة زخرفية خالصة ، وتوسط وجه الصلاية أسد ضخم غضوب يمزق صدر عدو عار ، يتلوى جسده على الارض ، فى قسوة بالغة ، وتوزعت حول الاسد وفريسته

---

(٢٢) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارهـــا ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٢ ، وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 394-395.

L. Borchardt, Das Grabdenkmal des Konigs Sahure, II, Leipzig, 1931 Pls. I, 5,

وكذا

P. M, V, 104.

بقية مفردات المعركة ، فظهرت أمامه شخصية ذات مقام ، لم يبق منها غير نصفها الاسفل وردائها المرقش الطويل ، وقد تمثل معبودة مصرية — فيما يظن كورت زيته — أو أميرا ليبيا — فيما يظن جاك فاندييه — أو المعبودة «اينحرة» (أنوريس) — فيما يظن شوت — وعلى أية حال ، فان الفنان هنا لم يلتزم بالواقعية الخالصة فى التعبير عن جنس ما يمثله، فقد صور الاعداء عراة بشعور مفلفلة تقربهم من النوبيين ، ولكنه تـرك ملامحهم وذقونهم قريبة من ملامح الليبيين ، وأبعد ما تكون عن النوبيين، ولهذا تعددت الاراء فى تعيين جنسهم ، وتعيين مكان المنتصرين عليهم من المصريين (٣٤) .

وهناك «صلاية الحصون والغنائم» ، وقد عثر عليها فى أبيدوس ، وتوجد الان بالمتحف المصرى بالقـاهرة ، وقد صور الفنان على أحـد وجهى الصلاية غنائم الحرب التى شنها ملكه ، فصورها صفوفـا من الثيران والحمير والكباش ، وتحتها أشجار زيتية صمغية ، وكتب بجانبها علامة تصوير تعتبر من أقدم العلامات الكتابية ، وتدل على كلمة «تحنو» — بمعنى أرض ليبيا — أو على الاصح الارضين الشمالية الشرقية من الصحراء الليبية المجاورة لحدود الدلتا (٣٥) .

هذا ونظرا لان صـورة الملك فى هذه اللوحة تشبه صـورة الملك «العقرب» (واسـمه الشخصى آب ، والحورى كا) التى عثر عليهـا «والتر ايمرى» فى مقبرة الملك «عحا» فى سقارة ، وتلك التى عثر عليها

---

(٣٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٣ — ١٩٤ وكذا
J. Vandier, Op. Cit., P. 586.
S. Schott, Hieroglyphen, Untersuchungen Zum Ursprung der Schott, 1951, P. 181.

(٣٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٢١ ، وكذا
L. Keimer, BIFAO, 31, 1931, P. 121 F.
A. H. Gardiner, Onom., I, 1947, P. 119.
K. Sethe, ZAS, LII, P. 56.

فى مقبرة «نعرمر» فى أبيدوس[٢٦] ، فان البعض انمـا ينسب صلاية الحصون والغنائم هذه للملك العقرب ، وبالتالى فقد نسبوا اليه القيام بحروب داخلية دمر فيها بعضا من الحصون ، فضلا عن القيام بحروب خارجية فى «أرض التحنو» ، غنم منها الكثير من قطعان الماشية والزيت ، وان ذهب البعض الى أن اللوحة لا تمثل انتصارا خارجيا ، وانما احياء لذكرى انتصار الملك العقرب على «بوتو» (الدلتا)[٢٧] .

وليس هناك من ريب فى أن لوحة الملك العقرب هـذه — أو لوحة تيحنو — انما تمثل أقدم اشارة واضحة الى الليبيين فى الاثار المصرية ، حيث ظهر فى أحد وجهى اللوحة من أسفل اشجار يفترض «نيوبرى»[٢٨] أنها أشجار الزيتون ، وان عارضه فى ذلك «كيمر»[٢٩] هـذا وقد ميز «زيته» الى جانب الاشجار ، العلامة الهيروغليفية الدالة على بلاد التحنو ، وهى أرض الليبيين المعروفين باسم «جحنيو» (تحنيو) ، وليس الامر فى حاجة الى كثير من البراعة للقول بأن الماشية عبارة عن غنيمـة ، وأن الاشجار يستخرج منها زيت «جحنيو» الذى له قيمة كبيرة[٣٠] .

وهناك لوحة أخرى يظهر فيها الملك فى شكل «ثور قوى» يطعن حتى الموت رجلا مستلقيا من ذلك الطراز الذى يطلق عليه «ليبى» ، وأما هدف اللوحة فكان تسجيل المذبحة ، أو القبض على مصريين من الدلتـا ، أو اعداء ليبيين ، على يـد زعيم من الصعيد على رأس حلف من بضـعة أقاليم[٣١] ، وهناك من يرى أن لوحة «نعرمر» انما تشير الى انتصاره

---

26) W. B. Emery, Hor-Aha, Cairo, 1939, P. 92-93.
W. B. Emery, The Royal Tombs of The Earliest Dynansties, II, London 1901, Pl. III, 9, P. 20-21.
27) S. Schott, Op. Cit., P. 21.
28) P. E. Newberry, The Tehenu-Olive Land, in Ancient Egypt, 1915, P. 97-98.
29) L. Keimer, Op. Cit., P. 121 F.
30)A, H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 394.
A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, P. 116-117.
31) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 396.

على الليبيين ، كما تشير الى انتصاره على الدلتا ، وهكذا تسجل الاثار المصرية انتصار المصريين على التحنو (الليبيين)[٣٢] .

(٤) فى عصر التأسيس (الاسرتين الاولى والثانية) :

من المعروف تاريخيا أن مصر قد تعرضت على أيام الاسرة الثانية الى اضطرابات وقلاقل — داخلية وخارجية — أدت الى انفصال الدلتا عن الصعيد[٣٣] ، ويرجع المؤرخون أسباب ذلك الانفصال الى أن الملك «سخم ايب» قد تخلى عن ولائه للمعبود «حور» وعبد «ست» ، وغير اسمه الى «بر — ايب — سن» ، وكتب هذا الاسم فى اطـار (سرخ) يعلوه حيوان المعبود «ست» بدلا من «الصقر» الذى كـان يعلو اسمه الاصلى «سخم ايب» ، وهو حدث يكاد يكون منفردا فى تاريخ مصر ، ثم يعتبر «ست» حاميه ، وأنه هو الذى سلم اليه عرش مصر ، وربما كان ذلك نتيجة لخصومة عنيفة بينه وبين مناطق الدلتـا التى تعصبت لمعبودها «حور» ، الامر الذى رأى فيه المؤرخون ثورة دينية أو نوعا من الصراع السياسى والدينى بين الصعيد والدلتا ، وربما ثورة ضد عقيدة الملكية الالهية[٣٤] .

على أن المشكلة الاخطر ربما كانت تتمثل فى أنه أطلق على حيوان المعبود «ست» فى بعض الاختام الخاصـة بالملك «بر — ايب — سن» اسم «اش» (Ash) أو «شا» (Sha) ، ومن المعروف أن هذا انما يخص المقابل الليبى للامبوتى (Ombuite) [٣٥] .

---

(٣٢) انظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول ص ٣٢٧ — ٣٣٢ ، الجزء الثانى ص ٩٤ — ٩٥ .

(٣٣) انظر (محمد بيومى مهران : مصر — الجـزء الثانى ص ٤٧ — ٥٧) .

34) P. E. Newberry, The Set Rebellion of The II nd Dynasty, Ancient Egypt, 1922, P. 10 F.

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 65.
W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, P. 96.

35) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 417.

وهنا بدأ بعض المؤرخين يقدمون تفسيرا آخر للاحداث ، فيذهبون الى أنه قد حدث فى عهد الملك «نتر» (نثرن أو نثريمو ، بمعنى المنتمى الى الاله ، وربما كان المقصود أوزير)[٣٦] — وهو الملك السابق للملك (بر — ايب — سن) — أن هاجم الليبيون أرض الدلتا ، واحتلوها عنوة ، وانفصلوا بها عن الصعيد ، فلما جاء بعده «بر — ايب — سن» لم يحكم غير الصعيد وحده ، ولكنه اعتزم الكفاح ، وتسمى باسم «سخم ايب» أى «الجسور» ولقب «برن ماعت» ، بمعنى «الذى خرج للحق» أو بمعنى «انبعث للنظام» ، واستمسك فى أغلب أحواله برب الصعيد «ست» ، باعتباره من أرباب الحرب والقتال ، واحتفظ لنفسه بلقب «نيسو بيتى» ، أى أنه ظل يحتفظ بانتسابه الى شعار الدلتا وربتها ، بجانب ربة الصعيد وشعاره ، وان لم ينته فى كفاحه الى شىء[٣٧] .

ثم جاء الملك «خع سخم» ، واتخذ ثوب «حور» واستنصره ، ولم يجد بأسا من أن يعترف بالامر الواقع فى أول عهده ، فظهر فى تماثيله بتاج الصعيد وحده ، وصور المعبود «حور» بتاج الصعيد تارة ، وبلقب «حور السماء» تارة أخرى ، ثم هاجم أراضى الدلتا ، وقاتل الليبيين المسيطرين عليها قتالا عنيفا ، حتى انتصر عليهم فى نهاية عهده ، وعندما أراد رجاله أن يعبروا عن انتصاره عليهم ، أشاروا الى أرض الدلتا باعتبارها الارض التى كان الليبيون يحتلونها ، وليس باعتبارها وطنهم الاصيل ، أو أرض الخصوم الفعليين[٣٨] .

وهناك لوحة مكسورة للملك «خع سخم» عثر عليها فى «نخن»

---

(٣٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥٧ ، وكذا
ASAE, XXVIII, 1928, P. 153 F, LIV, 1944, P. 287.

(٣٧) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم — الجزء الاول — مصر والعراق ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٨٠ .

(٣٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨١ ، وكذا
W. M. F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pls. XXI, 164-172, XXII, 173-1900.
J. E. Quibell, Hierakonopolis, I, London, 1901, Pl. LVIII, P. 48.

(البصيلية) تشير بوضوح الى أن ذلك الصراع انما كان مع عدو ليبى ، ذلك لأن اللوحة انمـــا تكشف عن ماهية هؤلاء الاعداء ، اذ أن هنـــاك رأسا ملتحيا (فوقه ريشه) تتصل بما يشبه الدعـــامة البيضاوية التى شهدناها فى لوحـــة «نعرمر» ، وهى تشـــير فى وضوح الى الاعـــداء الليبيين[٣٩] •

وهناك تمثالان جالسان للملك نفسه ، وأيضا من «نخن» — الواحد من الحجر الجيرى فى متحف اكسفورد ، والاخر من الاردواز فى متحف القاهرة — وتزين قواعد التمثالين زخـــارف من صور محفورة لأعـــداء مذبوحين فى كل مظهر يمكن تصوره ، مما يمثل الالم والعذاب ، وقد قدم احصاء بعددهم البالغ ٤٧٢٠٩ من أحد التمثالين ، بينما يقدم التمثال الاخر احصاء بعددهم البالغ ٤٨٢٠٥ أسيرا[٤٠] •

هذا وتشير «لوحة نعرمر»[٤١] (مينا) — والتى كشف عنها «ادوارد كويبل» فى معبد حور فى عاصمته نخـــن (البصيلية) ، والموجودة الان بالمتحف المصرى بالقاهرة رقم ٣٠٥٥ — الى الخصـــوم المصورين على هيئة البدو الاســـيويين والليبيين ، أن العلامات المصـــورة مع القتيلين والحصن المفتوح علامات يمكن تقريبها الى اسم حصن أسيوى (حصن ستة) ، وأن الرقم المكتوب بجوار الاسير يرده الى الاقليم الشـــمالى

---

39) J. E. Quibell and F. W. Green, Hierakonopolis, II, London, 1902, Pl. 58.

40) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 418.
وكذا J. E. Quibell and F. W. Green, Op. Cit., Pls. 39-40.

(٤١) انظر عن لوحة نعرمر :
A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 404.
J. E. Quibell, Hierakonopolis, I, London, 1900, Pl. XXIX, P. 10, II, London, 1902. P. 41-43.
وكذا F. Legge, PSPA, 28, 1906, P. 126-129.
I. E. S. Edwards, The Early Dynastic Period in Egypt, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, P. 7-11.

الغربى على حافة الصحراء الليبية[٤٢] ، وأن الملك «نعرمر» (مينا = أول ملك فى تاريخ مصر الموحدة) قد شن غـارة على الليبيين فى غـرب الدلتا ، وأسر منهم حوالى ٢٠ ألف نسمة[٤٣] .

(٥) فى عهد الدولة القديمة :

هناك فى «حجر بالرمو» ما يشير الى أن الملك «سنفرو» — مؤسس الاسرة الرابعة — انما قد قام بحملة ضد «تيحنو — الليبيين» ، وأنه قد حصل على غنائم كثيرة ، فلقد أسر من التحنو ١٩٠٠ أسيرا ، واستولى على ١٣١٠٠ رأسا من الاشية والاغنام[٤٤] ، وليس هناك مجال للدخول فى مناقشة جدلية حول القيمة التاريخية لهذه الارقام ، طالما أنها المصدر الوحيد لدينا ، وهى — على أية حال — انما تشير الى وجود اضطرابات على الحدود الغربية فى ذلك العهد ، مما أدى الى قيام مثل هذه العمليات العسكرية الكبيرة هناك[٤٥] .

وفى الاسرة الخامسة يبدو أن الاضطرابات قد تجددت على الحدود الغربية ، ويقدم لنا معبد الملك ساحورع الجنازى فى أبو صـير — على مبعدة ٥ كيلا جنوبى أهرام الجيزة — مناظر توضح نشاطه العسكرى ضد فريق من عصاة القبائل الليبية فى الصحراء الغربية ، مسجلة أعداد الاغنام والماعز والماشية التى تم الاستيلاء عليها ، وهى من الكثرة بحيث تدل على أن واحاتهم ومناطقهم الساحلية كانت وفيرة العشب والمرعى ، كما تقدم المناظر اخضاع أمراء أجانب وعلائلاتهم ، حيث تقدم لنا زوجة الامير الليبى الاسير وولديه ، وقد كتبت أسماؤهم فوق مناظرهم[٤٦] .

---

(٤٢) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ص ٣٢٧ ،
A. Moret, Le Nil et la Civilisation egyptienne, Paris, 1926, P. 172 F.
R. Weill, Recherches sur la Ier Dynastie et les Temps Prepharaoniques, II, le Caire, 1961, P. 189 F, 194.

43) G. Galassi, Op. Cit., P. 24.

44) E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, P. 170.

(٤٥) فوزى فهيم جاد الله : ليبيا فى التاريخ ص ٦٢ .

46) A. Weigall, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, P. 43.

ومن عجب أن نلتقى بالمنظر نفسه فى معبد الملك «ببى الثانى» — من الاسرة السادسة — حيث يحمل الامراء الليبيون الاسماء نفسها[٤٧] ، الامر الذى دفع بعض الباحثين ، من أمثال أركل ودريوتون وفانديبه ، الى القول بأن الكثير من مناظر الحروب والانتصارات انما هى مناظر تقليدية ، وعلينا ألا نأخذها كوثائق تاريخية ، دون أن نضعها تحت منظار البحث العلمى[٤٨] .

ومع ذلك ، فالذى لا ريب فيه ، ان مناظر معبد الملك «ساحورع» انما هى مناظر أصيلة[٤٩] ، فضلا عن أن فائدة هذه المناظر والنقوش انما هى جد كبيرة ، حتى وان كانت مناظر تقليدية ، ذلك لانها انما تقدم لنا الكثير من مميزات الازياء والملابس والاسلحة وغيرها من المميزات والخصائص ، مما أفاد المعرفة التاريخية كثيرا[٥٠] .

وفى الاسرة السادسة ، يحدثنا «ونى» أنه ضم الى جيشه الذى قاده الى غربى آسيا ، ليقضى على الاضطرابات هناك ، جنودا من «أرض التمحو»[٥١] ، كما أن رئيس القوافل «حرخوف» يحدثنا فى مقبرته بأسوان (جزيرة اليفانتين) أنه تقدم الى «أرض التمحو»[٥٢] أثناء رحلته الى بلاد «يام»[٥٣] .

(٦) فى عهد الثورة الاجتماعية الاولى :

يذهب بعض الباحثين الى أن هناك غزوا أتى من الغرب — عن طريق

---

47) G. Jequier, Le Mounment Funeraire de Pepi, II, Vol. II, Cario, 1963, P. 8-11.

48) A. J. Arkell, A History of The Sudan ..., London, 1961, P. 100.

49) H. Kees, Ancient Egypt, London, 1961, P. 170 F.

(٥٠) فوزى فهيم : المرجع السابق ص ٦٣ .

51) J. A. Wilson, Asiatic Campaigns under Pepi, I, in ANET, 1966, P. 228.

52) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 100.

(٥٣) انظر عن بلاد «يام» (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٢٤٥ — ٢٤٧) .

اقليم الفيوم — ابان عهد الثورة الاجتماعية الاولى[٥٤] (الاسرات من السابعة الى العاشرة) ، ورغم أن كثيرا من المؤرخين انمـا يترددون فى قبول هذا الاتجـاه فى تفسير الاحـداث وقت ذاك ، فالرأى عندى أن الشعوب الليبية الظاعنة عند الحدود المصرية الغربية ، فضلا عن المقيمة حولها ، انما قد اهتبلت فرصة الفوضى التى كتب على البلاد أن تعيشها ، خاصة فى أوائل عهد الثورة الاجتماعية الاولى ، حتى وصل الامر آنذاك أن تركت الحدود مفتوحة ، دونما أية حماية من جنود مصر ، ومن ثم فقد تدفق بعض الليبيين الى غرب الدلتا بصفة شـبه مستمرة ، حتى استطاع ملوك اهناسية (فى الاسرتين التاسعة والعاشرة) ايقـاف هذا السيل المنهمر كالجراد ، وان كان النجاح التـام فى طردهم من البلاد تماما ، انما كان من نصيب «منتوحتب الاول» من الاسرة الحادية عشرة .

ومع ذلك ، ورغم أن الليبيين لم يتركوا لنا شيئا من آثارهم فى غرب الدلتا ، فاننا ما زلنا نرى فى مصر الوسطى ، آثار عائلة ليبية أتت من الصحراء الغربية ، عن طريق واحـة الفرافرة ، واستقرت فى منطقـة (منفلوط — ديروط — بمحافظة أسيوط) ، ولا تزال آثارهـا فى مقبرة «سبنى» حاكم «القوصية»[٥٥] فى عهد الملك «أمنمحات الاول» (١٩٩١

54) W. M. F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, P. 126-129.
J. Baikie, A History of Egypt, I, London, 1929, P. 221-222.

(٥٥) القوصية : وتقع على ترعة الابراهيمية على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسيوط ، وكانت تسمى فى المصرية «قيس» ربما بمعنى الزابطة ، وفى القبطية «قوص قام» ، وفى اليونانية «كوساى» ، ومنها جاء اسمها الحالى القوصية ، وكانت عاصمة الاقليم الرابع عشر من أقاليم الصعيد ، ومعبودتها الرئيسية حتحور ، وأضافت اليها قائمة سنوسرت الها آخر عرف بلقب «نب شبس» (الاله الفاخر) ، وربما كان أوزير (انظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ١٦٤ — ١٦٥ ، وكذا
M. C. Gaillard, ASAE, 27, 1927, P.
P. Lacau et H. Chevriar, une Chapelle de Sesostris, Ier, a Karnak, Caire, 1956, P. 224.

— ١٩٦٢ ق٠م) مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، فى جبانة «مير»[٥٦] ، وهى منطقة فقيرة تقع عند بداية طريق القوافل التى تصل وادى النيل بواحة الفرافرة ، ولكنها رباط هام بين الاقاليم الليبية ووادى النيل ، وهذه حقيقة يمكن تأكيدها من نصوص الحروب الليبية فى عهد «مرنبتاح» (١٢٢٤ — ١٢١٤ ق٠م) ورعمسيس الثالث (١١٨٢ — ١١٥١ ق٠م) ، والتى تشير الى أن القبائل الليبية انما بدأت غزوهـا لمصر وقت ذاك بالاستيلاء على واحة البحرية والفرافرة[٥٧] .

(٧) فى عهد الدولة الوسطى :

اهتم ملوك الدولة الوسطى بجيرانهم الغربيين ، ومن ثم فقد أقام «أمنمحات الاول» سلسلة من الحصون على حدود الدلتا الغربية ، كما فى واحة النطرون والخارجة ، وما زالت بقايا الاولى قـائمة حتى الان فى وادى النطرون ، وبداخلهـا معبد له بوابـة من الجرانيت عليهـا أسـمه[٥٨] .

وهناك فى «قصة سنوهى»[٥٩] ما يشير الى أن «أمنمحات الاول» قد أرسل حملة فى خواتيم أيامه الى الغـرب — تحت قيادة ولى عهـده سنوسرت الاول — لتأديب الليبيين الثائرين فى الصحراء الغربية ، حيث

---

(٥٦) مير : وتقع على حافة الصحـراء بين القـوصية وديروط ، بمحافظة أسيوط ، وهى فى المصرية القديمة «مرية» أو «ميرية» ، وكانت بمثابة جبانة للقوصية ، وقد نشر مقابرها «بلاكمان» فى سبعة أجـزاء (A. M. Blackman, The Rocks Tombs of Meir, 7 Vols, London, 1914-1953).

57) A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 11.

58) A. Fakhry, Wadi El Natrun, ASAE, XL, 1940, P. 837-848.

(٥٩) انظر عن قصة سنوهى :

A. Erman, LAE, 1927, P. 14-29.

وكذا J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 18-22.

وكذا G. Posener, Op. Cit., P. 87-115.

وكذا A. M. Blackman, JEA, 22, 1936, P. 35-44.

وكذا M. Litchtheim, Op. Cit., P. 222-235.

وكذا W. K. Simpson, Op. Cit., P. 57-74.

نقرأ «أرسل جلالته جيشا الى التحنو (الليبيين) بقيـــادة ولده البكر ، الاله الطيب ، سنوسرت ، ليضرب البلاد الاجنبية ، وليأسر سكان أرض تحنو ، وكان فى طريق العودة ، ومعه اسرى أحياء من التحنـــو ، وكل أنواع الماشية التى لا تحصى»(٦٠) .

وتابع «سنوسرت الاول» (١٩٧١ — ١٩٢٨ ق٠م) سياسة أبيه فى مراقبة الليبيين ، وهى نفس السياسة التى تابعه فيهـــا خلفاؤه ، حتى لنرى لقبا جديدا يظهر فى هذه الفترة ، هو «مراقب الصحراء الغربية» الذى حمله كبار الموظفين ، وهناك ما يشير الى قيام تجريدة على أيام سنوسرت الاول الى الواحات الغربية ، وقد قـــامت هذه التجريدة من طيبة (الاقصر) ، ويحدثنا أحد قوادها بقوله «لقد وصلت الى الواحات الغربيـــة ، وكشفت عن الطرق المؤديـــة الى المتمردين ، وأسرت الذين وجدتهم هناك ، وبقى جيشى سالما ، وبدون خسائر»(٦١) .

هذا وقد أخلد الليبيون الى الهدوء والسكينة بعد الحملة التى قادها الفرعون على أيام أبيه ضدهم ، ومن ثم فلم نجد اشارة الى التمحو فى النصوص التى ترجع الى عهد «سنوسرت الاول» ، وان كان الملك قد داوم على الاتصال بالواحات ، ومن ثم فقد ذهبت رسله الى الخارجة ، عن طريق أبيدوس(٦٢) .

وهناك من عهد الدولة الوسطى لوحة محفوظة بالمتحف البريطانى فى

---

60) J. A. Wilson, The Libyans and The End of The Egyptian Empire, in AJSL, LI, 1935, P. 74.

(٦١) محمد بيومى مهران : مصر والعـــالم الخـــارجى فى عصر رعمسيس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١١٧ .

62) G. Posner, Litterature et Politique dans L'Egypte de la XII e Dynastie, Paris, 1956, P. 53, 104.

J. Vorcoutter, The Near East, The Early Civilization, London, 1967, P. 368.

ZAS, 42, 1905, P. 124-128.

لندن ، تعرف باسم «لوحة دد — اقو» ، يتحدث فيها صاحبها عن رحلته الى واحة الخارجة ، فيقول «لقد خرجت من طيبة ، بوصفى نبيلا ، قد مدح كرئيس للجنود الشبان ، وذلك لكى أقيم حكما فى أرض الواحات ، لأننى موظف ممتاز» ، ويقول فى نفس النص : انه يبقى عينيه مفتوحتين ليحفظ حدود الملك ، وهذه اللوحة ، فيما يرى شيفر ، أقدم أثر مصرى يتحدث عن واحة الخارجة ، والطريق بينها وبين أبيدوس •

على أن الدكتور أحمد فخرى يذهب الى أننا لسنا فى حاجة الى أن نفترض أن «دد — اقو» يجب أن يكون قد بـدأ رحلته من أبيدوس ، صحيح أن الواحات كانت فى عهـد الأسرة الثامنة عشرة تتبـع اقليم «ثنى» ، وصحيح كذلك أنها كانت طريق القوافل بين جرجا والخارجة ، ولكنه صحيح كذلك أن طيبة كانت ما تزال — وحتى الوقت الحاضر — تستعمل كذلك ، بل وان هناك طريقا آخر يربط مدينة اسنا بباريس فى الخارجة ، وهو الطريق الذى استعمله «دد — اقو» فى مهمته هذه ، لانه أسهل الطرق دونما ريب[٦٣] •

وهناك لوحة أخـرى ، محفوظة بمتحف برلـين ، وقد عثـر عليها «بورخاردت» عام ١٩٢٨م فى «قمـولا» ، على مبعدة ١٧ كيلا شـمال الاقصر ، وتؤرخ ببداية الدولة الوسطى ، وربمـا فى عهد «سنوسرت الاول» أو من عهد أبيه «أمنمحات الاول» ، وتخص موظفا يدعى Kay كان يعمل «مدير صيادى الصحراء ، ومدير الصحراء الغربية ، ورئيس الحملة» ، يقول : لقد وصلت الصحراء الغربية ، وفتشت على كل طرقها وأحضرت الهاربين الذين وجدتهم هناك ، وقد عادت الرحلة بأمان وبدون خسارة ، وأما هؤلاء الذين أوكل الى أمرهم ، فقد عادوا بسلام ، وهكذا يبدو أن حملة Kay انما كانت ذات طابع حربى ، وأنها قد حدثت بعد الاضطرابـات السياسية ، وان لا نستطيع أن نحـدد ، ان كان Kay

63) A. Fakhry, Bahria Oasis, P. 12.

هذا ، يعنى واحة أخرى (غير الخارجة) ، وأنه ذهب من الخارجة لهذه الاخرى ، مفتشا كل طرقها[٦٤] .

(٨) فى عهد الانتقال الثانى :

هناك ما يشير الى أن «أبو فيس» ملك الهكسوس ، قد حاول ، أثناء حرب التحرير[٦٥] ، أن يوقع البطل المصرى «كامس» (كاموزا) بين فكى الكماشة ، ومن ثم فقد حرض أمير كوش على الزحف شمالا ، لحصر القوات المصرية بين القوتين — الهكسوسية والكوشية — وامعانــا فى السرية ، فلقد أرسل أبو فيس رسله عن طريق الواحات ، ليكونوا بمأمن من عيون كاموزا ، ولكن هؤلاء علموا بأمرهم ، فأرسل كاموزا سرية من جيشه استولت على الرسالة ، ثم أطلقتهم لينقلوا الى ملكهم خيبة أمله ، وفشل مسعاهم ، وفى نفس الوقت عمل كامــوزا على احتلال الواحات البحرية ، همزة الوصل الوحيدة بين الهكسوس وأمير كوش ، ومن ثم فقد أرسل من «ساكو» (ليتوبوليس الاغريقية) — وتقع فى مكان القيس الحالية ، على مبعدة ٤ كيلا جنوبى بنى مزار بمحافظة المنيا — أرســل كتيبة من جيشه احتلت الواحات البحرية ، وذلك لمنع أى اتصــال بين الهكسوس وأمــير كوش ، وليغلق هــذا الطريق الصحراوى بين مصر والســودان[٦٦] .

---

64) A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 13.

(٦٥) انظر عن حرب التحرير ضد الهكسوس (محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠١ — ٢٢٣ .

66) T. J. H. James, Egypt, from The Expulsion of The Hyksos to Amenophis, I, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1973, P. 291-292.
H. G. Fisher, A God and General of The Oasis on a Stela of The Late Middle Kingdom, in JNES, 16, 1957, P. 226-227.
L. Habachi, ASAE, 53, 1955, P. 202.

الفصل الثانى

علاقة مصر بالشمال الافريقى فى الدولة الحديثة

أولا – فى عهد الاسرة الثامنة عشرة

هناك ما يشير الى أن الملك «أمنحتب الاول» (١٥٥٠ – ١٥٢٨ ق٠م) قد قام بحملة ضد سكان الصحراء الليبية ، فلقد حدثنا القائد المعروف «أحمس بن نخب» (أحمس الكابى) أنه رافق الملك «أمنحتب الاول» فى حملة على مكانين ، الواحد يقال له «قهق» ، والاخر يقال له «يامو» ، وذلك حيث يقول : «لقد رافقت ثانية ملك مصر العليا والسفلى ، جسر كارع ، (أمنحتب الاول) ، وقد أحضرت له من شمالى «يامو» التابعة لحقول «قهق» ثلاثة أيدى» ٠

هذا ويذهب «كورت زيته» الى أن مكان «قهق» هذه غير معروف ، وان كان يرجح أنه يقع الى الشمال الغربى من حدود مصر ، وأن حقول «يامو» هذه ، يحتمل أن تكون احدى الواحات الواقعة فى الصحراء الليبية ، وأما «جاستون ماسبيرو» فالرأى عنده أن الفرعون انما قام بحملة الى ليبيا – بعد حملته على النوبة – وأن قبيلة «قهق» هذه انما تقع فيما بين بحيرة مريوط وواحة أمون المعروفة ٠

وأيا ما كان الامر ، فمكان «قهق» لا يعدو الصحراء التى تقع الى الغرب من مصر ، ولا يبعد كثيرا عن غرب الدلتا ، وفى تاريخ مصر من الشواهد ما يشير الى كثرة الغارات التى يقوم بها سكان تلك البقاع الغربية على دلتا النيل ، ومن المحتمل أن يكونوا قد هاجموها فى زمان «أمنحتب الاول» – ثانى ملوك الاسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ – ١٣٠٨

ق٠م) — الذى حمل عليهم ، وظفر بهم ، ثم سجل انتصاره على لوح من خشب ، يصوره ملوحا بسيفه ، وقد جثم العدو عند قدميه[1] ٠

هذا وقد اهتم ملوك الاسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ — ١٣٠٨ ق٠م) بالواحات ، فقسموها الى مجموعتين ، لكل منها حاكم تحت ادارة أمير أبيدوس ، وان أصبح حكامها — فيما يرى أستاذنا الدكتور أحمد فخرى — مستقلين منذ الاسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ — ١١٨٤ ق٠م)[2]

ثانيا — فى عهد الاسرة التاسعة عشرة

(١) فى عهد سيتى الاول (١٣٠٩ — ١٢٩١ ق٠م) :

بدأت مصر فى أوائل عهد الاسرة التاسعة عشرة تتعرض لأخطار جسيمة من ناحية حدودها الغربية ، فلقد تعرضت المنطقة الواقعة فى حوض البحر المتوسط ، والبلاد الواقعة الى الشرق منه ، فى القرنين — الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد — الى تعديلات هائلة ، وذلك نتيجة هجرات شعوبية جديدة ، أشاعت التوتر فى الشرق ، وقد كانت هذه المهجرات الجديدة «هندو — أوربية» الاصل ، خرجت طوائفها الاولى من نواحى القوقاز ، ثم انتشرت فى حوض البحر المتوسط واختلطت بسكان سواحله ، ونزل بعضها على شواطىء الشمال الافريقى ٠

ويزداد الخطر على الحدود المصرية الغربية ، ونجد أنفسنا الان أمام تحركات ليبية تتجه شرقا ، لا نعرف لها سببا مؤكدا ، فربما كان هناك جفاف يتزايد فى أوطانهم ، وربما كان هناك غمر سكانى للمنطقة الضيقة على الشريط الساحلى ، وربما كان بسبب عناصر جديدة فى الشمال

---

(١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس — الجزء الثانى — القاهرة ١٩٥٠ ص ٣٨٦ ، وكذا

T. G. H. James, Egypt, Fromo The Expulsion of The Hyksos to Amenophis, I, in CAH, Part, 2, Cambridge, 1973, P. 310.

K. Sethe, Urkunder der 18 Dynastic, IV, P. 36.

J. H. Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, P. 254.

2) A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 14.

الافريقى أثناء تحركات شعوب البحر[٣] ، وأيا مـا كان السبب فهناك تحركات ليبية نحو مصر ، وتقوم مصر بالتصدى لها — بقيـادة سيتى الاول — وتهزمهم فى معركتين حاميتين ، ومن هنا يعتبر المؤرخون الملك سيتى الاول ، أول فرعون دافع عن بلاده ضـد هجوم ليبى كان بداية الخطر الذى ستتعرض له من هذه الناحية فى عهد مرنبتاح ورعمسيس الثالث ، ويبدو من الرسوم التى تركها المصريون لهم أنهم يختلفون عن الليبيين الذين حاربهم المصريون من قبل ، ومع ذلك فقد استمروا يطلقون عليهم اسم «تحنو» ويبدو أن المهاجرين الجدد كانوا طلائع المشـوش والليبو الذين سيظهرون فى الحملات القادمة •

ويختلف المؤرخون فى تحديد هذه الحرب بالنسبة الى حروب سيتى الاول الاخرى ، فيرى «برستد» أنها تقع فى السنة الثانية من حكمه[٤] ، بينما يرى «فولكنر» أن نقوش الكرنك وضعتها بين نقـوش الاستيلاء على قادش وبين نقوش الانتصار على حاتى ، ومن هنا فانه يعتبرهـا الحملة الرابعة من حملات سيتى الاول الخمسة[٥] • ومع ذلك فكثير من المؤرخين يرجحون أنها فى السنة الثانية ، رأى ذلك الدكتور عصفور[٦] والدكتور فخرى[٧] والدكتور دريوتون[٨] وفانديه •

وتهدأ الاحوال على الحدود الغربية أيـام رعمسيس الثانى ، وان كنا نقرأ على لوحة بأسوان من سنته الثانية أنه أفنى التحنو ، ويفسر الدكتور فخرى ذلك بأن هذا لا يعنى حقيقة تاريخية ، وانما يعنى أن التحنو كانوا يخافون قوته ، وأنهم لم يجرؤا على أن يغـزو البلاد[٩] ، وعلى أية حال فاننا سنشهد بعد ذلك خطرا جديدا على مصر ، وهو هنا

---

3) Wilson, J., AJSL, LI, 1935, P. 74.
4) Breasted, J. H. Op. Cit., P. 412.
5) Faulkner, R. O. JEA, 33, 1947, P. 38.
(٦) د• محمد أبو المحاسن عصفور ، المرجع السابق ص ١٨٨ •
(٧) أحمد فخرى ، المرجع السابق ص ٣٤١ •
(٨) دريوتون ـ فانديه ، المرجع السابق ص ٤٦٩ •
9) Fakhry, A., Op. Cit., P. 16.

ليس خطرا على أملاكها فى آسيا ، بل على الحدود المصرية نفسها ، وقد يجعلنا ذلك نفترض أن هزيمة سيتى الاول للتحنو لم تكن عملية حربية كبيرة استطاعت أن تقضى على الاخطار من ناحية الحدود الغربية ، ولكنها عملية حربية نجحت فقط فى أن تحجب المتاعب المتوقعة من هذا الركن قبل مضى زمن طويل ٠

وهناك ما يثبت أن الركن الشمالى الغربى للدلتـــا كانت تحميه من الغزو الليبى سلسلة من القلاع على طول شاطىء البحر الأبيض المتوسط بناها رعمسيس الثانى مثل حصن الغربانيات على مقبرة من برج العرب ؛ وحصنا آخر عند العلمين ، وحصنا ثالثا عند زاوية أم الرخم على مبعدة ١٨ كيلا الى الغرب من مرسى مطروح ، هذا الى جانب العثور على لوحات من عصر رعمسيس الثانى عند العلمين ، بل والى أماكن أخرى بعد ذلك الى الغرب منها(٩) ٠

(٢) فى عهد مرنبتاح (١٢٢٤ ـ ١٢١٤ ق٠م) :

ويتولى مرنبتاح العرش وتصبح المشكلة الليبية حادة ، اذ يبدو أن الاجراءات التى اتخذهـــا رعمسيس الثـــانى قد اثبتت كفاءتهـــا لعدة سنوات ، الا أن فترة الراحة الطويلة التى منحها رعمسيس لنفسه فى نهاية حكمه لم تكن تتفق والتحركـــات التى تجرى فيمـــا وراء الحدود الغربية لمصر ، ومن هنـــا تعرضت البلاد للخطـــر من جديد ، ذلك أن الليبيين ظلوا يتدفقون نحو غرب الدلتا ، ولم يكونوا يكونون خطرا يهدد الكيان المصرى فى أول الامر حتى انضمت اليهم شعوب بحرية قادمة من البحر الابيض المتوسط أخذت تتدفق على الدلتا من سردينيا فى الغرب الى آسيا الصغرى فى الشرق ، ويشير ذكر هذه الشعوب فى النصوص المصرية الى أول ظهور للاوروبيين على مسرح الصراع ، وهكذا يبدو أن أخريات أيام رعمسيس الثانى الهادئة قد أعطت قبائل الليبـــو فرصة اخضاع المشوش والحصول على تأييد بعض قراصنة البحـــر الابيض

---

(٩) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١١٩ ـ ١٢٠ ٠

المتوسط وتدمير القلاع والحصون والاندفاع بقواتهم صوب الواحات الشمالية[10] .

ويرجع المؤرخون أسباب هذا الزحف الليبى نحو مصر لأسباب عدة ، ربما كان منها ، زوال شخصية رعمسيس الثانى ، ذات الشهرة الحربية ، ولكن السبب الارجح يرجع الى العوامل الاقتصادية ، فان «ليبيا» كانت بلدا فقيرا لم يكن يقوم فيما مضى بأود سكانه الاصليين ، ولهذا كان السكان المجاورون لمصر خلال كل العهود دائمى الرغبة فى أن يتركوا حياة الصحراء القاسية ويتمتعوا بالامن والراحة على حدود وادى النيل «لقد أتوا الى أرض مصر يبحثون عن طعام لافواههم» ، وزاد الامر سوءا هذه المرة تحركات الشعوب التى أطلق عليها المصريون «الشماليون الذين فى جزرهم» وأطلق عليهم علماء المصريات «شعوب البحر» ، وقد وصلت هذه التحركات الى الشاطىء الافريقى تجر فى ركابها النساء والاطفال على عربات تجرها الثيران ، ثم اختلطوا بالسكان الاصليين وأجبروهم على الخضوع لهم ، ومن ثم تحركت هذه الجموع طامعة فى أن تعبر البرارى الى الدلتا وأن تستقر فى أرضها الخصبة ، ويفسر «ويلسون» العوامل الاقتصادية فى هذه التحركات تفسيرا آخر ، ذلك أنه يرى أن شعوب البحر حين أخضعوا كريت أصبحوا الخلفاء الطبيعيين للتجارة البحرية الكريتية ، وأنهم حين فكروا فى الاتجاه جنوبا كان الشاطىء الافريقى عند برقة Cyrenaica أقرب اليهم من أية نقطة أخرى (١٨٠ ميلا) ، ذلك لأن أقرب ميناء مصرى كان ضعف تلك المسافة تقريبا ، ومن هنا نشأت علاقات ودية بين شعوب البحر وبين ريبو برقة ، وفضلا عن ذلك فانه من المحتمل أن التجارة المصرية البحرية قد خملت فى تلك الفترة ، ومن هنا ربما كان النضال بين شعوب البحر ومصر من أجل تجارة البحر الابيض المتوسط وربما كان ذلك هو نفس السبب الذى جعلهم ينضمون الى الليبيين ضد

---

(١٠) جان يويوت ، مصر الفرعونية ، ص ١٣٩ .

مصر فى هذه الحـــرب[11] • وعلى أية حــال ، فان الليبيين — العنصر الرئيسى فى هذه الحــرب — لم يكونوا من الليبيــين الذين يقطنـــون الصحراء ، والذين كانت تربطهم بمصر صلة ، بل ربما كانوا من منطقة برقة المشرفة على البحر[12] ، وأنهم قد هاجموا التحنو فى طريقهم الى مصر ، وأن شعوب البحر — الذين حرضوا الليبيين على هذه المخاطرة وكانوا حلفاء لهم فيها[13] — • يتكونون من الشردان والشكلش ولوكا والاقاواشا والتورشا وآخرين ، ومن هنا فان هذا التهديد يعتبر التهديد الخطير الاول بدرجة عظيمة لمصر منذ أيام الهكسوس •

وترى النصوص المصرية أن الهجوم كان فى منطقة الفيوم وجنوبها أكثر منه على الحدود الغربية للدلتـــا ، ذلك أن الليبيين حين هاجمـــوا الحدود الغربية كانت خطواتهم الاولى احتلال البحرية والفرافرة لكى يجعلوا من هاتين الواحتين مركزا لاعتداءاتهم ، وقد سجل مرنبتاح هذه الحقيقة فى نقوش الكرنك ، «لقد وصلوا الى تلال الواحة واستولوا على اقليم الفرافرة «تا احت» •

والواحات فى الصحراء كالجزر فى المحيطات تعتبر كملجـــأ ، ولكنها أرفع منزلة فى أهميتها الحربية ، ففيها الماء الذى يجعل الصحراء تحت ادارته التامة ، كما يجعل طريق القوافل تحت رحمته ، وتاريخ الحروب فى الصحـــراء — فى الأزمنة الحديثة والقديمة — يظهر أهمية احتـــلال الواحات[14] • ولكن هناك عقبات تقف دون ذلك ، منها دليل الاسماء الجغرافية ، ومنها أن القوات العسكرية الكبيرة تصل الى مصر عادة على طول ساحل البحر ولكن بالكاد خلال الصحراء ، ومنها أن وجود شعوب البحر ضمن الغزاة واهتمامهم الواضح بموانى مصر البحرية يوجههم

11) Wilson, J. AJSL, LI, 1935, P. 75.
12) Wilson, J., The Culture of Ancient Egypt, P. 254.
13) Wilson, J., AJSL, LI, P. 75.
14) Fakhry, A., Op. Cit., P. 17.

نحو الدلتا ، وبخاصة المنطقة حول الاسكندرية[١٥] •

وفى السنة الخامسة من عهد مرنبتاح استطاع «ماراى» (Maraye) بن «ديد» (DID) ملك قبيلة الليبو التى تظهر لأول مرة — أن يجمع بين الحلفاء من جنسه «قهق ومشوش» الى جانب خمسة من شعوب البحر ، «وأن يأخذ معه كل محارب حسن ، وكل رجل قتال فى قبيلته ، وقد أحضر معه زوجه وأطفــاله»[١٦] وكذلك فعل حلفاؤه ، اذ جــاءوا بنســائهم وأطفالهم ، كما جاءوا بالماشية وثروة من الاسلحة والادوات التى تم الاستيلاء عليها فيما بعد ، ومع ذلك فان الحاجة هى التى دفعت بهم الى هذه المغامرة ، وتصورهم نقوش الكــرنك بأنهم «•••• كالديــدان لا يهتمون باجسامهم ، بل كانوا يحبون الموت ويحتقرون الحياة ، وقلوبهم متعالية على أهل (مصر) •••• رؤساؤهم ، لقد أتوا الى أرض مصر سعيا وراء الطعام الذى يسدون به أفواههم[١٧] • ويرى جــاردنر أن الهجوم لابد وأن يكون قد جاء من مكان بعيد فى الغرب من «برقة» ، وربما من ورائها ما دام التحرك الاول — لـــ «ماراى» كان يستهدف النزول على أرض تحنـــو واحتلالها ، ولم يمض وقت طويل حتى غزوا القلاع الامامية ، بل ان بعضهم شق طريقه الى واحة الفرافرة ، ومع ذلك فان النهر الكبير أو الفرع الكانوبى للنيل جعل حدا لتقدمهم[١٨] •

وتنتشر أخبار الغزو فى البلاد ، ويشعر المصريون بالخطر الداهم الذى يهدد وطنهم ، •••• خاصة وأن ظهور هذه الافواج كان مفاجأة للمصريين لم يستعدوا لها وأخذ القلق والفزع بفرعون مصر مأخذه[١٩] • ولكنه أثبت أنه سليل الفراعين العظام ، وأنه قادر على أن يرد للمعتدين كيدهم فى نحورهم ، ويأمر بتحصين الحدود ويهتم بقلاع عـــين شمس

15) Wilson, J. Op. Cit., P. 76.
16) Breasted, J. H. ARE, III, Parag. 579. P. 243.
17) Breasted, J. H. ARE, III, Parag. 580. P. 244.
18) Gardiner, A. H., Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 272.
(١٩) د• عبد المنعم أبو بكر ، كفاحنا ضد الغزاة ، ص ٤٢ •

ومنف «ليحمى هليوبوليس ، مدينة آتــوم ، وليدافع عن حصن بتاح تاتنن ، ولينجو ... من الشر[٢٠] ، ثم يحشد جيوشه ويجهزها للقتال فى ظرف أربعة عشر يوما ، «وقد أمرت أرض مصر قائلا .... تستعد للمسير فى أربعة عشر يوما»[٢١] .

ويفزع مرنبتاح الى أقرب الالهة الى نفسه — الى بتاح — ويبتهل اليه أن يرزقه النصر على عدوه ، وينجى وطنه من شر هؤلاء الغــزاة المتبربرين ، والمغامرين المتوحشين ، فلا يلبث ربه بتاح أن يسمع لدعائه ، ويتجلى عليه فى منامه ، فيبشره بالنصر ، ويشجعه على الخروج للقتال ويعطيه بيده سيف القتال ، ليضرب به عدو وطنه وعدوه ، يقول النص «وبعد ذلك رأى جلالته فيما يرى النــائم كأن تمثال بتاح واقف أمام الفرعون — له الحياه والفلاح والصحة — وكان مثل ارتفــاع ..... فتكلم اليه : خذ انت ، ومد له يده بالسيف ، واقص عنك أنت القلب الوجــل»[٢٢] .

ويخرج مرنبتاح على رأس قواته — ، وان رأى جاردنر انه لم يظهر بشخصه للقتال[٢٣] ، لمنازلة العدو الذى كان قد عسكر على الجــانب الغربى للفرع الكانوبى ، ومن المرجح ان مرنبتاح فى هــذه المعركة قد استطاع أن يختار موقعا يستطيع ان يكسب النصر منه . فهو وان اختلف المؤرخون[٢٤] فى تحديده ، الا أنه لم يكن من الســهل على القــوات المهاجمة أن تجتــازه .

---

20) Breasted, J. H., Op. Cit., Parag. 576. P. 241.
21) Ibid., Parag. 581, P. 245.
22) Ibid., Parag 582. P. 245.
23) Gardiner, A. H. Op. Cit., P. 272.

(٢٤) اختلف المؤرخون فى مكــان الموقعة بين مرنبتاح والليبيين ، فرأى بيترى انها كانت فى مكان بين الضهرية والنجيليــة en-Negileh (على مبعدة ١٥ كيلا من كوم حمادة) (تاريخ مصر ص ١٠٩) ، وقد وافق على ذلك الدكتور عصفور (تاريخ الشرق ص ١٠٢) والدكتور نجيب (مصر =

وأيا كان الامر ، فان معركـــة حامية الوطيس دارت رحاهـــا بين المصريين والمعتمدين ، وأنها انتهت بهزيمة ساحقة للغزاة ، ولاشك فى أن هذا النصر الذى أحرزه المصريون يمكن أن يعزى الى اختيار مرنبتاح الموفق لمكان المعركة ــ كما اشرنا ــ وما تميز به هذا الفرعون المسن من بسالة وشجاعة ، فضلا عن فعالية النبالة للمصريين الذين تمكنوا من صد المهاجمين(٢٥) ، ويبدو أنها كانت مجـــزرة بشرية بلغ فيها القتـــال غاية الشدة والعنف ، مع أن المعركة لم تستمر أكثر من ست ساعات بحسب ما ورد عنها فى النصوص المصرية ، ويكفى دليلا على قسوتها أن نورد هنا عدد القتلى والاسرى الذين سقطوا أو اسروا بعد انتهاء المعركة : بلغ عدد القتلى ٦٫٢٠٠ من الليبيين ، ومن رجال جزائر البحر ٢٫٣٧٠ ، كما بلغ عدد الاسرى من الفريقين ٩٫٣٧٦ بين رجل وامرأة ، من بينهم نساء القائد الليبى وأولاده وأخوته ، ولست أدرى معركة تنتهى بقتل وأسر ما يقرب من ١٨ ألف شخص ، دون أن تكون قد بدئت بجيش قد قارب فى عدده على الاقل ثلاثة أمثال هذا العدد(٢٦) .

وهكذا كتب النصر للمصريين ، ((وهرب العدو الخسيس أمير ((ريبو)) وحيدا فى جنح الظلام ، ولم تكن فى رأسه ريشة ، وقدماه بدون حذاء ، وقد أخذت نساؤه أمام وجهه ، وقد أخذت أرغفة مؤنته ، ولم يكن لديه

=

والشرق القديم جـ ٢ ص ٢٧٧) ورأى جاردنر أنها فى اقليم غير محدد ولكن دون شك داخل الدلتا (مصر الفراعنـــة ص ٢٧٢) ، ورأى دريوتون أنها واقعة على حافة وادى النطرون الى الشمال الغربى قليلا من منف (مصر ص ٤٧٩) ورأى سيلى أنها قرب مدينة بلبيس ، وهو رأى يرى الباحث أنه مبالغ فيه اذ لا يعقل أن يتركهم مرنبتاح يتوغلون فى الدلتا الى شرقها ، حتى محافظة الشرقية وعلى أية حال فان ظـــروف الهجوم ، يجعل أن مكانه المتوقع يجب أن يكون فى غرب الدلتا ، وأنه يقترب الى الشمال قدر الامكان ، ما يجعل من رأى بيترى يبدو أقرب الاراء الى الصواب (أى فى مكان ما بين الضهريـــة ــ على مبعدة ١١ كيلا من كـــوم حمـــادة ــ وبين النجيلية ــ ١٥ كيلا من كوم حمادة بمحافظة البحيرة) .

25) Hayes, W. C. Op. Cit., P. 353.

(٢٦) د. عبد المنعم أبو بكر المرجع السابق ص ٤٤ .
وأنظر : جون ويلسون : الحضارة المصرية ص ٤٠٥ .

ماء فى القرية ليحفظه حيا ، وبدت وجوه أخوته متوحشة فحاولوا ذبحه ، وحارب كل واحد من قواده رفاقه ، وحرقت خيامهم ، وصارت رمادا ، وأصبحت كل أمتعته طعاما للجنود))(٢٧) • ثم يصف النص وصوله الى بلاده ، وهو يبكى ، ولم يجد من بين مواطنيه من يستقبله ، وأنهم كانوا يسمونه الامير المعاقب ، ذو المصير الاسود ، ثم يصف النص بعد ذلك حالة ليبيا ، ((هكذا يتحدث كل شخص لابنه : الويل لـــ ((رييـــو)) فقد منعوا حياتهم المرضية ولا يمرح الواحد منهم فى الحقول ، فقد قضى على تجوالهم فى يوم واحد ، كما قضى على التحنو فى عام واحد فقد حول الاله ست ظهره عن رئيسهم ، وخربت مساكنهم بسلطانه ، ولا يوجد عمل لحمل السلال فى ذلك اليوم(٢٨) • (وربما كان ذلك عمل الليبيين فى وقت السلم ، اذ كانوا حمالين للقوافل) •

وهكذا انتهى تهديد الليبيين وأنقذت الحـــدود المصرية الغربيـــة ، واطمأنت مصر فترة من الزمن ، وقد احتفل المصريون بذلك ، وأصبح من المستطاع ((أن يمشى الانسان بخطوات متئدة ، لانه لا أثر للخوف فى قلوب الناس ، وقد تركت الحصون وشأنها ، وأصبحت الابار مباحه ، يستطيع أن يرد هاكل مسافر ، وأبراج الجدران هادئة تغمرها الشمس حتى يستيقظ حراسها والمجا(٢٩) (المازوى) يتهددون خارجها ، وكأنهم نيام ، أما ((ناو Nau)) و ((تكتن(٣٠) Tekten)) فهم فى المروج يمرحون كما يرغبون ، وماشية الحقول منطلقة على حريتها تسير بدون راع حتى فى أثناء عبورها مياه القنوات ، وليس هناك صيـــاح بالليل : قف ؟ أنظر :ا نه شخص قادم ، قد أتى يتكلم لغة الاجانب ، بل يذهب

---

27) Wilson, J. ANET, P. 377.

28) Ibid., P. 377.

(٢٩) المجا أو ((المازوى)) كانت تطلق على قبائل نوبية قوية اشتهرت بالقيام بالحراسة وشاع استخدامها فى البوليس الى درجة أن هذه الكلمة أصبحت تطلق على رجـال البوليس وان لم يكونوا نوبيين أو من هـــذه القبيلـــة •

(٣٠) ثــاو Nau ، تكتــن Tekten : هم حـرس الحـدود الصحراوية (Wilson, ANET, P. 378.)

الانسان ويجىء وهو يغنى ، ولا يسمع المرء انسانا يصيح كأنما هناك حزن ، وعمرت المــدن ثانية ، والذى حــرث محصوله ســوف يأكله (يحصده) ، لان «رع» أعــاد نفسه ثانية الى مصر ، وقد ولد ، وهو مقدر له أن يدافع عنها ، ملك مصر العليــا والسفلى ، با ان رع ، مرى أمون ، ابن رع ، مر ان بتاح ، حوتب حر ماعت[31] •

وهكذا استطاع مرنبتاح أن يهزم هذا التحالف على طــول الحدود المغربية للدلتا ، وحق لشاعره أن يصــــوره بأنه «الشمس التى أزاحت الغيوم التى رانت على مصر وجعل مصر ترى اشعة قرص الشمس مزيح جبل المعدن من فوق رقاب الناس ، ولذا فهو قــد أعطى النفس للشعب (العامة) الذى قد اختنق[32] • وهكذا أظهرت مصر قوتها وتفوقها على الاجــانب ولكن لم يكن ذلك الا لأجل ، فمــا لبث هؤلاء أن عــاودوا محاولتهم ، كما حاولت شعوب البحر الوصول الى مصر ، ولكن تصدى لهم رعمسيس الثالث ، واستطاع أن يفسد محاولتهم فلم يتمكنوا من غزو البلاد ، كما سنفصل ذلك فيما بعد •

ثالثــا : فى عهــد الاسرة العشرين

١ ــ الحرب الليبيــة الاولى :

كتب للملك «رعمسيس الثــالث» (١١٨٢ ــ ١١٥١ ق•م) ــ ثانى ملوك الاسرة العشرين (١١٨٤ ــ ١٠٨٧ ق•م) ــ أن يدافع عن مصر ثلاث محاولات لغزوها ــ من الغرب والشمال ــ وكانت كلها بسبب عدم استقرار شعوب البحر ، غير أن واحدة منها فقط هى التى قــامت بها شعوب البحر (حملة السنة الثامنة ، حوالى عــام ١١٧٤ ق•م) ، وأما الغزوتان الاخريان فقد قــام بهما الليبيون الذين هددوا حدود البلاد المغربية وأشــاعوا القلق بين سكانها ، وان كان ذلك لم يبدأ منــذ عهد رعمسيس الثالث ، وانما يرجع الى أيــام مرنبتاح الذي استطاع أن

---

31) Wilson, J. ANET, P. 378.
32) Ibid., P. 376.

يلقنهم درسا قاسيا ، وأن يبعد أطماعهم فى الاستيلاء على أرض مصر الخصبة ، ومن هنا لا نراهم يستغلون فرصة التطاحن على العرش فيما بين عهدى «رنبتاح وست نخت ، ويقوموا بغزو الدلتا ، وان كانت هناك شواهد تدل على أنهم لم يضيعوا الفرصة نهائيا ، اذ استغلوها فى تنظيم أنفسهم واعادة الثقة الى جنودهم بعد الهزيمة المنكرة التى لاقوها على يد مرنبتاح العظيم ، حتى رأى «جـان يويوت» أن قبائلهم تدفقت فى عهد ست نخت ، واحتلت التحصينات الغربيـة لحدود مصر ، ووصلت غاراتهم الى سيوه[٣٣] ، وحتى أن «مولر» يرى ــ كما يذكر سـليم حسن ــ أن «ست نخت» (١١٨٤ ــ ١١٨٢ ق٠م) قام بطردهم فى عهد مبكر ، غير أنه لم يذكر لنا المصدر الذى استقى منه هذا الخبر ، ويضيف سليم حسن كذلك أنه يجب أن نسلم بأن تحصين الحدود وحمايتها قد حال بين هذا العدو وبين استيطانه الدلتا فعلا ، وتدل الوثائق التى لدينا على أن هؤلاء القـوم كانوا على الحـدود ، وأنهم لم يتعدوهـا فى سكناهم[٣٤] • ومع ذلك فان «دريوتون» يرى أن الليبيين الذين جذبهم الى مصر داعى الحيـاة السهلة قد امتنعوا بمجرد اقـامتهم بمصر عن احترام التعهدات التى ارتبطوا بها لكى يقبلوا فى مصر ، وتحـرروا من دفع الضرائب والقيام بالسخرة ومن الخدمة فى الجيش ، وبهذا أصبح أغنى جزء من البلاد ضحية لفوضى تكاد تكون عامة[٣٥] ، ولعل ما يعنيه من ذلك أن الليبيين قد أقاموا فى مصر ، دون أن يكون للحكومة المصرية أى سلطان عليهم ، وأظن أن هذا لم يحدث ، وأن الوقت الذى سيفعل الليبيون فيه ما يقارب ذلك مكانه فى نهـاية الاسرة العشرين ، وليس فى أولها ، وأيا كان الامـر ، فان مصر أصبحت الان بين فكى الكماشـة ، فشعوب البحر يهددون حدودها الشرقية ، والليبيون يهددون حدودها الغربيـة •

(٣٣) جان يويوت : مصر الفرعونية ص ١٤٠ •
(٣٤) د• سليم حسن : مصر القديمة جـ ٧ ص ٢٨٦ •
(٣٥) دريوتون ، فانديه : مصر ص ٤٨٢ •

كان الاحتكاك الاول بين رعمسيس الثالث وبين الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر ، كان فى السنة الخامسة من حكمه ، ويرجعه المؤرخون الى تهديد الليبيين وحلفائهم لمصر ، وان كان هناك سبب آخر تشير اليه النصوص المصرية ، ذلك أن رعمسيس الثـــالث أراد أن يفرض عليهم حاكما من قبله ، ويبدو أن مصر قد أصبح لها يد فى تعيين الحاكم الليبى منذ أيام مرنبتاح الذى تدخل فى عزل الحاكم الذى حاربه بعد أن هرب من مكان المعركة ، بل وأن الدكتور سليم حسن يرى أن مرنبتاح نصب مكان هذا الحاكم أخـــاه[٣٦] .

وينتهز الليبيون فرصة الضعف التى أتت بعد مرنبتاح ليحافظوا على استقلالهم بل ويحاولوا الاستقرار فى الدلتـــا ، وكان السبب المباشر للحرب الليبية الاولى فى عهد رعمسيس الثالث محاولة الفرعون أن ينصب عليهم ملكا من اختياره ، وان كانت النصوص تشير الى أنهم «قد طلبوا رئيسا بأفواههم وليس بقلوبهم» ، ومعنى هـــذا أن الليبيين طلبوا من رعمسيس الثالث أن يختار لهم حاكما ، وان كان ذلك لم يكن عن رضى منهم ، بقدر ما كان يوحى من الفرعون ، وأيا كان الامر ، فان رعمسيس الثالث ينتهز الفرصة ، وقد كان جلالته نافذ البصيرة ، داهية مثل تحوت ، وقد رثيت قلوبهم وخطتهم ، وحكم عليها فى حضرته ، وكان جلالته قد احضر ولدا صغيرا من أرض تمحـــو ، وهو طفل ، وقد عضده بقـــوة ساعديه ، ونصبه عليهم رئيسا لينظم بلادهم[٣٧] وهكذا اختار رعمسيس الثالث ينتهز الفرصة ، وقد كان جلالته نافذ البصيرة ، داهية مثل تحوت ، عارضت هذه القبائل تعيينه فكانت الحرب ، وعلى أية حال ، فسواء أكان ذلك هو السبب الرئيسى ، أو أن غزوهم كان تكرارا للمحاولات السابقة منذ عهد سيتى الاول ، فان هذه الحـــرب الليبية الاولى انتهت بهزيمة

---

(٣٦) د. سليم حســن ارجع الســابق ص ٢٨٨ .

37) Edgerton, W. & Wilson J. Histtorical Records of Ramessces IIII, P. 25.

الليبيين هزيمة منكرة على حدود الدلتا الغربية ، عندما كانوا فى طريقهم الى منف •

ويرى بعض المؤرخين أن فريقا من شـعوب البحر قد تحالفت مع الليبيين فى هذه الحرب ـ كما حدث فى أيام مرنبتاح ـ فيرى «برستد» أن هناك فريقا من شعوب البحر اتجهوا باساطيلهم التى يقودها رجال مغامرون الى شواطىء الدلتا ، متبعين أساليب النهب والقرصنة أينما حلوا ، وحينما وصلوا الى شواطىء أفريقية انضم اليهم الليبيون الذين كانوا يأملون فى نهب أراضى الدلتا الخصبة واحتلالها ، ثم تقدموا معـا ـ برا وبحرا ـ حيث قابلهم رعمسيس الثالث ، وحدثت بينهم معركة انتهت بهزيمتهم[٣٨] • ويرى كذلك أستاذنا الدكتور عصفور أن الهجوم الذى شنه الليبيون كـان بمعاونة حلفائهم من شعوب البحـر ، وقد استطاع رعمسيس الثالث أن يهزمهم على حدود الدلتا الغربية[٣٩] •

ومن ناحية أخرى فهناك فريق آخر من المؤرخين يعارض هذه الفكرة ، ذلك أن «جون ويلسون» يرى أن مناظر الحرب العشرة الموجودة بمدينة هابو لا تصور اعداء ، باستثناء جيش (ريبو ـ تحنو) وأن شعوب البحر المصورين كانوا يحاربون فى جـانب مصر كمرتزقة ، كمـا أن النقوش المصاحبة لم تذكر الشماليين اطلاقا وأن نقش السنة الخامسة الذى يعطى بيانات عن هذه الحرب ، ينقسم الى قسمين ، قسم يعالج الحرب الليبية الاولى ، وقسم منفصل يعالج الحرب ضد شعوب الشمال ، وأن المعركتين بقيتا مختلفتين ، ومن هنا فليس هنـاك تحالف ، بخاصة وأن الاشتباك الحاسـم كان على حافة الصحـراء فى الركن الشـمالى الاقصى من الدلتـا[٤٠] •

ويبدو لى أن الحرب كانت فى جملتها من الليبيين ، وان كان هذا لا يمنع من أن بعضا من شعوب البحر قد ساعدوا الليبيين فى حملتهم هذه

38) Breasted, J. H. Cambridge Ancient History, II, P. 173.

(٣٩) د٠ محمد أبو المحاسن عصفور المرجع السابق ص ٢٠١ ٠

40) Wilson, J. AJSL, LI, P. 77.

ضد مصر • وان لم يكن ذلك بصورة رئيسية ، ذلك لان هـذه الحرب الليبية الاولى كـانت أصـلا من الليبيين ، ويذكر سـليم حسـن أن «فرشنسكى» قد استنبط أن نصوص هذه الحرب تذكر «التمحو» بكثرة بالنسبة لاسمى «الليبيين والمشوش» ومن هنا فان أعداء رعمسيس الثالث فى هذه الحرب هم فى الاصل أهل «التمحو» ، ولكن من جهة أخرى فان كلمة «تمحو» أصبحت فى هذا الوقت لا تعنى ما كانت تعنيه فى الازمان السالفة لهذا الوقت ، وأن رعمسيس الثالث قد أكتفى هنا بذكرهم فى هذه الحروب الاولى بصفة عامة ، بدلا من تعداد أسماء القبائل الأخرى التى كان يتالف منها الشعب الليبى ، لانهم كانوا الجنس السائد[٤١] •

ولو رجعنا الى التحالف الليبى فى السنة الخامسة لوجدناه يتألف من (ريبو — سبد — مشوش)[٤٢] ، و(تمحو — سبد — مشوش)[٤٣] فأما «سبد» فنحن لا نعرف عنهم شيئا[٤٤] • وأما ذكر «التمحـو» فلم يكن الا أمرا تقليديا ، أو فى منظر عام ليشمل كل الاعـداء الغربيين ، ومن المحتمل كثيرا أنهم لم يصوروا فى الحرب كقوم لهم «كيان سياسى» وأن الملابس وترتيب الشعر فى نقوش الحرب الاولى من أسلوب (تمحو — ريبو) الليبى ، أكثر من أسلوب المشوش الذى صور بوضوح فى الحرب الثانية ، ولهذا فان «ريبو» الذين يدعون تمحو فى الغالب كانوا يقودون المعتدين فى الحرب الليبية الاولى ، كما أن المشوش كانوا أبطال الحرب الليبية الثانية •

أما عن تطورات هذه الحرب وسير المعركة ، والاستعدادات التى قام بها رعمسيس الثالث ، فان هناك سلسلة من المناظر الرائعة المصورة على الجدارين الخارجين — الغربى والشمالى — بمبعد مدينة هابو ، بالإضافة

---

(٤١) د• سليم حسـن المرجع السابق ص ٢٨٧ •

42) Edgerton, W. & Wilson J. Historical Records of Ramesses III, Pl. 16 P. 7.

43) Ibid., Pl. 22. P. 13.

44) Gardiner, A. H., Egypt of The Pharaohs, 1961. P. 283.

الى نقش السنة الخامسة المشهور ، وهى — كغيرها من نصوص جدران المعبد — تشير بصفة عامة الى الحروب التى خاضها رعمسيس الثالث ، وهى مليئة بالعبارات الطنانة والمبالغات الكثيرة ، ويلعب المجاز فيها دورا ضخما ، هذا فضلا عن الكثير من الصفات والنعوت وعبـــارات المديح والاطراء للفرعون ونصره على العدو ، وذلك على لسان موظفيه من رجال البلاط ، ولكن ذلك — بطبيعة الحال — لا يخلو من الحقائق ، وان قلت ، ولكنها هامة ، بخاصة وأنها مصدرنا الوحيد عن هذه الحرب .

وتأتى الاخبار الى الفرعون بأن التحنو يتحركون ، وهم يتآمرون ، وقد تجمعوا واحتشدوا فى عدد لا يحصى ، وهم مكونون من (ريبـــو ، سبد ، مشوش) ، وقد احتشدوا ليزحفوا الى مصر قاصدين أن يكونوا سادتها ، وقد وصل جلالته عند أفق الالـــه المسيطر (معبد أمون رع) ليصلى من أجل النصر ، ولينال سيفا بتارا من والده أمون سيد الالهة ، وقد بعثه بالقوة ، ويده معه ، ليقضى على أرض التمحـــو الذين تعدوا حدوده ، وقد كان الالهان «مونتو» و «ست» حمايته السحرية عن يمين وعن شمال ، كما كان الاله «وب واوات» يخترق الطريق أمامـــه ، وقد جعلـــوا سلطانه قويا ، وقلبه شجـــاعا ، ليطرح أرضـــا هذه البـــلاد المتفاخرة[45] .

ويقدم لنا المنظر الاول لهذه الحرب رعمسيس الثالث كمفوض من أمون للقيام بالحرب الليبية ، اذ نشاهده وهو يتسلم ســـيفه المعقوف (Sickle - Sword) بحضور الالهين «تحوت» و «خونســـو» ، وهذا يرمز للتصريح للفرعون بالحرب ومنحه النصر[46] ، وفى منظر آخر يخرج رعمسيس الثالث من المعبد ممسكا بالسيف المعقوف والقوس ، ويتبعه اله الحرب «مونتو» ، ويسبقه كهنة يحملون أربعـــة أعلام ، هى أعلام «وب واوات» فاتح الطريق ثم خونسو وموت وأمون ، ثم نقش جاء فيه

---

45) Historical Records of Ramesses III, Pl. P. 7-8.
46) Ibid., Pl. 13 P. 4.

«لقد ارتحل جلالته وقلبه قوى .... وفى شجاعة وبطولة ، الى بلاد تمحو «تمح Tmh» الخاسئة التى تحت سلطان جلالته ، وأن والده قد سيره فى رزانة من قصر طيبة ، وقد منحه سيفا ليصد به أعداءه ، وليهلك من لم يكن خاضعا له ، وقد فتحت أمامه الطرق التى لم تكن مطروقة[٤٧].

ويشاهد بعد ذلك كه اله من الالهة ، يخاطب الملك ويعده بالمساعدة كل فيما امتاز به ، فالاله «مونتو» (اله الحـرب) يذبح له الاعداء ، والالـه «وب واوات» يفتح له كل طريق يؤدى الى النصر ، والالـه «خونسو» يجعل يديه قويتين على الاقواس التسعة ، والالهة «موت» تكون له حرزا سحريا الى الابد ، والاله أمـون يذهب معه الى المكان الذى يرغب فيه ، جاعلا قلبه فرحا فى البلاد الاجنبية ، كما أنه ينشر الرعب منه ، ويولد الرهبة منه فى كل أرض أجنبية[٤٨]» . وهكذا نجد أن الالهة كانت تلازم الفرعون فى حروبه ، كل منهم يحمل علمه ويؤدى وظيفته الخاصة به ، وهذا يدل على مدى تغلغل نفوذ رجال الدين فى كل أمور الدولة حتى فى حروبها ، وربما كان ذلك يرجع الى أن المصريين كانوا يعتقدون أن الفضل فى انتصاراتهم ، ثم تكوين امبراطوريتهم تبعا لذلك ، كان راجعا الى آلهين هما «الاله — الملك» الذى قاد الجيوش ، والاله الذى بارك تلك الحروب ، ذلك أن الاله «أمون رع» قد تعطف وأذن بالحملات الحربية ، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك لكى يقود طريقهم الى المعركة ، ومن ثم فقد كان على الجيوش أن تدفع ما عليهامن دين لامون بعد أن تنتصر ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه رعاها وحماها من الخطر .

ويتقدم رعمسيس الثـالث الى ميـدان المعركة يتبعـه حرسـه (شمسو Smsw) الخاص ، وجنوده من المصريين ، والاجانب كذلك ، ويبدو أن ميدان المعركة كان على جانب تل فى صحراء حمراء قد خضبت

---

47) Ibid., Pl. 14 P. 5.
48) Ibid., Pl. 14 P. 6.

بدماء غزيرة ، وقد رأى فيه الدكتور صالح مكانا قرب وادى النطرون[٤٩] ورأى الدكتور فخرى أننا لو تتبعنا دروب الصحراء لوجدنـــا أن هذه المعركة ، اما أن تكون قد حدثت على مقربة من الفرع الكانوبى ، أى فى نهاية الطريق الساحلى ، أو عند «كــوم أبو بللو» وهى احــدى المدن المصرية الهامة فى ذلك العهــد ، واما الدرب الموصل من الصحـــراء الى الدلتا عن طريق ودى النطرون[٥٠] ، ورأى «جون ويلسون» أنها ربما تكون فى مكان ما غرب بحيرة مريوط[٥١] ، وأما النصوص المصرية فتذكر أن مكان المعركة كان عند مدينة «وسر ماعت رع مرى أمون» ، طــارد التمحو[٥٢] ويرى «جاردنر» أن هذه المدينة قد ذكرت ثلاث مرات فى مناسبات مختلفة بمعبد مدينة هابو ، وأنها تقع فى الصحراء قرب بحيرة مريوط[٥٣] • وأيا كان الامر فان مكان المعركة لابد وأن يكون فى مكان ما فى الصحراء قرب حدود الدلتا الغربية •

وتنتهى المعركة بنصر مبين لرعمسيس الثالث ، ونراه يحتفل بانتصاره على الليبيين ، فيشاهد واقفـــا فى الشرفة ، وعربته منتظرة خلفه ، وهو يخاطب موظفيه الذين يحيونه بكل احترام ، ثم نرى الضباط المصريين يقودون الاسرى من الليبيين ، بينما يحصى الكتبة عدد الايدى المقطوعة فى ثلاث كومات ، وأعضاء الاكثـــار فى كومتين ، ثم يخاطب الفرعـــون موظفيه قائلا : «تأملوا الانعامات العديدة التى أتمهـــا أمون رع ملك الالهة على ابنه الفرعون ، لقد أودى ببلاد (تمحو ، ســـبد Seped « مشوش) الذين كانوا لصوصا يعيثون فسادا فى مصر يوميا ، وقد أصبحوا مطروحين أرضا تحت قدميه ، وقد بترت أقدامهم ، ولم يبق واحد منهم ، وقد انقطعت أقدامهم عن أن تطأ مصر أبدا ، وذلك بالنصائح الطيبة التى عملها جلالته ، وهى أن تحافظ على مصر التى كانت قد خربت ، فأفرحوا

(٤٩) د. عبد العزيز صالح المرجع السابق ص ٢٣٧ •
(٥٠) أحمد فخرى مصر الفرعونية ص ٣٧٢ •
51) Wilson J., AJSL, LI, P. 77.
52) Historical Records of Ramesses III, Pl. 22 P. 13.
53) Gardiner, A.H. JEA, 5 P. 134.

وابتهجوا حتى عنان السماء ، ذلك لانه قد ظهر مثل «مونتــو» ، وقد وسع حدود مصر ، وقد أصبح ساعدى قويا ، وقاهرا للاقواس التسعة بما عمله والدى آمون سيد الالهة (ثور والدته) ، ومبدع جمالى»(٥٤) .
ثم نرى بعد ذلك موظفيه يحيونه بكلمات المديح والاطراء ، وهم يقدمون له كومتى أعضاء الاكثار والايدى التى تمثل أعداد القتلى ، هذا ويرى «ويلسون» أن الارقام التى أعطيت للقتلى والاسرى مضطربة ، ويرى أن الحل المحتمل أن عدد الاسرى بلغ أربعة الاف ، بينما بلغ عدد القتلى ١٢٫٠٠٠ قتيلا(٥٥) .

وهناك تفصيلات بين مناظر الحرب ، تستحق الذكر — فيما يرى ويلسون — فهناك منظر فى معركة لجندى ليبى مغمور ، وقد صور — بطريقة مؤثرة — وهو يبحث عن زوجته وطفله و نرى المرأة تلبس زى زوجها نفسه ، ويتكون من عباءة طويلة مفتوحة مع نقبة ، وقد صففت شعرها على هيئة خصلة شعر جانبيه ، وأما الطفل فقد كان عاريا ، وان لبس خصلة الشعر الجانبية كذلك(٥٦) .

ويعود رعمسيس الثالث من حملته هذه مصحوبا بالجند والموظفين ، وهم يسوقون الاسرى من الليبيين أمام عربته ، وقد صــور الليبيون مربوطين أسفلها وبعد أن يستقر فى قصره يأمر بنقش النص المعروف بنقش السنة الخامسة — وان رأى البعض أنه نقش بعد حرب السنة الثامنة لذكرها فيه — يسجل فيه أنه كسر العمود الفقرى لاهل التمحو الى الابد ، ولم تعد أقدامهم تطأ حدود مصر ، أما قوادهم فقد نظموا وصفوا رمزا بالانتصارات ، ووســموا باسم جلالته العظيم ، والذين هربوا كانوا تعساء وارتعدوا ، ولم تعد أفواههم تستطيع أن تستذكر طبيعة أرض مصر ، وأهل تمحو هربــوا وجردوا ، وقــوم المشــوش كانوا فى حيرة فى أرضهم واجتثت جذورهم ، ولم يكونوا فى حالة واحدة ،

54) Historical Records of Ramesses III, Pl. 22 P. 13-14.
55) Wilson J., AJSL, LI, P. 77.
56) Ibid., P. 77-78.

وكل جزء من أجسادهم كان ضعيفـــا من الفزع ، وقالوا أنها هى التى تقصم ظهورنا مشيرين الى مصر ، وسيدها هو الذى قضى على أرواحنا الى أبد الابدين ••••••• وبذرتنا قضى عليها ، ويخصون بالذكــر من زعمائهم «ديد Ded » و «مشـــكن Meshken » و «مــرى Mry و «ورمر Wermer » و «تثمر Thetmer » وكل رئيس عدو قد هاجم مصر من ليبيا قد أصبح فى النار من أوله الى آخــره ، وقد ردت الالهة الجواب بذبحنا لأننا قمنا بهجوم قصدا على أقاليمهم(٥٧) •

وهكذا تنتهى الاضطرابات على الحدود الغربية ، ويأمن المصريون على أنفسهم حتى أصبح «فى استطــاعة المرأة أن تذهب حيث شـــاءت بملابسها على رأسها دون أن تعاق خطواتها الى المكـــان الذى ترغب فيه»(٥٨) ، ويتابع الفرعون حديثه ، ويزعم أن الممالك الاجنبية قد أتت منحنية لشهرة جلالته ، ومعهم أطفالهم وجزيتهم على ظهورهم ، وأصبح أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء يمتدحونه(٥٩) •

ب ـ الحرب الليبيـة الثانيـة :

لقد خاض رعمسيس الثالث حربا ضروسا فى البر والبحر ضد شعوب البحر الشماليين فى سنته الثامنة ، وكتب له فيها نصرا مؤزرا ،وكان يأمل أن تكتب له الراحة بعد هذا العنـــاء الذى لاقاه فى حروبه دفاعـــا عن حدوده الغربية والشرقية ، وفعلا فقد مضت ســـنون قلائل على ذلك . استغلها فى عمل الاستحكامات اللازمة ، وتقوية جيشه وتزويده بالعدة والعتاد اتقاء لخطر قد يقع وهو فى غفلة من أمره ، من الشرق كان ذلك أو من الغرب ، وقد صدق حدس الفرعون ، اذ لم تأت سنته الحادية عشرة حتى نرى الليبيين يعيدون تنظيم أنفسهم ويهاجمون مصر ، ولكن «ويلسون» يقدم لنا تفسيرا آخر ، ذلك أنه يرى أن الحــرب الشمالية قد جذبت كل انتباه المصريين عن الحدود الغربية اثناء هجوم شعوب

57) Historical Records of Ramesses III, Pls. 27-28 P. 27-28.
58) Ibid., Pls. 27-28 P. 30.
59) Ibid., Pls. 27-28 P. 30.

البحر ، ومن هنا فقد تركوا حدودهم الغربية دون حراســة ، فأعطوا الليبيين الفرصة فى أن يخترقوا الدلتا بسهولة ، لدرجة أنهم استطاعوا أن يعبروا الفرع الكانوبى للنيل ، وقد بلغت المشوش السهولة التى دخل بها الليبيون البلاد ، ومن هنا انطلق المشوش بعائلاتهم وأمتعتهم ليدخلوا مصر[٦٠] .

كانت راية الزعامة فى هذه المرة قد عقدت لقوم المشوش — وكانت زعامة الحــرب الليبية الاولى لــ « ريبــو » — واستطــاع زعيمهم «كبر Kaper » أن يجعل القبائل الليبية تحت لوائه ، وان كانوا هم السابقون للغزو فيما يرى ويلسون[٦١] ، ويرى «دريوتون» أن «كبر» قد عمل قبل أن يهاجم مصر على أن يثبت دعائم الســلام فى ليبيا التى يبدو أنها كانت مضطربة دائمــا من جــراء ثورات أهليهــا الاصليين (التحنو) ، فجعل من هؤلاء رفاقا على حد تعبير النصوص المصرية ، وبعد ذلك فقط قرر «كبر» أن ينفذ الى مصر[٦٢] . ولكن «ويلسون» يرى أن المشوش أثناء تحركهم نحو مصر قد نهبوا الليبيين التحنو المحايدين — كما فعل قوم ريبو على أيام مرنبتاح — ولا يوجد تبرير للقول بأن التحنو قد انضموا الى المشوش فى تحالف لمهاجمة مصر ، وأن دورهم كان دور الدولة الحاجزة المسالمة ، وأن نصيبهم كان بالتأكيد السلب بواسطة الجيوش العــابرة[٦٣] . ويبدو لى أن رأى ويلسون هو الاقــرب الى الصواب ، وأن المشوش قد هاجموا مصر ، وأنهم قاموا بالدور الرئيسى فى هذه المرة — كما كان الليبيون فى الحرب الاولى — وأن التحنو كانوا مسالمين ، وأنهم قد هوجموا من المشوش أثناء مرور الاخيرين بهم فى طريقهم الى مصر ، وأن التحالف — ان كان هناك تحالف — فقد كان بين المشوش وريبو ، وليس بين المشوش والتحنو .

---

60) Wilson, J., Op. Cit., P. 79.

61) Ibid., P. 79.

(٦٢) دريوتون ، فانددييه مصر ص ٤٨٥ .

63) Wilson, J. Op. Cit., P. 79-80.

استطاع «مششر Meshesher » بن «كبر» أن يقود المشوش ومن تحالف معهم نحو مصر ، كما استطاع أن يقضى على قوم تحنو المسالمين والذين كانوا يسكنون فى غربى الدلتـا على الحدود المصرية مباشرة ، ويحدثنا نقش السنة الحادية عشرة بأن «رئيس المشوش قد أتى ومعه أهله وانقضوا على بلاد تحنو التى أصبحت رمادا ، وقد خربت مدنهم ، وأصبحت قفرا ولم يعد لبذرتهم وجود»[٦٤] والمقصود بالتحنو هنـا ـ فيما يرى هولشر ـ هم الليبيون ، وذلك طبقا لما جاء فى السطر / ٤٦ من نفس نقش السنة الحادية عشرة ، ونصـه «لقد تسبب الليبيون فى ارتباكنا وارتباكهم ، لأننـا أصغينا الى نصيحتهم»[٦٥] ، وبذلك نسـبب المشوش الهزيمة التى حاقت بهم فى حروبهم مع مصر الى الليبيين ، وقد كان غرضهم الاول هو أن يتخذوا البلاد المصرية وطنا لهم[٦٦] . هذا وقد وافق «جون ويلسون» على هذه الفكرة[٦٧] .

وهكذا استمر المشوش وحلفائهم الليبيين فى تقدمهم داخل البلاد ، ونهبوا المدن الواقعة على الشاطىء الغربى من «منف» حتى «قروبين»[٦٨] وقد وصلوا فى زحفهم حتى النهر العظيم على كلا شاطئيه ، وبمعنى آخر من رأس الدلتا حتى قاعدتها ، أو من القاهرة حتى الاسكندرية على حد تعبير بيترى[٦٩] ، وقد جاء ذكر هذه الحملة فى جزء من بردية هاريس «كان الليبو والمشوش قد استقروا بمصر ، واستولوا على المدن فى غرب المنطقة من «حيكو بتاح» (منف) الى «قروبين» ووصلوا الى النهر الكبير من كل نواحيه ، أنهم هم الذين دمروا مدائن «اكسويس Xois »[٧٠]

---

64) Historical Records of Ramesses III, P. 76.
65) Historical Records of Ramesses III, P. 84.
66) Holscher, W. Op. Cit., P. 65.
67) Wilson J., Op. Cit., P. 79.
(٦٨) قروبين : يظن أنها قرب أبو قير .
69) Petrie, F., Op. Cit., P. 148.
(٧٠) أكسويس : سخا الحالية ، وتقع فى مجاورات كفر الشيخ وعلى مبعدة ٢٤ كيلا الى الجنوب الشرقى من تل الفراعين .

مدى بضع سنوات حين كانوا بمصر»[٧١] . وتدل الغنائم التى حصل عليها رعمسيس الثالث على أن هؤلاء لم يكونوا من الاقوام الهمج ، بل كانوا مسلحين ومجهزين بأحسن العدد ، فقد كانت سيوفهم عظيمة يبلغ طول الواحد منهـــا أربع أذرع ، وبعضهـــا ثلاثة أذرع . وكانوا كذلك مسلحين بالأقواس والعربات والكنانات والخيول والحمير لحمل الاثقال .

ويتقدم جلالته لمقابلة أعدائه بشجاعة ، وساعده قوى ، وقلبه معتمد على والده سيد الالهة ، وقد كان كالثور الجبـــار ، مزودا بالقطعـــان البرية[٧٢] وتحدث بين الفريقين معركة حامية ، وقد أبلى فيها مشـــاته وفرسانه والرجال الاقوياء الذين دربهم على القتال ، وأظهروا شجاعة ، فى حين كان هو جدارا صلبا ، وثابتا فى زمنهم ..... شاد القوس[٧٣] .

وتقدم لنا المناظر المصورة بمدينة هابو الجنـــود المصريين ، وهم يتممون هزيمة الليبيين ، وفى نفس المنظر نرى رعمسيس الثالث ينزل من عربته ليربط أسيرين من الليبيين ، ونصا أمام الملك جاء فيه «الاله الطيب ، عظيم الانتصار ، سيد القوة ، قاتل كل أرض مطوق كل بلاد المشوش بحثا عن المعتدين على حدوده ، داخلا فى كل حشد ، ذابحا مئات الالوف ، لا يقف أمامه أحد ، لانه يشبه «بعل» فى وقت غضبه»[٧٤] ، كما يخبرنا النقش أن جلالته قد استولى على ٢٠٥٢ أسيرا ، وأما الذين كان نصيبهم القتل ، فقد بلغوا ٢١٧٥ قتيلا ، هذا فضلا على أنه يظهر لنا أن الالهة «نخبت» سيدة السماء تعطيه كل النصر ، وكل شجاعة ، كما تجعل كل السهول والبلاد الجبلية تحت قدميه[٧٥] .

وتنتهى المعركة على خير ما يرجوه الفرعون العظيم ، وتتم المجزرة التى أوقعها جلالته بالاعـــداء من أرض المشوش الذين غـــزو مصر من

71) Gardiner, A. H; Op. Cit., P. 287.
72) Historical Records of Rameses III, P. 77.
73) Ibid., P. 77.
74) Ibid., P. 77-8.
75) Ibid., P. 60.

مدينة «حات شع Hat - sho » (قلعة الرمل) الى مدينة «وسر ماعت رع مى أمون» التى على جبل «وب — تو» (بداية الارض) موقعا بهم مذبحة تمتد ٨ اتر ، وهناك نقش آخـر لنفس الحادث على الجـدار الشمالى الداخلى من الصرح الاول ، ونرى رعمسيس الثالث فى عربته يحطم العـدو ، بينما المصريون يقذفونهم بسهـامهم من حصنـين ، يحمـل أحـدهما الاسـم «حات شـع» (قلعة الرمل) ، وأما الرواية المصاحبة فتالفة ، وان كانت تقرأ «المجزرة التى أوقعها جلالته فى أرض المشوش الذ ين أتوا الى مصر من مدينة رعمسيس أمير هليوبوليس ، التى على جبل «وب — تو» الى مدينة حات شعو موقعهـا اياها فى ٨ اتر[٧٦] Etr ، ويرى «جاردنر» ان هذه الرواية هامة لانها تعطى مدينة رعمسيس الثالث اسـمه فيما بعد التتويج بدلا من اسمه فيمـا قبل التتويج ، وتظهر نفس المدينة فى النقوش الهيروغليفية كحصن يخاطب رعمسيس جنوده أمامه «لقد دمر الفرعون العدو الليبى أمـام مدينة (وسر ماعت رع مى أمون ذابح التمحـو) ويذكر جاردنر بعـد ذلك أن «دارسى» يقدم دليلا على أن «حات شع» هنا يمكن أن يوجد بمكان انما قد كتب (حات ان شع) وله اله يدعى «مين سيد الرمل» (مين نب شع) Min Lord-of-Sand الذى وجد فى نص غريب عن طقوس المعبد ، ويعنى عدة أماكن فى الركن الشمالى الغربى للدلتا ، ولو أن هذه الحقيقة واضحة بالنسبة اليه ، كما أن هناك تخمينات هامة تؤسس عليه ، فانه يأخذه على أن «حات شـع» يجب أن يبحث عنه فى واحة سيـوة ، ولكن من المؤكد افتراض وقوعها فى الصحراء قرب مريوط ، وأكثر قبولا أن نفترض أنها تقع فى الصحراء قرب بحيرة مريوط ** واصطلاح «وب — تو» (بداية

---

(٧٦) الاتر Etr ويساوى — فيما يرى — بورخادت — حـوالى ١٠ كيلو مترا .

Gardiner, Onom. II, 135.

والمسافة اذن = ٨٥ كيلا .

الارض) تمتد عادة حتى أقصى جنوب أثيوبيا ، ولكن هناك على الاقل مثالا آخر على استعمالها مع الاقليم الشمالى الغربى(٧٧) .

وأيا كان الامر فاننا نلاحظ فى هذين النصين أن رعمسيس الثالث قد استعمل اسمه فى اســم المدينة المسماه باســمه فى النص الاول ، وقد استعمل لقبه فى اسم المدينة المذكورة فى النص الثانى ، غير أنه لا يوجد ما يدعونــا الى توحيد هذه المدينة المزدوجة الاسم بالمدينة المســماه «بروسر ماعت رع مرى أمون» التى جاء ذكرها فى بردية هــاريس ، ويحتمل أنه فى تغيير الاسم فى هذين النصين ما يدعونا الى الظن بأنهما اسمان لبلدين مختلفين ، وأن الموقعة لم تقع فى أحد البلدين ، بل وقعت فى البقعة التى بينهما ، ولم تحدثنا النصوص عن اقتفاء أثر العدو من أحد الحصنين الى الاخر ، ومن المحتمل جدا أن المصريين قــد حصروا الغزاة بين هذين البلدين وأصلوهم بسهامهم وابلا من المقذوفات كلما أرادوا الارتداد من حصن الى آخر ، هذا فضلا عن قتال الجيش للعدو فى البقعة التى تقع بين هذين المكانين ، ولابد أن العدو فى نهاية الامر قد اضطر الى التسليم ، ونرى فى المناظر التى تركها لنا رعمسيس الثالث ، اقتفاده أثر العدو فى عربته يساعده فى هجومه المشــاه والخيالة ، كما نشاهد الجنود المصريين فى الحصنين السالفى الذكر يرسلون وابلا من السهام على المشوش(٧٨) .

لقد شارك رعمسيس الثالث بنفسه فى المعركة ، وان كان ولى العهد ربما كان هو قائد الجيش ، اذ نشاهده يسوق الأسرى بنفســه ، كما نراه ينزل من عربتــه ويكبل ليبيين ويجرهما خلفه ، ثم يوجــه خطابا للأسرى قائلا : «تأملوا ان الفرعون ــ له الحياة والفلاح والصحة ــ هو الذى دمــر أسمكم الى الابــد ، وأن فمكم لن يتفــاخر بعد بذكر مصر»(٧٩) .

---

77) Gardiner, A. H. JEA, 5 P. 134-5.

(٧٨) د. سليم حسن مصر القديمة جـ ٧ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ .

79) Historical Records of Ramesses III, Pl. 74 P. 63.

وتعطينا نقوش المعركة أرقاما(٨٠) للغنائم من الرجـال والنسـاء والاطفال والعربات والسيوف وغيرها ، فنرى الفرعون يأسر بسيفه البتار — على حد تعبير النصوص المصرية — ما يزيد على الالفين من الاسرى ، منهم حوالى سبعمائة من النساء والاطفال ، كما يقتل ما يزيد عن الالفين كذلك ، وأما عدد الماشية التى اسـتولى عليها المصريون فكان أكثر من أربعين ألفا ، معظمها من الماعز والضان ، هذا بجانب ١٢ عربـة ، ١١٦ سيفا من المشوش ، طول الواحد منها أربع أذرع ، ١٢٣ سـيفا ، طول الواحد منها ثلاثة اذرع ، ٦٠٣ قوسا ، الا أن أثمن الغنائم على الاطلاق كان «مشـر» زعيم المشوش وقائد الحملة ، وتجرى محاولات من جانب الاب «كبر» للافراج عنه دون جدوى ، بل انه نفسه يلقى نفس المصير . وتحدثنا القصيدة عن هذه الحرب بأن «كبـر» قد أتى يطلب الصلـح كالرجل المعصوب العينين ..... وقد ألقى سـلاحه هو وجيشه على الارض،وصاح حتى عنان السماء متضرعا من أجل ابنه،وهنا جمدتقدماه ويده ولم يبد حراكـا فى مكانه ، ولا يعلم دخائل أفكاره أو نفسه الا الاله ، وقد أنقض عليهم جلالته كجبل من الجرانيت حتى أنهم طحنوا وسحقوا واختلطوا بالارض ، وكانت دماؤهم ..... فى المكان الذى كانوا فيه .... الماء ، وسحقت جثثهم فى المكان الذى كانوا فيه وقبض على «كبـر» وسيق الى حيث ذبح ، وأسر رجال جيشـه الذين كانت قلوبهم تعتمد عليه لحمايتهم ،و قد ذبح وهو مكتف ومكبل كالطير على أديم العربة تحت مواطىء جلالته(٨١) .

ويكسب رعمسيس الثالث المعركة ، ويبلغ فيها انتصاره حدا جعل المصريون يعتبرونه حدثا يحتفلون به سنويا ، وسمى عندهم «عيد قتل المشوش» وخلع على رعمسيس الثالث لقب «حامى مصر ، والمدافع عن الاقطار ، وقاتل المشوش ، ومتلف أرض التمحو» ، وقد وصف انتصاره عليهم بقوله ، «أنظروا : اننى قضيت عليهم وذبحتهم بضربة واحدة ،

---

80) Ibid., Pl. 75 P. 67-9.
81) Ibid., Pl. 85-6 P. 92.

أذللت المشوش والليبو والاسبات والقايقاش والشايتب والهاسا والبقنان ، وجعلتهم غارقين فى دمائهم مكومين بعضهم فوق بعض ، لقد جعلتهم يرتدون عن وطء حدود مصر ، وأخذت ممن لم يقتلهم سيفى أسرى كثيرين مكتوفى الايدى ، وربطتهم كالطيور أمام خيلى ، وكان هناك عشرات الالاف من نسائهم وأطفالهم» (٨٢) •

ويقدم الفرعون لربه آمون كثيرا من غنائمه جزءا لما قدمه له من نصر ، «فأما ماشيتهم فجىء بها الى بيت آمون لتصبح له قطعانا أبدية»، وأما الاسرى فكانوا يوسمون على الكتف بخرطوش الفرعون ، وقد خصص فريق منهم للعمل فى معابد الالهة ، وخصص فريق آخر للعمل فى الممتلكات الملكية ، بينما هناك فريق ثالث قد عمل كجنود مرتزقة فى الجيش المصرى ، وقد استطاع قادة الفريقين الاخيرين أن يصلوا الى مراكز القوة فى البلاد ، ويبدو أن الاسرى كانوا يرسلون عادة الى مناطق بعيدة عن مجال اضطراباتهم ، ومن هنا فان المشوش الذين هاجموا الحدود الغربية للدلتا قد استقروا فى النصف الشرقى من الدلتا ، بينما عمل فريق آخر منهم فى قطع الاحجار فى جبانة طيبة • وكانت اجراءات تمصيرهم تسير على قدم وساق ، وساعد على ذلك أن الفرعون حرم عليهم أن يتحدثوا بلغتهم الاصلية وأجبروهم على التحدث باللغة المصرية، «ان ريبو ومشوش نقلوا عبر النهر ، واحضروا الى مصر ووضعوا فى حصون الملك العظيم ، كى يصغوا (يتعلموا) الى الحديث ، فقلب لغتهم ، حتى يجبروا على السير فى الطريق التى لم يسيروا فيها اطلاقا من قبل» (٨٣) •

ومن أسف فان رعمسيس الثالث يبدو أنه نسى عملية «ارسو» فى اغتصاب السلطة ، وترسم خطا رعمسيس الثانى وأنزل أبناء شعوب البحر على شواطىء بحر يوسف ، كما عبر المشوش فرعى النيل ، ليحتلوا شرقى الدلتا ، حيث «نسوا لغتهم الاصلية» (٨٤) •

---

82) Gardiner, A. H. Ep, P. 287.
83) Wilson, J. AJSL, LI, P. 81.

(٨٤) جان يويوت مصر الفرعونية ص ١٤٤ •

كان انتصار رعمسيس الثالث حاسما بعــد أن قضى على الهجوم الثانى على حدوده الغربية ، ولم يعد أمام رعمسيس ما يخشاه من هذه الناحية بعد أن قلم أظفارهم ، ومن ثم فــان الليبيين لم يحاولوا بعد هزيمتهم هذه أن يفرضوا أنفسهم عنوة على مصر ، ولكن يبدو أن هذا لم يكن حلا جذريا للمشكلة الليبيــة ، اذ أن قوة الليبيين لم يقض عليها تماما ، وبدأوا يتخذون طريقا آخر يفرضون به أنفسهم على مصر ، لقد بدأ الليبيون يهاجرون الى مصر مسالمين ــ كما كانوا يفعلون من قبل فى بعض الاحايين ــ وقد استمروا يفعلون ذلك تدريجيا ، وفى أعداد قليلة ، ولم يقاومهم فرعون مصر ولم يهتم بهم كثيرا لعلمه بضعفهم وعجزهم ، ومن كان لذلك أثره الخطير فى مستقبل الايام •

الفصل الثالث

الليبيون والاسرة الثانية والعشرون

(١) نفوذ الاجانب بعد عهد رعمسيس الثالث :

ازداد عدد الاجانب فى مصر فى عصر رعمسيس الثالث ، وسرعان ما تسللوا الى أكثر المناصب أهمية حتى أصبح الكثيرون منهم موضع ثقة الفرعون ومن بطانته الاقربين ، ولابد أن البلاط ظل لا يخلو منهم ، وربما يفسر ذلك ما نراه من تزايد الاعتماد على العناصر الاجنبية ، فرعمسيس الرابع يتابع سياسة أبيه نحو الاجانب حيث يستخدم ثمانمائة عبيرو ، أو «خبيرو» فى عمل من أعمال استخراج الاحجار ، ولابد أنه كان هناك عشرات الالوف من الاجـانب المستبعدين فى الجيش ، وفى المشـاريع الحكومية ، وفى مصانع المعابد ، وفى ضياع الملك ونبلائه[١] • ولم يكن فى ذلك خطر على البلاد طالما ظلت قوية يقظة ، و طالما ظلت يدهـا هى اليد العليا ، أو كان على رأسها فرعون من فراعينها العظام ، من أمثال تحوتمس الثالث العظيم أو ابنه امنحتب الثانى ، أو حتى أمثال رعمسيس الثانى أو الثالث ولكن امر جد مختلف ، ان حدث ذلك فى عهد خلفـاء رعمسيس الثالث الضعاف ، وفى فترة كانت تقاسى البلاد فيها الامرين ، فبجانب الازمة الاقتصادية التى كانت تعانيها البلاد منذ أخريات أيام رعمسيس الثالث ، كانت تعانى كذلك من نزاع داخلى بين أفراد العائلة المالكة نفسها حول العرش ، فاذا أضفنا الى ذلك قلة الحروب فى الأسرة العشرين بعد عهد رعمسيس الثالث ، وعدم توفر المال اللازم لدفع أجور هؤلاء الاجانب الذين عملوا كمرتزقة فى الجيش ، لتبين لنا أن الخطر كل الخطر فى اتباع تلك السياسة • ومن هنـا فأننا نرى الفراعين يضطرون

---

1) Wilson, J; Op. Cit., P. 257.

ـــ حين يعجزون عند دفع أجور هؤلاء المرتزقة ـــ الى اقطاعهم أرضين زراعية واسعة كمرتبات دائمة ، ومن ثم يبدأ نفوذ هؤلاء الاجانب يزداد قوة ، وبمرور الزمن يصبح هؤلاء الذين اتوا الى أرض الكنانة عبيدا يذيعون الرعب بين ســاداتهم ، وحتى يصبح هؤلاء الذين أتوا يطلبون الرزق فى مصر مثار قلق واضطراب فيها •

وهكذا بدأت عصابات هؤلاء الاجانب من الليبيين والمشوش تجوس خلال مصر العليا ، وتهدد العاملين الآمنين من جماعات العمال الذين كانوا يعملون فى مقابر الملوك لسنوات عدة ، ويبدو ـــ فيما يعتقد ارك بيت ـــ أن هذه كانت طلائع مبكرة انتهت بالسيادة الليبية على مصر[٢] ، بينما يرى «جون ويلسون» أن هؤلاء الاجــانب لم يكونوا قبائل من البدو جاءوا من الصحراء فغزوا وادى النيل من الغرب ، فلو كان الامر كذلك ، لتمكن شرطة الجبانة من ايقاف أمثال تلك العصابات عند حدها ، ولكنهم كانوا ـــ على الارجح ـــ من الجنود المرتزقة الذن جاءوا الى مصر كأسرى حرب ، أو تطوعوا فى صفوف الجيش ، ولم يصبح لهم عمل لانه لم تعد هناك حملات حربية يشتركون فيها،ومن ثم أصبح هؤلاء الجنود محرومين من نهب أعداء مصر ، وربما لم تدفع لهم مخصصاتهم كما حدث لعمال الجبانة فأخذوا يعيشون من نهب سكان مصر نفسها[٣] •

وهكذا كانت تلك الايام شــدة على المصريين ، حتى أنهم أنفسهم أطلقوا على احــدى سنواتها «ســنة الضياع» ، عندما كان النـــاس جياعا[٤] وحتى أصبحت التقارير الخاصة بعمال الجبــانة تذكر أياما كثيرة ، اضطر فيها العمال الى ايقاف العمل «بسبب الاجانب» وبالتحديد «بسبب ريبو»[٥] ، وحتى أصبحنا نرى موظفى الجبــانة يكتبون الى الوزير فى احدى رسائلهم يحذرونه من أن المشوش قد أتوا الى طيبة[٦] •

---

2) Peet, T. E. JEA, 12, 1926, P. 258.
3) Wilson, J. Op. Cit., P. 281.
4) Peet, T. E. Op. Cit., P. 258.
5) Wilson, J. AJSL, LI P. 81.
6) Peet, T. E. Op. Cit., P. 258.

وقد جاء أول ذكر لهؤلاء الغزاة على شظايا يومية عمـــال مؤرخة بالسنة العاشرة من عهـــد ملك لم يذكر اسمه ، ونعرف منها أن ســـكان الصحـــراء قد اندفعوا فى تـــاريخ غير محـــدد ، ونزلـــوا فى مدينـــة «سمن Smen »[٧] ومن ثم فان جماعة العمـــال قد توقفوا عن العمل خوفا من سكان الصحراء وقد برروا خوفهم تماما ، ذلك لان «ســـكان الصحراء قد نزلوا الى الغرب من طيبة» لمدة يومين ، وقد ثبت من نص آخر أن سكان الصحراء هؤلاء كانوا من الصحراء الغربية ، اذ جاء فيه أن العمال قد توقفوا عن العمل بسبب الخوف الذى أصابهم من المشوش[٨] .

وهناك قطعة أخرى من يومية مؤرخة بالسنة الخامسة عشرة ، ذكر فيها «الليبو» على أنهم عبروا النهر جنوب مكان ما ، وهناك اشارة كذلك على أن المشوش كانوا فى «تى» أى طيبة على الضفة الشرقية ، وهناك قطعة أخرى لم يذكر عليها تاريخ ، ولكنها فى أغلب الظن تتعلق بواحدة من البرديتين السابقتين ، وقد جاءت بها اشارات عن الاجـــانب ، فقد ذكر مرة «نزل المشوش» وذكر مرة أخرى «نزل الاثيوبيون» (كوش) الى طيبة ، وأما عن الدور الذى لعبه هؤلاء الكوشيون فغير واضح ، وان كان يبدو أنه جيش وصل من النوبة ، ونلاحظ أن اسم الملك الذى وقعت فى عهده هذه الاحداث لم يذكر ، وان كان «شرنى» حاول أن يضع هذه الاحداث التى بدأت منذ السنة العاشرة حتى السنة الخامسة عشرة فى عهد الملك رعمسيس التاسع ، ذلك لانه لا يوجد ملك آخر — باستثناء رعمسيس الثالث والحادى عشر — حكم هذه المدة فى الاسرة العشرين .

هذا ولدينا اشارات على أن العمل قد توقف فى الشهر الثالث من فصل الفيضان من السنة الثالثة من عهد رعمسيس العاشر ، كما جاء ذكر

---

(٧) مدينة «سمن» وتقع عند قرية الرزيقات الحالية على الجانب الايسر للنيل ، وعلى مبعدة ٢٥ كيلو مترا الى الجنوب من مدينة طيبـــة (الاقصر) .

8) . Cerny, J., CAH, II, Part, 2, 1975 P. 617.

الخوف من سكان الصحراء لأيام عدة من عهد هذا الفرعون[٩] .

وهكذا تسلل المشوش والليبو الى مصر العليا ، ينشرون الخراب ويذيعون الرعب ، وبخاصة فى منطقة طيبة ، كما تشعبت القبائل الليبية على نطاق واسع فى مصر السفلى ومنف وهيرا قليوبوليس (اهناسية) ، وربما كان هذا التسلل مسالما — فى مرحلته الاولى على الاقل — ولكنه تسبب آخر الامر فى احتلال الدلتا ، حيث نرى الليبيين — تحت قيادة رؤسائهم — فى عدد من المقاطعات ، ثم أصبح لهم — بمرور الزمن — مراكز هامة فى كل المدن الرئيسية ، ثم ما لبثت هذه المراكز أن أخذت الصبغة الحربية وربما أصبح المصريون غير قادرين على مقاومة تسلل الليبيين ، بل أصبحوا يخشون بأسهم ، ويتقون شرهم ، بل وترتعد فرائسهم بمجرد ظهور هؤلاء الأجانب حتى أن هناك من يرى أن الليبيين قد عاودوا التوسع — سواء فى اتجاه الواحات — ومنها الهجوم على طيبة وتدميرها فى عهد رعمسيس الحادى عشر ، أو فى اتجاه فرع رشيد ، حيث كان ملوكهم هم أصحاب السيادة فى عهد الاسرة الثالثة والعشرين[١٠] .

ولكن العلاقات لم تكن دائما عدائية مع المشوش — بصفة خاصة — فهناك اشارات عنهم مؤرخة من نهاية الاسرة العشرين ، ورغم أنها غامضة ، ونادرة ، ولكنها لا تدل على علاقات عدائية ، «ففى قضية من أيام رعمسيس الحادى عشر يعلن فيها أحد صناع البيرة من طيبة الغربية أنه تسلم فضة من المشوش ، وبالتخمين فانها نتيجة تبادل تجارى ، وفى حوالى ذلك الوقت أصدر أحد قواد الجيش أمرا عاجلا يقضى بأن الناس الذين تعودوا اعطاء الخبز للمشوش ، عليهم أن يقدموه حالا ، وهذا يدل على أنهم كانوا يمدون الجيش بأحد الفرق ، ومن ناحية أخرى فاننا نجد أحد الوزراء يوجه خطابا الى شخصية غير معروفة الاسم واللقب طالبا

9) Ibid., P. 15.

(١٠) جان يويوت المرجع السابق ص ١٤٢ .

منه احضار بوليس «المجاى» الذين كانا فى «بى ـ احبو» ـ والتى تقع الان تحت أنقاض قرية بهيت الحجر بالدلتا ـ ثم أضاف ما يلى «سوف تأتون وذلك بعد الاطلاع الدقيق على كيفية اطعام المشوش» أو «تصرف هؤلاء المشوش» • وانه من غير المعروف الاسباب التى دعت الوزير الى أن يستدعى شرطة (بى ـ احبو) بهذه السرعة ، ولكن متسلم الخطاب كان واضحا انه فى تلك المدينة ، وأن المشوش كانوا يقيمون بالقرب منها ، واذا صح ذلك فقد كانوا اذن يقيمون فى وسط الدلتا ، ويبدو أن متسلم الخطاب قد ترك مكانه الاصلى ليلحق بالوزير وذلك بعد أن كان مطمئنا الى عدم وجود ما يسىء اليه عن المشوش ، وقد قامت جماعة أخرى من المشوش أنفسهم ـ ربما بعد ذلك بقليل ـ فى ناحية هيراقليوبوليس التى لا تبعد كثيرا عن مدخل الفيوم ، وكان من نسلهم ذلك الزعيم الذى اعتلى العرش الفرعونى باسم «شيشنق الاول» مؤسسا الاسرة الثانية والعشرين[١١] ، وان كان «جان يويوت» يرى أنه ذلك كان فى مدينة «بوبسطة» بمنطقة الحدود ، حيث أسكن الرعامسة غالبية المستوطنين الليبيين ، وأن سلالة «يويو واو» المشوش قد وصلت الى القيادة العليا لفرق الجند المرتزقة من المشوش ، ولقب القائد بلقب (ما المشوش) أى (ملك ما العظيم) ثم نجحت هذه الاسرة ـ فيما بعد ـ فى بسط نفوذها على الوادى كله[١٢] •

وهكذا نجد أن شواهد الاحوال تدل على أن الليبيين قد تغلغلوا فى داخل البلاد ، ولم تقتصر اقامتهم على المناطق الغربية فحسب ، كما أنها تدل على أن المسئولين كانوا يعملون على ارضائهم ، ويلزمون مرؤسيهم بامدادهم بالطعام ، وفى نفس الوقت يحاولون الاستعداد ليأمنوا شرهم ، فان استدعاء الشرطة على عجل لا يعنى سوى الخشية من حدوث ظروف غير عادية ، أو بالاحرى حدوث ما ينذر بخطر عدم الامن والفوضى ، وربما تطورت العلاقة بين الدولة وبين هؤلاء الاجانب المستوطنين

---

11) Cerny, J., Op. Cit., P. 16.

(١٢) جان يويوت المرجع السابق ص ١٦٠ •

فأصبحت لا تكتفى بحصر اقامتهم فى الاماكن القريبة من ليبيا فحسب ، بل جعلتهم يقيمون فى مناطق الحدود الحساسة حتى فى شرق الدلتا ، ومع كل ذلك يمكننا أن نستنتج على الاقل أن هؤلاء الليبيين حازوا ثقة الملوك فأسكنوهم بالقرب من عاصمتهم فى شرق الدلتا •

(٢) أسرة شيشنق الليبية :

لا ريب فى أن الاصـــول الاولى لملوك الاسرة الثـــانية والعشرين (٩٤٥ — ٧٣٠ ق•م) انما ترجع الى أولئك المشوش الذين عرفناهم فى الحملة الليبية الثانية «حوالى عام ١٧٧١ ق•م» ، وقد كتب لرعمسيس الثالث نجحا بعيد المدى فى سحق هجومهم على حدوده الغربية ، وان لم يمنع ذلك النصر أولئك المشوش من أن يأتوا الى مصر مسالمين ، ثم سرعان ما انضم الكثيرون منهم الى الجيش المصرى كمرتزقة •

وقد أقامت جماعة منهم فى «اهناسيا»[١٣] ، وهى الجمـــاعة التى سيكون منها «الشيشنق» ، مؤسس الاسرة الثانية والعشرين ، وكان يحمل لقب «رئيس المشواش المعظيم» ، وهى تسمية ربما ترجع فى أصلها الى منطقة «شط الجريد» ، جنوبى قرطاج فى تونس ، ومن ثم فقد حمل كثير من الامراء الصغار لقب «أمـــير أو عظيم أو رئيس» مستعملين الكلمة المصرية «ور» أو الكلمة الليبية «مس» ، وغالبا ما كـــانوا يكتبون كلمة المشوش مختصرة الى «مى» أو «ما» ، ثم استقر المشوش فى الواحات المصرية ، وخاصة فى الداخلة والبحرية ، فضلا عن الوادى نفسه ، ولعل أحدث اشارة عن هؤلاء المشوش ، انما كانت على «لوحة بعنخى» ، حيث

---

(١٣) اهناسيا : وتعرف الان باهناسيا المدينة ، وتقع على الجانب الغربى للوادى على بحر يوسف فى مقابل مدينة بنى سويف ، وعلى مبعدة ٥٥ ميلا الى الجنوب من منف ، وكانت عاصمة البلاد على أيام الاسرتين التاسعة والعاشرة ، وأما اسمهـــا المصرى القديم فهو «نن ــ نى ــ سوت» ويرجع أصله الى عصور ما قبل التاريخ ، وان كان أقدم ذكر لها فيرجع الى عهد الدولة القديمة ، وهـــو «ننو ــ نسوت» بمعنى مدينـــة الطفل الملكى ، وكان «حرشف» معبودها الرئيسى ، وقد قرنه الرومان بمعبودهم البطل «هيرقل» ، ومن ثم فقد سميت المدينة «هيراقليوبوليس» (أنظر : M. G. Mokhtar, Ihnasya - El Madinah, Cairo, 1957, P. 55-69)

ذكرت على الاقل ستة من أمــراء «ما» ، كحكام لمدن مختلفة ، منهـــا أبو صير ومنديس فى الدلتا[١٤] .

هذا وقد ساعدت الظروف التى كانت تمــر بها البلاد ، كما أشرنا آنفا ، على أن يتمتع المشوش بكثير من النفوذ فى جالياتهم التى صبغت بالصبغة العسكرية ، ولعل أقواها تلك التى كانت تعيش فى الواحات ، ثم نزحت الى اهناسيا بزعامة «بويو واوا» فى أخريات أيام الرعامسة ، ثم سرعان ما أصبح ولده «ماواساتا» واحدا من كهان «حرشف» معبود اهناسيا ، ثم أخذت العائلة تتوارث هــذا المنصب الكهنوتى ، ويــزداد نفوذها بالتدريج فى اهناسيا ، فضلا عن مصر الوسطى ، حتى استطاع «شيشنق» جد مؤسس الاسرة الثانية والعشرين من أن يصبح قــائدا للحملة الليبية ، وأن يجمع فى يديه السلطتين الدينية والعسكرية فى مصر الوسطى ، وأن يحمل ولده «نمرات» (نمرود) على أيامه لقب «رئيس الجيش كله» و «الرئيس الاعظم للاجانب»[١٥] .

وهكذا ـــ وطبقا للوحة «حاربســون» (باسن حــار ، فيما يرى كتشن)[١٦] ، والتى كشف عنها فى «السرابيوم» (مدفن العجول المقدسة فى أقصى غرب منطقة سقارة الشمالية) ، وتؤرخ بالعام السابع والثلاثين من حكم «شيشنق الخامس» ، فان موطن الاسرة الجديدة فى اهناسيا ، الامر الذى ارتضته جمهرة المؤرخين ، غير أن «جان يويوت» انما يذهب الى أن أسرة شيشنق انما كانت تقيم منذ أوائل الاسرة الحادية والعشرين

---

14) J. Cerny, Incursions of The Libyans and Their Settlement in Egypt, in CAH, Part, 2 B, Cambridge, 1980, P. 616-617.
J. A. Wilson, The Libyans and The End of The Egyptian Empire, in AJSL, LI, 1935, P. 81.
A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, P. 120.
15) G. Wainwright, JEA, 48, 1962, P. 89.
J. H. Breasted, Op. Cit., P. 226-227.
16) K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, P. 105-108.

فى بوباسطة (فى مجاورات الزقازيق) ، وليس فى اهناسيا[١٧] •

وعلى أية حال ، فان نسب «شيشنق الاول — طبقا للوحة حاربسون» انما هو كالتالى : شيشنق بن نمــرود بن شيشنق بن باتوت بن يننشى بن ماواساتا بن يويو واوا[١٨] •

(٣) نشاة الاسرة الثانية والعشرين :

فى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد — أو بعده بقليل (أى حوالى عام ٩٤٥ ق•م) — انتقل الحكم من الاسرة الحادية والعشرين (١٠٨٧ — ٩٤٥ ق•م) ، الى أسرة ليبيــة متمصرة — كما تشير الى ذلك أســماء أجدادها الابعدين — فضــلا عن أسماء ملوكها — من أمثــال شيشنق وأسر كون وتكلوت وبماى — وقد ميز حكامها الاولون أنفسهم بلقب «رؤساء المشوش» ، التى تختصر عادة الى «رؤساء ال ما»، وان فسرت أحيانا الى «رؤساء الاجانب» ، ومن الواضح أنهم كانوا أقرباء لاولئك الليبيين الذين طردهم مرنبتاح ورعمسيس الثالث ، ومع ذلك ، فانهم لا يعتبرون غزاة جددا استولوا على البلاد عنوة •

ولعل أكثر النظريــات تقبلا أنهم من نســل الاسرة أو المتطوعين — شأنهم فى ذلك شأن الشردان — استقروا بالبلاد ، ومنحت لهم أرضين مشروطة بالتزام الخدمة العسكرية ، وربما كان منهم مدنيون — رعاة أو تجارا أو رقيقا — استقرت قبائلهم على الحواف الزراعية ، وحول الواحات وحصون الحدود ، منذ أخريات أيام رعمسيس الثالث (١١٨٢ — ١١٥١ ق•م) ، ثم مــا لبثوا أن تمصروا — راضين أو مكرهــين — واعتنقوا الديانة المصرية وعبدوا آلهتهم ، فاذا كان ذلك كذلك ، فانهم قد تكاثروا ، وأصبح لهم من الاهمية ما مكنهم من الوصول الى الحكم بأقل احتكاك ممكن ، وقــد فعلوا — ما فعله الهكسوس من قبل — من

17) J. Yoyotte, Egypte Ancienne, Histoire Unverselle, I, Paris, 1965, P. 121.
18) O. Bates, Eastern Libyans, 1914, P. 228.

ناحية انتحال الالقاب الملكية المصرية ، وان احتفظوا بالريشة التى كانت تميز مظهرهم ، ومع ذلك فان عنصرهم الاجنبى انما قد كشف عن نفسه بالاسماء البربرية التى انتحلوها ، مثل «شيشنق وأوسركون وتكلوت»[19]

وعلى أية حال ، فلقد استمرت عهود الحكام ذوى الاصل الليبى أكثر من قرنين ، نسوا فى هذه الفترة أصلهم الغريب تماما ، ولم يذكروا عن أنفسهم ، الا أنهم فراعين مصريون ، فحاربوا باسم مصر خارج حدودها وحاولوا أن يستعيدوا لها بعض سمعتها وهيبتها القديمة[20] — كما فعل شيشنق الاول حين قام بحملته المشهورة على فلسطين ، ووصل فيها الى شرق الاردن شرقا ، والى سهل يزرعيل والجليل شمالا ، وأما فى الجنوب فلقد وصل الى عصيون جابر ، على خليج العقبة ، والى حبرون وبئر سبع وغيرهما من مدن جنوب فلسطين — والى عكا وغزة فى الغرب[21] —

وهكذا كانت عهود هؤلاء الحكام ذوى الاصل الليبى أقرب من بعض نواحيها الى عهود المماليك المتمصرين ، لم يعتبرهم التاريخ أجانب ، بقدر

---

19) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 324-325, Onomastica, I, P. 120.
W. M. F. Petrie, Ancient Egypt, 1923, P. 19.
J. A. Wilson, AJSL, LI, 1935, P. 73.
JEA, 27, P. 41.

(٢٠) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٢٦٢ .

(٢١) أنظر عن السياسة الخارجية للاسرة الثانية والعشرين (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٦٠٧ — ٦٢٣) .

وأنظر عن حملة شيشنق الاول على فلسطين (محمد بيومى مهران : اسرائيل — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٩٥١ — ٩٥٦ ، وكذا
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, P. 329-33.
A. H. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, P. 272-274.
K. A. Kitchen, Op. Cit., P. 294-300.
J. Bright, A History of Israel, 1959, P. 213.
G. E. Wright, BA, 1957, P. 148-149, JBL, 75, 1956, P. 216.
Y. Aharoni, The Land of The Bible, 1966, P. 288-289.
M. Noth, ZDBV, 61, 1938, P. 278-280, PEO, 104, 1972, P. 30.

ما اعتبرهم مغتصبين ، ولم يستطيعوا أن يؤثروا فى الروح المصرية ، بقدر ما تأثروا بها ، ولم يمنع اغتصابهم لعرش البلاد من أن يظهر بينهم حكام مصلحون ، ولم يمنع أصلهم الغريب من أن يخلصوا لمصر واستقلالها ؛ ولم يرض أهل البلاد من المصريين بحكمهم ، بقدر ما قبلوه على مضض ومــرارة[٢٢] .

على أن الصعيد لم يعترف — فى بادىء الامر — بالملك ذى الاصل الليبى ، ثم سلم بالامر الواقع ، وهنا غادر بعض كهنة طيبة مصر كلها ، أنفه من الخضوع للحكام ذوى الاصل الليبى ، واتجهوا الى أطــراف الحدود الجنوبية ، على مقربة من الشلال الرابع ، حيث أسسوا أسرة جديدة تحكم من «نباتــا» ، كما يشير الى ذلك نقش من الكرنك ، وقد استطاعت هذه الاسرة ، فيما بعد ، توحيد مصر والسودان ، وعرفت فى التاريخ باسم الاسرة الخامسة والعشرين[٢٣] .

وعلى أية حال ، ففى أخريات أيام الاسرة الثانية والعشرين تفرقت وحدة البلاد بسبب تنافر الامراء الليبيين ، وانتهى بأن ادعى الملك فيها ثلاث بيوت ، بيتان فى شرق الدلتا ، وبيت ثالث فى غربها ، فأما أول بيوت الدلتا فكان فى «تانيس» ، وأمــا الثانى فكان فى مدينة «ليونتوبوليس» (ايم بحــو المصرية) ، وهى تل المقــدام الحالية المتاخمة لقرية كفــر المقدام ، على مبعدة ٢٠ كيلا شرقى ميت غمر ، بمحافظة الدقهلية ، وقد حكم منه «بدو باستت» (الاسرة الثالثة والعشرين) ، وبيت فى غرب الدلتا ، حيث حكم «تف نخت» (مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين) من «ساو» (سايس فى الاغريقية — صا الحجر الحالية ، على مبعدة ٧ كيلا

---

(٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٦٢ .

23) A. Blackman, JEA, 27, 1941, P. 83 F.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 327.

J. Yoyotte, in Melanges Maspero, 1961, P. 60.

A. Weigall, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1965, P. 194.

J. Leclant, Elments pour une etude de la divination dans L'Egypte Pharaonique, I, Paris, 1968, P. 1-23.

شمال بسيون بمحافظة الغربية) ، هذا فضلا عن الامراء الاقطاعيين فى مصر الوسطى والصعيد الاعلى(٢٤) .

(٤) فى العصر الصـــاوى :

لعل من الافضل هنا ـ وقبل أن نختم هذا الفصل ـ أن نشير الى أنه فى عام ٥٧٠ قبل الميلاد ، انغمس الملك «واح ايب رع» (حفرع فى التوراة ، وابريس عند اليونـــان) (٥٩٥ ـ ٥٨٩ ق.م) ، انغمس فى مغامرة تعسة فى غربى مصر ، ذلك أن الدوريين قد أنشأوا فى عام ٦١٣ قبل الميلاد ، مستعمرة «قـــورينة» على الشـــاطىء الشمالى البعيد فى أفريقيا ، أخذت تهدد استقلال القبائل الليبية ، فضـــلا عن اغتصاب مساحات واسعة من أمـــلاك الاهالى ، الى جـــانب الاضرار بالمصالح المصرية ، بل وربما بتجارة اليونانيين فى أفريقيا عموما .

وهكذا نشـــأ نزاع مرير بين القبـــائل الليبية الممتدة حتى تونس الحالية ، وبين هذه الجماعات الدورية الاغريقية التى استعمرت «برقة» وما حولها ، استعمارا تجاريا تحول الى استعمار سياسى ، أصبحوا به سادة البلد ، واتخذوا من مدينة «قرينة» (Cyrene) عاصمة ، وشيئا فشيئا ازدادت أعداد المهاجرين ، وفى نفس الوقت ازداد ضيق الليبيين بمنافستهم لهم فى أرزاقهم وأرضهم ، فضلا عن تعاليهم عليهم ، ومن ثم فقد لجأ «اديكرات» ـ أحد رؤســاء الليبيين الى الفرعون «ابريس» يلتمس حمايته .

وهكذا وجه الفرعون «واح ايب رع» جيشا الى هذه الناحية ، غير أن هذا الجيش المصرى انما لقى هزيمة منكرة ، حين وقع فى كمين بسبب خيانة بعض ضباطه من اليونانيين ، وكاد أن يبيده يونانيو ليبيا ، ولم يعد منه غير القليل ، الامـــر الذى أدى الى ثورة المواطنين فى مصر ضـــد الفرعون وأعلن من نجوا العصيان ، واتهم الجميع ـ المواطنون والجنود

---

(٢٤) محمد بيومى مهران ـ مصر ـ الجزء الثالث ص ٥٥٨ ، ٥٧٥

المصريون — الفرعون بأنه دبر هـذه الحملة ليتخلص من المصريـين فى الجيش ، حتى يزداد تسلطا ، وأنه قد أسرف فى احتضان الاغريق على حساب المواطنين المصريين ، وكان لكل من الاتهامين نصيب من الصحة •

وانتهت الامـور بقتل الفرعون ابريس عند «مومفيس» (كـوم الحصن — مركز كوم حمادة — بمحافظة البحيرة) ، أو على مقربة من «الطرانة» على الفرع الكانوبى للنيل ، أو كما كانت تسمى قديما «سخت مافكا»[٢٥] •

وانفرد «أحمس الثانى» (٥٧٠ — ٥٢٦ ق•م) بعرش الفراعين ، وقد أثبت أنه رجل سلام ، فعقد حلفا فى الغرب مع «برقة» ، وتزوج من سيدة — وربما أميرة — من هنـاك تدعى «لاديكه» ، كما عمل على تحصين حدوده الغربية ، فأنشـأ حاميات كثيرة على الشـاطىء ، وفى الواحات ، وشجع اقامة الناس فيها ، وبنى المعابد فى سيوه والبحرية والخارجة ، ليجعل من الواحات الحصون الامامية ، اذا جد خطر ، وحدث هجوم على مصر من يونانى ليبيا ، ولئن كان الفرعون قد استطـاع أن يخضع بعض المدن الثائرة فى جزيرة قبرص ، فان هذه غزوته اليتيمة ، ثم عمل بعد ذلك على عقد سلسلة من المعاهدات اتقاء للخطر الفارسى المرتقب ، الذى أفلت منه بالكاد ، حيث وقعت الكارثة فى عام ٥٢٥ ق•م، على أيام خليفته «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ — ٥٢٥ ق•م) — آخر ملوك العصر الصاوى (الاسرة السادسة والعشرين) (٦٦٤ — ٥٢٥ ق•م)[٢٦]

---

(٢٥) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٦٥٦ — ٦٥٨ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨٠ — ٢٨٢ ، وكذا

A.A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 361-362.

S. A. Cook, CAH, III, 1965, P. 401.

W. Keller, The Bible as History, 1967, P. 281-284.

Herodotus,II, 169.

W. J. Wiseman, Op. Cit., P. 94-95.

(٢٦) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٣٠ ، وكذا

Herodotus, I, 177, II, 69-70, 182, III, 39 F.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 362-363.

A. Fakhry, Bahria Oasis, I, Cairo, 1942, P. 1-24, 75.

الباب الرابع

العصر الفينيقى

الفصل الأول

الفينيقيون فى بلاد الشام

(١) الفينيقيون والاصل السامى :

من المعروف أن العلماء يكادون يتفقون على أن الموطن الاصلى للساميين انما هو شبه الجزيرة العربية[1] ، ذلك الخزان البشرى الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف — كأقليم طرد ، وكصحراء فقيرة ، ولكنها ولود — بالموجة تلو الاخرى ، الى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة ، والى وادى النيل — عبر البحر الاحمر أو طريق سيناء — والواقع أن بلاد العرب كانت وما تزال ، فى معظمها ، أرضين صحراوية ، يحيط البحر بأطرافها جميعا — ما عدا القسم الشمالى — فاذا زاد سكانها ، وعجزت عن امدادهم بالغذاء الضرورى ، كان طبيعيا أن يرحل الفائض من السكان الى المناطق الخصبية فى منطقة الهلال الخصيب ومصر[2] .

---

(١) أنظر :

.A Sprenger, Alte Geographie Arabiens, 1878, P. 293.
H. Grimme, Mohammad, Welt Geschichte, Berlin, 1904, P. 6-8.
R. Smith, Kingship Marriage in Early Arabia, London, 1907, P. 178.
L. W. King, History of Sumer and Akkad, London, 1915, P. 119.
J. L. Meyers, in CAH, I, 1923, P. 28.
S. A. Cook, in CAH, I, 1923, P. 192.
E. Wright, Comparative Grammar of Semitic Languages, P. 8.
D. Nielsen, Handbuch, I, 1927, P. 47 F.
A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, P. 14.
J. B. Philly, The Background of Islam, Alexandria, 1947, P. 9 F.
S. Moscati, Histoire et Civilisation des Peuples Semitiques, P. 32-33.

2) J. B. Philhy, Op. Cit., P. 10.

هذا وقد اختلف العلماء فى المكان الذى كان الموطن الاول للساميين من شبه الجزيرة العربية[٣] ، ففريق رآه فى وسط الجزيرة العربية ، ولا سيما نجد[٤] ، وفريق ثان رآه فى العروض ، ولاسيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لهـا ، وفريق ثالث رآه فى الاجـزاء الجنوبية من الجزيرة العربية[٥] ، أى فى اليمن ، التى هى «مهـد العرب» ، منهـا انطلقت الموجات البشرية الى سائر الانحاء ، ثم هى — فى نظر بعض المستشرقين — «مصنع العرب» ، لانها أمدت الجزيرة نفسها بعدد كبير من القبائل قبل الاسلام بأمد طويل ،و كذا فى الاسلام ، ومن اليمن كان «نمرود» ، فضلا عن جميع الساميين[٦] .

وأيا كانت هذه المنطقة من بلاد العرب ، فان الجزيرة العربية ، دونما شك ، هى الموطن الاول للساميين[٧] ، منها انطلقت هجـرات ضخمة ، تدفقت فى موجات متتابعة تشق طريقها الى الاراضى الخصبة ، ويذهب بعض العلماء الى أن الفترة بين الموجة والتى تليها تبلغ زهاء ألف عام[٨] ، ولعل أشهر هذه الموجات : موجة الاراميين ، ثم الكنعانيين — الفينيقيين ، وأما ثالث الموجات فهى الموجة الارامية .

هذا وقد أختلف المؤرخون فى دخول «الكنعانيين — الفينيقيين» الى بلاد الشام ، وفى المواطن التى قدموا منها ، وأما عن تاريخ الدخول ، فان «هيرودوت» (٤٨٤ — ٤٣٠ ق٠م) انما يروى — على لسان علماء

---

3) A. Sprenger, Op. Cit., P. 214.
4) J. Hastings, Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, P. 74.
W. Warrell, A Study of The Races in Ancient Near East, P. 7, 45, 94.
5) J. B. Philby, Op. Cit., P. 9.
6) J. A. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadphia, 1934, P. 126.
(٧) قدم الباحث دراسة مفصلة عن الموضوع : أنظـر (محمد بيومى مهران : الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى — الريـاض ١٩٧٤) .
8) H. Winckler, The History of Babylonia and Assyria, New York, 1907, P. 18-23.

صور — أنهم قدموا الى فلسطين فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ، بل أثبتت الحفريات أن هذه الهجرة الكنعانية — الفينيقية ، أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ذلك لان مدن أريحا وبيسان ومجدو ، انما تحمل أسماء سامية ، وأنها كانت موجودة قبل عام ٣٠٠٠ ق٠م ، كما اثبتت الحفريات التى أجريت فى تل السلطات على أن «أريحا» واحدة من أقـدم مدن العالم ، وقد كشف فيها عن فخار من أقدم فخار العالم ، فضلا عن آثار تنتمى الى آثار الحضارة النطوفية بصورة متصلة حضاريا[٩] ، أضف الى ذلك أن هناك مدنا أخرى قد كشف عنها — وهى مدن كنعانية ترجع الى أوائل الالف الثالثة قبل الميلاد ، وان كان هناك من يرجعها الى حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد[١٠] ٠

وأما عن الموطن الذى قدم منه «الكنعانيون — الفينيقيون» ، فان «هيرودوت» يروى — نقلا عن الفينيقيين أنفسهم — أنهم مهاجرون من «أرتيريا» ، سواء قصد بهذه العبارة الجنوب العربى وساحل الحبشة ، أم من منطقة الخليج فى الشمال الشرقى للهضبة العربية[١١] ، وأنهم قد وصلوا أولا الى بلاد العرب الصخرية فى شمال الحجاز ، ومنها دخلوا اقليم «النقب» ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل الى لبنان وسورية ، وهناك حقيقة تاريخية قيمـة نقف عليها من ملاحم أوجـاريت (رأس الشمرا) ، اذ يفهم منها أن الكنعانيين — الفينيقيين انما قد عاشوا ردحا من الدهر فى صحراء النقب جنوبى فلسطين ، وأنهم الذين قاموا بتخطيط أهم المدن فى تلك المنطقة مثل بئر سبة ، وأشدود[١٢] ٠

---

(٩) أنظر :
K. M. Kenyon, Archacology in The Holy Land, London, 1970, P. 31-43.
K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, P. 62-82, 1953, P. 18-95, 1954, P. 45-63, 1955, P. 1‚8-117, 1956, P. 67-82 and in SA, 190, 1954, P. 76-82.

(١٠) محمد السيد غلاب : الهجـرات البشرية الكبرى — مجلة كلية اللغة العربية — العدد السادس — الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٥ ٠

(١١) ثروت الاسـيوطى — نظـام الاسرة بين الاقتصـاد والدين — الجماعات البدائية — القـاهرة ص ١٢٥ ٠

(١٢) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم — الاسكندرية ١٩٧٠ ص ٥٧ — ٥٨ ، وانظر : محمد بيومى مهران : بلاد الشام — الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٧٥ — ٨١ ٠

ويشير الجغرافى الرومانى «سترابو» (٦٦ — ٢١ ق٠م) فى الكتاب السادس عشر من مؤلفه Geographica [١٣] الى أن مقابر البحرين فى الخليج العربى ، انما تتشابه مع مقابر الفينيقيين ، وأن سكان جزر البحرين انما يذكرون أن أسماء جزائرهم انما هى أسماء فينيقية ، وأن فى مدنهم هياكل تشبه الهياكل الفينيقية[١٤] ، هذا فضلا عن أن «جيمس تيودور بنت» قد أجرى فى عام ١٨٨٩م تنقيبا فى مقابر البحرين ، وبعث بشىء منها الى المتحف البريطانى ، فظهر أنها من مقابر الفينيقيين قبل هجرتهم الى سواحل سورية[١٥] ، هذا فضلا عن أن «جيمس تيودور بنت» (١٨٥٣ — ١٨٩٧ ق٠م) انما كان متأثرا برأى «هيرودوت» القائل بأن الفينيقيين انمـا كانوا يدعون — على أيامه — بأن أسـلافهم من البحرين[١٦] .

هذا وقد عثر «فلبى» على مثل هذه المقابر فى الخرج والافلاج من أعمال نجد ، وهو يرى أن الفينيقيين ربما جاءوا من هاتين المنطقتين ، ثم هاجروا منها الى منطقة الخليج العربى ، كما أن هناك أسماء فى شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التى أنشأها الفينيقيون على ساحل لبنان ، مثل «صور» على ساحل عمان ، و «جبيل» على سـاحل الاحساء ، و«أرواد» ، وهو الاسم القديم لجزيرة «المحرق» ، هذا فضلا عن أن هناك من يرى أن الفينيقيين انما قد انطلقـوا من البحرين الى البصرة سالكين طريق الهلال الخصيب الى الساحل الشامى (اللبنانى) ، حيث بنوا مدنهم هناك[١٧] .

---

(١٣) أنظـر :

Strabo : The Geography of Strabo, Translated by, Hamilton, London, 1912.

The Geography of Strabo, Translated by, H. L. Jones, London, 1960.

14) Strabo, 16-2.

15) A. Grohmann, Op. Cit., P. 251.

16) G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 28.

(١٧) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام — الجـزء الاول — بيروت ١٩٦٨ ص ٥٢٩ ، عـز الدين اسماعيل : تاريخ فلسطـين القديم ص ٢٧ ، وكذا

J. B. Philhy, Shaba's Daughters, London, 1939, P. 373.

ومن ثم فان «أمين الريحانى» انما يذهب الى أن المؤرخين والاثاريين انما يجمعون على أن الفينيقيين ساميون ، كالعرب تماما ، بل انهم عرب الاصل ، نزحــوا من الشواطىء العربية الشرقية الى سواحل البحــر المتوسط فى قديم الزمان[١٨] ، غير أن هناك من يعترض على وجه النظر هذا ، اعتمادا على أن شواطىء الخليج العربى البابلية لا تصلح أمواهها المتربية الملاحية بالنسبة الى ندرة الاخشاب هناك ، وهى الناحية التى برز فيها الفينيقيون وبزوا غيرهم ، على أننا يمكننا الرد على ذلك ، بأن الاحوال المناخية فى تلك العصور السحيقة ، ربمــا تختلف عنها الان ، كما أن سكان الشواطىء بطبيعتهم ، فضلا عن طبيعة البيئة نفسها ، انما هم أقدر على الملاحة من غيرهم ، هذا فضلا عن أن تفوق الفينيقيين فى الملاحة انما ظهر فى مواطنهم الجديدة على شواطىء لبنان ، وليس قبل هجرتهم الى فينيقيا •

وأيا ما كان الامر ، فان التعبير التوراتى «أرض كنعان» انما يغطى كل فلسطين فى غرب الاردن[١٩] ، وأن الكنعانيين ساميون ، وليســوا حاميين ، كما أرادت التوراة أن تجعلهم[٢٠] ، وأنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية — سواء من شرقها أو من شمالها أو حتى من جنوبها — وسكنوا فلسطين ، وأقاموا بها حضارة راقية ، وأن جــزءا من هؤلاء الكنعانيين انما قد انتقلوا الى الساحل السورى للبحر المتوسط ، حيث عرفوا هناك باسم «الفينيقيين» ، وهم بهذا انمــا يمثلون — على هذه الصورة — امتدادا كنعانيا على ساحل لبنان •

هذا وقد اختلف المؤرخون فى أصل كلمة «كنعان» فذهب فريق الى أن الكلمة سامية ، وأنهم سموا بالكنعانيين نســبة الى جــدهم الأول

---

(١٨) أمين الريحانى : قلب لبنان — بيروت ١٩٥٨ ص ٤٢٣ •
(١٩) عدد ٣٤/٢ — ١٢ ، وكذا
M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 171.
(٢٠) تكوين ١٠/٦ •

كنعان ، على عادة العرب فى تسمية قبائلهم ، وأن بنى كنعان انما كانوا يقيمون فى أرضهم السهلة على ساحل الخليج العربى ،و قد نسبت اليهم وسميت «أرض كنعــان» ، وعند نزوحهم حملــوا معهم اسمهم واسم بلادهم الذى أعطوه لوطنهم الجديد[٢١] ، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن كلمة كنعان مشتقة من أصل سامى (خنع — قنع — كنع) اشارة الى الصفة ، ومنها مجــازا «الارض الخفيضة» ، على عكــس مرتفعات لبنان ، فســموا هؤلاء الســاميون بالكنعانيين ، أى ســكان المنخفض ، لانفرادهم بسكنى هذه السهول الساحلية التى تحف بشرق البحر المتوسط .

على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن أصل كلمة «كنعان» انما هو مشتق من كلمة حورية ، هى «كناجى» ، وتعنى الصبــاغة القرمزية التى اشتهروا بها ، عندما اتصل الحوريون بهذه البلاد فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد ، ومنها اشتقت الكلمة الاكدية «كناخى» أو «كيناخى» ، وكلها مسميات تدل على الحمرة الارجوانية .

ثم جاء الاغريق ، واتصلوا بهذه الشعوب السامية واتجروا معها ، واحتكوا بهذه المجتمعات المدنية المتناثرة على الساحل ، فأطلقوا عليها أسم «فينكس»[٢٢] ، وهكذا ورد اسم «الفينيقيين» Phoivikes كشعب ، واسم «فينيقيا» Phoivikn كبلاد — أو منطقة — فى كتابات اليونان منذ أيام «هوميروس» (حوالى القرن ٩ ق.م) أو قبل ذلك ، حيث استعمل لفظ «فينكس» Phoiviex كدلاله جنسية ، وان كان فى الاصل يعنى اللون الاحمر القاتم أو الارجوان أو اللون البنى ، الذى وصف به النخيل أو الجماعات الكنعانية أصحاب البشرة ذات اللون البنى ، على أن هنــاك من يرجح أن اليونــان انما استعملوا كلمــة «فنخو»[٢٣] المصرية — والتى استعملوها المصريون منذ عهــد الدولة

---

(٢١) عز الدين اسماعيل : المرجع السابق ص ٣٩ .
(٢٢) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٤٧/٣ .
23) A. Erman and H. Grapow, Woerterbuch der Agyptiseh Sprache, BI, P. 577.

القديمة للدلالة على سكان بلاد الشام أو بلاد سورية بمعناها الواسع — وذلك بعد تحريفها الى Phoivikes للدلالة على فينيقيا ، والى Phoivikes للدلالة على الفينيقيين — كما استعمل الرومـــان لفظ «بونى» Poeni للدلالة على القرطاجيين ، وهو لفظ محرف لاتينيا من اللفظ اليونانى ، وان فرقوا بينهم وبين الفينيقيين فى الشرق بأن أطلقوا على هؤلاء اسم «فوينيقى» Poenices وان اعترفوا بأنهم ينتمون جميعا الى جنس واحد[٢٤] •

وأيا ما كان الامر ، فقد اشتقت من كلمة «فينكس» كلمة «فينيقيا»، وبالتالى أصبحت ترادف كلمة «كنعان» ، وأن الكلمتين أصبحتا تعنيان ، على الأغلب ، شيئا واحدا ، وهكذا اتفقت التسمية السامية القديمة ، والتسمية اليونانية القديمة ، فى أن تربط بين هذه الشعوب وبين اللون الاحمر ، والواقع أن هذه المدن الساحلية على شواطىء شرق البحـــر المتوسط تخصصت منذ عرفت فى صناعة نـــوع من الصبغة الارجوانية كانت تستخرج من حيوانات بحرية رخوة تكثر قـــرب شواطئها ، ومن هنا جاءت نسبتها الى اللون الاحمر ، وهكـــذا كانت تسميتهم السامية بالكنعانيين ، والاغريقية بالفينيقيين ، وكلاهما علم على شعب ســـامى واحد ينزل بسهول فلسطين الساحلية ، فضلا عن لبنان[٢٥] •

(٢) دويلات المدن الفينيقية :

تعد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم ، وهى تشغل من الناحية الجغرافية شريطا ساحليا ضيقا ، كان يمتد من جبل الاقرع (كاسيوس) شمالا ، الى جبل الكرمل جنوبا ، ومن «أرواد» (وتسمى

---

(٢٤) محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية — بيروت ١٩٨١ ص ١٣ — ١٤ ، وكذا
D. Harden, The Phoenicians, New York, 1962, P. 22.
(٢٥) محمد بيومى مهران : اسرائيل — التاريخ — الكتاب الثانى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٥١٤ — ٥٢٢ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ٨٥ — ٨٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٨ ، وكذا
M. F. Unger, Op. Cit., P. 170-171.

خرائبها اليوم طرطوس شمال عمريت) الى عكا (عكو ، بمعنى الرمال الحارة) ، ولا يزيد طوله عن مائتى ميل ، كما لا يزيد عرضه على ٣٥ميلا، وهو غنى بالخلجان ، وبه عدد من الثغور ، وترتفع الى جانبه من ناحية الشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من أشجار الارز والصنوبر والسرو •

وتظهر بالقرب من الشاطىء بعض الجزر التى كان لها كذلك شأن فى هذه البقعة ، ذلك لانها انما كانت عامرة بالقرى والمدائن — شأنها فى ذلك شأن الساحل نفسه — بل ان أهميتها انما تفوق الساحل فى أحايين كثـيرة[٣٦] •

وعلى أية حال ، فلقد كان الفينيقيون محصورين فى شريط من الارض على شىء كثير من الضيق ، ذلك لان جبال لبنان لا تبعد عن البحر بأكثر من ٥٠ ميلا ، بل ان الجبل انما يقترب من البحر فى بعض المواضع فيصير على بعد فيما بين ١٢، ١٥ ميلا ، بل انه فى بعض المواضع انما يلاصق البحر ، هذا فضلا عن أن هذا الشريط الضيق من الارض مقسم طولا الى عدة أقسام منفصلة بعضها عن بعض بامتدادات جبلية ناشئة من جبل لبنان ، وواصلة الى ساحل البحر ، وهذا الامتداد الفاصل حاجز طبيعى تنشأ عنه أقاليم مختلفة ، كما أن أكثر هذه الامتدادات الناشئة عن الجبل تنتهى عند البحر بانحناء عمودى ، لا يدع مكانا لطريق يصل بين جانبيها ، وهكذا كان الحال قديما ، وعلى أكثر تقدير ، فقد وجـد طريق ضيق منحوت فى جنب النتوء ، ولعل خير الامثلة على ذلك ، رأس الكلب ، شمال بيروت ، وقد وجد قرب قمته آثـار طريق ضيق ، وفى أسفله الطريق الذى سلكه الفاتحون المصريون والاشوريون والروم ، وتركوا فيه نقوشا ، تسجل مرورهم فيه[٣٧] •

---

(٣٦) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم — الجزء الثالث — سورية — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٤٨ •

(٣٧) ج • كونتنو : الحضارة الفينيقية — ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، ومراجعة طه حسين ، القاهرة — ص ٢٨ — ٢٩ •

وانطلاقا من كل هذا ، وتخريجا عليه ، لم يستطع الفينيقيون — بل لم تستطع ببلاد الشام جميعا — أن تشكل وحدة سياسية واحدة — كمصر مثلا — وانما وحدات صغيرة تعيش فى مدن ذات جدران محصنة وأسوار عالية ، وأبراج كثيرة ، يلجـأ اليها السكان وقت الخطـر ، ويحتمون بأسوارها ، ويتخذونها وقت السلم أسواقا لتجارتهم ، غير أن قيام هذه المدن المحصنة — وان كان يمثل أفضل وسيلة التجأ اليها الفينيقيون لصد غارات الدول المجاورة ، فضلا عن غارات البدو المحاورين — انما أدى الى تقسيم البلاد الى مدن صغيرة يحارب بعضها البعض الاخر ، ولا يسود بينها أى نوع من الاستقرار ، وبالتالى جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة ، وخاصة الكبرى منها •

هذا وكان الفينيقيون قوما تجارا ، يهتمون بالنواحى الاقتصـادية أكثر من اهتمامهم بالنواحى السياسية ومن ثم فقد كانوا دائما ينشدون الامان والاستقرار السياسى ، وذلك لتأمين أموالهم ، وتسويق تجارتهم، والنجاح فى المجالات الاقتصادية بصفة عامة[٢٨] •

وقد أدت هذه الاوضاع مجتمعة الى ظهور ما عرف فى التاريخ باسم «دويلات المدن» ، حيث كـان لكل مدينة حكومتها الخاصة بهـا ، على رأسها حاكم بالوراثة ، وقد ينتقل الملك منه الى أسرة أخرى ، أو تنتزع منه الامارة وتسلب ، نتيجة ثورة من عناصر تصبح لها الغلبة ، ولم يكن سلطان الملك — أو الامـير أو الحاكم — استبداديا مطلقـا ، ذلك لان التجارة تتطلب مغامرة ، وألوانا من النشاط ، لا يتفق وهذا اللون من الحكم ، هذا وكانت تقوم — الى جانب الحاكم — هيئة من المشرعين ، كما كانت تعقد أحيانا مؤتمرات فى المدن الكبرى ، للتداول فى الشئون

---

(٢٨) فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين — ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق — بيروت ١٩٥٨ ص ٨٨ ، حسن محمود : حضارة مصر والشرق القديم ص ٣٨٩ ، محمـد بيومى مهـران : تـاريخ مصر الفرعونية والشرق الادنى القديم — القاهرة ١٩٨٥ (وزارة التربية والتعليم) ص ١٨٣ •

العامة المشتركة ، وكانت طرابلس مقر الاجتماع العـــام للمدن الثلاثة الرئيسية (صيدا وصور وجبيل) •

ولا ريب فى أنه كـــان للدين نصيب فى الادارة ، فهـــو يحدد سلطة الحاكم ، وللكهنة نفوذ يلى نفوذ الحاكم ، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة ، وان كنا لا ندرى على وجه اليقين ، أكان بيت المال يعتمد على المكوس ، أو على الاحتكار ، أو على الامرين معا(٢٩) •

وهكذا انتظم الفينيقيون فى جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك ، ويستقرون فى وحول مدينة محصنة ، تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها ، وكانت هذه المدن هى العواصم التى يلجأ اليها أهل المناطق الزراعية ، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر •

على أن النزاع كثيرا ما كان يحدث بين هذه المدن ، وكان أكثرها تفوقا تلك التى كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية ، هذا فضلا عن أن بعض تلك المدن انمـــا كان يشغل موقعين ،الواحد : على الســـاحل ، والاخر : يمثل جزرا صغيرة فى مواجهته ، يلجأ اليها القوم عند اشتداد الخطر ، وقد أدى هذا الوضع الى أن يهيأ لكل مدينة مرفأين ، أحدهما شمالى ، والاخر جنوبى ، فتلجــأ السفن لهذا المرفـــأ أو ذاك بحسب الفصول ، واتجاه الريح ، ومثال ذلك صيدا وصور ، وكانت المســـافة بينهما ملاحة يوم واحد(٣٠) •

وبدهى أن المدينة المنيعة انما كانت أقدر من غيرهـــا على البقـــاء والازدهار ، كما أن هذه المدائن الفينيقية المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة، لم تترك الامر هكذا ، وانما حاولت جاهدة ايجاد نوع من الترابط ، يؤلف بينها ، ويجمع كلمتها ، وخاصة فى وقت الأخطار الخارجية ، ومن ثم

---

(٢٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٠ ـ ٥١ •
(٣٠) كونتنو : المرجع السابق ص ٢٩ ، محمد ابو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الادنى القديم ص ١٥٩ •

فقد عمدت الى انشاء تحالف قوى بين عدة مدن ــ بزعامة أوفرها قوة ــ تحالف كان دائما يمليه الخطر المشترك ، وأحيانا المصالح المشتركة •

وكانت مدينة «أوجاريت» ــ شمال مدينة اللاذقية بحوالى ١٥ كيلا ــ فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، و«جبيل» فى القــرن الرابع عشر قبل الميلاد ، و«صيدا» بين القرنين الثانى عشر والحــادى عشر قبل الميلاد ، و«صور» بعد هذا القرن الاخــير ، ثم «طرابلس» فى القرن الخامس قبــل الميلاد ، تتزعم هذه الاحــلاف[31] ، وأمــا أهم المدن الفينيقية ، من الناحية السياسية والدينية ، فكانت «جبيل» ــ على مبعدة ٤٠ كيلا شمالى بيروت ــ ثم «صيدا» ــ على مبعدة ٤٥ كيلا جنوبى بيروت ــ وقد لقبت بالمدينة الام فى كنعان ، ثم «صور» ، ثم «أوجاريت» وكانت مع انضمامها فى بعض الاحايين الى «بيروت» ــ (وهى بئرونا فى رسائل العمارنة ، بمعنى الابار) ــ تعيش بسبب بعدهــا عيشه أكثر استقلالا من مدن فينيقيا الوسطى[32] ، ولعل أهم المدن الفينيقية فى موضوعنا ، انما هى مدينة «صور» ــ المدينة الام لقرطاج ــ •

(٣) مدينة صــــور :

تقع «صور» (أى الصخرة) ، على مبعدة ٤٠ كيلا جنوب صيدا ، ٩٥ كيلا جنوب بيروت ، وتعتبر أعظم المدن الفينيقية جميعا ، وطبقــا لرواية «هيرودوت» (عن كهنة ملقارت) ، فلقد أنشئت صور قبل قدوم هيرودوت اليها (حوالى عــام ٤٥٠ ق•م) بألفين وثلاثمائة سنة ، يقول هيرودوت : أبحرت الى صور فى فينيقيا ، ذلك لأنى سمعت بوجود معبد مقدس لهيراكليس[33] هناك ، ولاحظت أن هــذا المعبد قد زينته نصب كثيرة ، ومن بينها عمودان ، أحدهما من الذهب المصقول ،و الاخر من

---

(٣١) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٩٢ •
(٣٢) كونتنو : المرجع السابق ص ٣٣ •
(٣٣) هرقل هنا فى فينيقيا ، اما أنه اله الشمس عند الفينيقيين ، وهو «بعل» ، أو «ملقارت» (ملكارت = ملك المدينة) (أحمد بدوى : فى هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٤٠) •

حجر الزمرد ، وحين سأل هيرودوت الكهنة عن تاريخ بناء المعبد ، قيل له «ان هذا المعبد قد بنى فى نفس الوقت الذى أسست فيه صور ، وأنه قد مر على سكناهم بالمدينة ألفان وثلاثمائة عام[٣٤] ، ومن ثم تكون صور قد ظهرت الى الوجـود فى حوالى عـام ٢٧٥٠ ق٠م ، ويذهب الدكتور أحمد بدوى الى أن هـذا رأى يؤيده فريق من المؤرخين ، ويخالف عنه آخرون : يرون أن نشأة المدينة (صور) لا يمكن أن يجاوز تاريخها أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد[٣٥] ٠

وأيا ما كا الامر ، فلقد بنيت «صور» فى الاصل على جزيرة تبعد عدة أميال من البر ، وقد كانت ــ فيمـا يرى سترابو[٣٦] ــ مبنية بنفس الشكل الذى بنيت به «أرواد» ، هذا وكانت الجزيرة متصـلة بالبر بسد طوله نصف ميل ، بناه الاسكندر المقدونى (٣٥٦ ــ ٣٢٣ ق٠م) أثناء حصاره لها فى عـام ٣٣٢ ق٠م ، والذى دام سبعة أشـهر من البـر والبحـر[٣٧] ٠

هذا وقد بدأت صـور تاريخها كحصن ، غـير أن ميناءها الآمن ، وسلامتها من الغزو ، سرعان ما جعلها حاضرة فينيقيا كلها ، ومأوى لخليط من التجار والعبيد قدموا اليها من جميع بلاد البحر المتوسط[٣٨] ، وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد حتى أصبحت صور مدينة غنية على أيام ملكها «حيرام» (٩٨٠ ــ ٩٣٦ ق٠م) ، الذى عاصر سليمان عليه السـلام (٩٦٠ ــ ٩٢٢ ق٠م)[٣٩] ، وكان بينهما تعـاون فى المجالات

---

(٣٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ــ ترجمة محمد صقر خفاجة ، وشرح أحمد بدوى ــ القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٠ ــ ١٤١ ٠

(٣٥) نفس المرجع السابق ص ١٤٠ ، وكذا

Movers, Die Phoenicier, II, P. 134 F, 167 F.

36) Strabio, XVI, 2, 23.

(٣٧) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٥٤ ، وكذا

Arrian, I, 18-24.

Diodorus, XVII, 41-46.

(٣٨) ول ديورانت : قصة الحضارة ــ الجزء الثانى ص ٣١٤ ٠

(٣٩) أنظر عن عصر سليمان والاراء التى دارت حولـه : (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٨٤٥/٢) ٠

الاقتصادية والمعمارية وغيرها[٤٠] ، وفى أيام «زكريا»[٤١] (حوالى عام ٥٢٠ ق٠م) كانت الفضـــة التى تجمعت فى صور كأنها التراب ، وكان الذهب كأنه وحل الطرقات[٤٢] ، ويقول عنها «سترابو» «ان بيوتها من طبقات كثيرة ، بل انها أكثر طبقات من بيوت رومـــا»[٤٣] ، غير أن هذا الرخاء انما كان قائما فى ذلك العصر ــ وفى جميع العصور ــ على التجارة والغنى ، وليس على الاراضى والفتح[٤٤] ٠

---

(٤٠) عن التعاون الاقتصادى بين سليمان عليه السلام وملك صـــور حيرام : انظر (ملوك أول ٥/٦ ــ ١٢ ، ٩/١٠ــ١٤ ، ٢٧ ، ١٠/١١ــ١٢ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٧٥٧/٢ ــ ٧٥٨ ، ٧٨٠ ــ ٧٨٢ ، ٧٩١ ، ج٠ كونتنو : المرجع السابق ص ٧١ ــ ٧٤ ، وكذا

H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, P. 433.

A. Lods, Israel From its Beginnings to The Middle of The Eighth Century, London, 1962, P. 370).

وعن التعاون المعمارى : أنظر (ملوك أول ٥/٦ ــ ١١ ، ٦/١ــ٣٨ ، ٧/٢ ، ١٠/١٦ ــ ٢٠ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٨٣٩/٢ــ٨٥٠ ، عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ٦٨ ــ ٧٠ ، وكذا

J. L. Myres, King Solomon's Temple and Other Buldings and Works of Art, PEQ, 80, 1948, P. 14 F.

O. Eissfeldt, CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 598-598.

وفى عهد «أخاب» (٨٦٩ ــ ٨٥٠ ق٠م) ملك اسرائيل ، الذى تزوج من «ايزابيل» ابنـــة «ايثبعل» ملك صــــور ، نقلت هذه المـــرأة القوية الشخصية كل نظم الحكم الصورى الى اسرائيل ، فضلا عن احـــلال آلهة الفينيقيين محل عبادة «يهوه» رب اسرائيل ، حتى ان الملك نفسه «عبد البعل وسجد له» وأقام له معبدا فى السامرة (ملوك أول ٢٣/١٣ ، ١٦/٣٠ ــ ٤٠ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩١٠/٢ ــ ٩١٣ ، ج٠ كونتنـــو : المرجع السابق ص ٧٤ ، وكذا

M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 242

Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1969, P. 25)

(٤١) المقصود بزكريا هنا صاحب سفر زكريا فى العهد القديم ، وقد عاش فى أخريات القرن السادس ، وأوائل القـــرن الخامس قبل الميلاد ، وليس زكريا النبى والد يحيى عليهما السلام ، والذى تحدث عنه القرآن الكريم (سورة آل عمـــران : آية ٣٣ ــ ٥٩ ، مريم : آية ٢ــ١٥) واللذين عصر المسيح عليه السلام (محمد بيومى مهران : النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل ص ٥٩) ٠

(٤٢) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣١٤ ٠

43) Strabio, XV, 2, 23.

(٤٤) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٩٤ ٠

وعلى أية حال ، فلقد تعرضت «صــور» كثيرا لغــزو الاشوريين والبابليين ، وكانوا يمثلون القوة الكبرى والشرق الادنى القديم ، ومن ثم فقد اضطرت صور فى عــام ٨٧٦ ق٠م ، الى أن تقدم — مع صيدا وجبيل — خضوعها وجزيتها للملك الاشورى «ناصر بال الثانى» (٨٨٣ — ٨٥٩ ق٠م)(٤٥) ، وفى عام ٨٥٣ ق٠م شاركت صــور فى حلف ضد «شلمنصر الثــالث» (٨٥٩ — ٨٢٤ ق٠م) ، حيث حدثت بين الفريقين موقعة «قرقر» المشهورة ، ولكن الملك الاشورى استطاع فى عــام ٨٤٢ ق٠م ، ارغام المدن الفينيقية — وخــاصة صور وصيدا — على دفــع الجزية(٤٦) ، ثم استمرت صور فى دفع الجزية للاشوريين فى عهد الملك «أدد نيرارى الثالث» الذى قدم الى فينيقيا مرتين فى عامى ٨٤٠ ق٠م ، ٨٣٥ ق٠م ، وفى عهد «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ — ٧٢٧ ق٠م) ٠

وجاء «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ — ٧٧٢ ق٠م) فاجتــاح فينيقيا ومدنها ، وكانت صيدا وعكا وصور البرية ترغب فى تحــرير نفسها من السيطــرة المالية لمدينة صــور التى فى الجزيرة ، فاعترفت بالغــازى الاشورى وسيادته ، وأعطته اســطولا يتكون من ستين سفينة ، يعمل فيها نحو ثمانمائة مجدف فينيقى ، وقد غرق أسطول «شلمنصر الخامس» فى معركة مع سكان الجزيرة ، غير أن عددا كافيا من جنوده بقى ليقوم بمحاصرة الجزيرة من الساحل ، وكانت الابار داخل المدينة القائمة فى الجزيرة كافية لحاجات السكان ، وأخيرا انتهى الحصار الذى دام خمس سنوات فى عام ٧٢٢ ق٠م ، بمعاهدة تحفظ لصور كرامتها(٤٧) ٠

---

(٤٥) فيلب حتى : لبنان فى التاريخ ص ١٧٤ يوسف مزهر : تاريخ لبنان العام ٤٦/١ ، وكذا

D. Barmaki, Phoenenicia and The Phoenicians, Beirut, 1961, P. 28.

F. C. Eishen, A Study in Oriental History, New York, 1907, P. 43.

46) A. Lods, Op. Cit., P. 377.

(٤٧) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٥٣ ، نجيب ميخــائيل : المرجع السابق ص ١٢٦ — ١٢٧ ، وكذا

Josephus, Antiquities, Lx, 14, 2.

وفى عهد «سرجون الثانى» أعلنت صور وعسقلان العصيان ، غير أنه استطاع اعادة فتح المدن الفينيقية والسورية فى عام ٧٠٠ ق٠م ، وفى عهد «أشور بانيبال» (٦٦٨ — ٦٢٦ ق٠م) حوصرت صور ، فأقام أهلها الحصون الدفاعية على الارض الرئيسية ، ووضعت المتاريس فى كل الطرق — برا وبحرا — واضطر أهلها المحاصرون أن يشربوا من ماء البحر ، وان اضطرت أيضا — آخر الامر — أن تستسلم ، وأن يسلم ملكها ، فى صورة تدعو الى الشجن ، ابنته وبنات أخيه الى الملك المنتصر ، كزوجات تحمل كل منهن بائنتها الضخمة ، كما سلم ولده «ياحى ملك» ، وكان هذا أكثر مما يطمع فيه «أشور بانيبال» فرد الابن ، واكتفى بالنساء اللواتى ضمهن الى حريمه ، واستولى الاشوريون على خيرات صور ، وعلى أسطولها ، الذى استخدموه فى اخضاع ملك أرواد(٤٨) •

وفى عهد الملك الكلدانى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ — ٥٦٢ ق٠م) حوصرت صور ، ولكنها استطاعت أن تصمد قرابة ثلاثة عشر عاما ، تحطمت مقاومتها بعدها ، واضطر ملكها «اثيبعل الثالث» الى الاستسلام وعنئذ دخلتها قوات الكلدانيين ودمرت مبانيها وسوتها بالارض — كما فعلت بالقدس الشريف — ومنذ ذلك الحين (عام ٥٧٤ ق٠م) تخلت صور عن مكانتها ، خاصة وأن الفرعون «أحمس الثانى» (٥٧٠ — ٥٢٦ ق٠م) كان قد انتقص من سيادتها ، بانتزاع قبرص ، وان ظلت أسرة صورية تجلس على عرش «سلاميس» حتى خلعت عنه على يد «ايفاجوراس» ، وعلى أية حال ، فلقد انتهت غزوة «نبوخذ نصر» بضياع استقلال صور وصيدا ، وان استطاعت صيدا أن تحل محل صور فى زعامة المدن الفينيقية(٤٩) •

---

(٤٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٢٩ — ١٣١ •
(٤٩) يوسف مزهر : المرجع السابق ص ٥٠ — ٥٢ ، وكذا
D. Harden, Op. Cit., P. 54.
D. Barmaki, Op. Cit., P. 30.
Josephus, Antiquities, X, 11, 1.

وظلت صـور تحاول ـ ما استطاعت الى ذلك من سـبيل ـ على استقلالها ، حتى جاء الاسكندر الاكبر الى فينيقيا ـ بعد معركة ايسوس فى أكتوبر ٣٣٣ ق٠م ، وانتصاره على الملك الفارسى دارا الثالث (٣٣٦ ـ ٣٣٠ ق٠م) ـ فاستسلمت له المدن الفينيقية ، ماعدا صـور التى حملت وحدها لواء المعارضة ، وتحدته فى عناد ، فأحكم حولها الحصار قرابة سبعة أشهر عاونه فيه أهل صيدا ، فضلا عن الاشتراك مع المدن الفينيقية الشمالية فى تزويده بثمانين سفينة لتطويق صور من البحر ، وهكذا خاب أمل صور فى المدن الفينيقية ، كما خاب أملها كذلك فى وليدتها البعيدة فى الشمال الافريقى «قرطـاج» ، حيث بعثت اليها بشيوخها ونسائها وأطفالها ، مما اضطرها آخر الامر الى الاستسلام للغـازى المقدونى فى يولية عام ٣٣٢ ق٠م ، حيث لقيت من المقدونيين الامرين فقتل منها قرابة ثمانية آلاف من المحاربين ، وبيع الكثيرون من الرجال والنساء والاطفال فى أسواق النخاسية[٥٠] .

(٥٠) أسد رستم : تاريخ اليونـان ـ بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٥٤ ، عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى ـ بيروت ١٩٧٠ ص ٣٧ ـ ٣٨ ، يوسف مزهر : المرجع السابق ص ١١١ ، وكذا

Joesphus, Antiquities, XL, 8, 3.
D. Barmaki, Op. Cit., P. 33.
F. C. Eishen, Op. Cit., P. 69.
W. W. Tarn, CAH, VI, 1927, P. 366-369.
Diodarus, XVII,

الفصل الثانى

الفينيقيون ودورهم فى حوض البحر المتوسط

(١) الفينيقيون ودورهم فى التجارة البحرية :

لا ريب فى أن الفينيقيين قد تأثروا الى أبعد الحدود بالبيئـــة التى عاشوا فيها ، واستجابوا لها استجابة كاملة ، فشكلت تجارتهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، على أن أبرز النواحى التى ظهرت فيها آثار البيئة فى الحياة الفينيقية هى النشاط البحرى ، فقد كانت جبال لبنان التى تقــع خلف الوطن الفينيقى تعرقل صلة الســهول الساحلية بالاقاليم الداخلية ، وتجبر السكان على أن يلتمسوا لانفسهم مخرجا آخر ، وذلك بأن يتجهوا الى البحر ، هذا فضلا عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على اعالة عدد من السكان يتزايد عددهم عاما بعد عام ، ولم تكد الزراعة بقــادرة على اطعام آلاف الافــواه التى تعيش فى المدن الساحلية •

وانطلاقا من كل هذا ، فقد كان على الفينيقيين أن يلتمسوا لهم سبلا أخرى ، أو أن ينطلقوا الى ميدان التجارة ، وأن يتصلوا بالامم الكبرى من وراء البحر ، هذا فضلا عن أن سفوح جبال لبنان انما تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء السفن ، وهكذا فاذا اقترنت الرغبة فى المخاطرة ، والبحث عن لقمة العيش ، بتوفر المواد الصالحة ، والمواد الخام اللازمة ، لم يكن شيئا غريبا أن يستجيب هؤلاء الساميون القادمون من شــبه الجزيرة العربية لنداء البيئة ، ويتركون حياة البداوة التى ألفوهــا ، ويقبلون على البحر فيركبون متنه •

هذا وقد بدأ القوم برحلات بحرية قصيرة لصيد الاسماك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال ، ثم بيع هذه الاشياء وغيرهــا من المنتجات

المحلية الاخرى ، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد ، حينما ضغط الاراميون عليهم فى وسط سورية ، وأحاط بهم الاسرائيليون والفلسطينيون من الجنوب ، ومن ثم فلم يجدوا مفرا من أن يتجهوا الى البحر بكليتهم ، فقد كان هو المخرج الوحيد[1] •

وقد أدى هذا الوضع الجديد الى انشاء محطات ومراكز مستقرة فى المناطق التى تتجه اليها سفنهم لتكون محطات استقرار ، أو على الاقل ، محطات يستريحون فيها أياما معدودات ، فى أول الامر ، على الاقل ، وقد أدى ذلك الى تتابع هجراتهم بالتدريج ، وعلى مرات معدودات ، تحقيق هذا النشاط التجارى فى هذه الاسواق والمناطق الجديدة فى غربى البحر المتوسط[2] •

هذا وكانت السفن الفينيقية بسيطة أول الامر ، لا تقوى على أن توغل فى أمواه البحر ، كما أنها لا تستطيع أن تحمل قدرا كبيرا من السلع وبمرور الايام نجح الفينيقيون فى التوصل الى صناعة السفن الكبيرة التى تستطيع أن تمخر عباب البحر المتوسط ، الامـــر الذى قلب فن الملاحة رأسا على عقب ، فاشتدت جسارة الفينيقيين على السيطرة على البحر وركوبه ، وتضاعف نشاطهم ، كما تضاعفت تجارتهم ، ثم لازمهم حسن الطالع باكتشاف أهمية النجم القطبى ، ومن ثم فقد أقبلوا على الابحار ليلا معتمدين على النجوم ، وقد تعلم الاغريق هـــذا الفن منهم ، حتى أن أسماء النجوم الاغريقية هى نفسها الاسماء الفينيقية ، وهكذا بدأ القوم يبحرون طبقا لخطط مرسومة ، حتى استطاعوا — بعد تجـــارب طويلة — أن يشقوا لانفسهم مسالك وطرق كشفوها وأستخدموها ثم احتكروها ، لعل من أهمها ذلك الطريق الذى يمر من صيدا الى صور ، ثم يمر بمصر مباشرة ، أو قد يتجـــه الى قبرص ، ثم يتجه غربـــا الى طوروس ولسيا — عن طريق رودس وكريت — ثم يتجه الى صقلية ، ثم

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٩٢ •

(٢) محمد بيومى مهران : تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم — القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٤ •

شمال أفريقيا ثم أسبانيا ، وهناك طرق أخرى فرعية تتجه الى الشمال أو الجنوب ، ومن ثم فقد حق لهم أن يسموا أول أمة بحرية فى العالم، وأول أمة جمعت بين النشاط فى البر والبحر (٣) .

وهذا وكانت محطات الفينيقيين فى الداخل تضم «أدبا» و «نصيبين»، بحيث تصل موانيهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج العربى ، حيث مواطنهم الاصلية ، وحيث كانت لهم هناك مدن تحمل الاسماء نفسها ، مثل أرواد وصيدا وصور (٤) ، وان كانت صور - كما تدلنا الاخبار المتواترة فى العالم القديم - هى المدينة الفينيقية المسؤولة عن حملات الفينيقيين الى الغرب ، والتى أدت الى العديد من المستوطنات ، وتنص التوراة (٥) والمصادر الاخرى صراحة على تفوق صور على المدن الفينيقية فى الشرق الادنى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (٦) .

وليس هناك من ريب فى أن الدوافع الاساسية وراء ارسال التجار الفينيقيين الى غربى البحر المتوسط ، هو البحث عن موارد معدنية - وخاصة الذهب والفضة والنحاس والقصدير ، وقد قادهم هذا البحث - فى تاريخ مبكر - الى أسبانيا التى ظلت أحد المصادر الرئيسية فى عالم البحر المتوسط ، حتى فى العصر الرومانى (٧) .

وتقدم لنا التوراة - فى سفر حزقيل - وصفا مفصلا لتجارة الفينيقيين البرية والبحرية فى مظاهرها المختلفة ، وهو يذكر من بين وارداتهم ، الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا ، والرقيق

---

(٣) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٥ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٤ ، حسن محمود : المرجع السابق ص ٢٩٣

(٤) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٥) ملوك أول ٢٧/٩ - ٢٨ ، ١١/١٠ - ١٢ ، اشعياء ٨/٢٣ ، ١٥ - ١٨ ، قاموس الكتاب المقدس ٥٥٩/٢ .

(٦) ب.هـ. وارمنجتون : العصر القرطاجى - تاريخ افريقيا ص ٤٥٤ .

(٧) نفس المرجع السابق ص ٤٥٤ .

وأوانى النحاس الاصفر من ايونيا ، والكتان من مصر ، والخزف والماعز من شبه الجزيرة العربية ، ويشير «هيرودوت» الى أن توابل بلاد العرب كانت تنقل عن طريق التجار الفينيقيين[8] ، ونقرأ فى التوراة أيضا عن أسطول «حـيرام» ملك صور ، الذى أبحر مع أسـطول سليمان الى «أوفير»[9] ، وأتى من هناك بالذهب والاخشـاب النادرة والاحجـار النفيسية ، وكل ما هو نادر وغريب[10] .

ويقول «ديودور الصقلى» (٨٠ — ٣٠ ق٠م) أن الوطنيين (أى فى أسبانيا) انما كان يجهلون استخدام الفضة حتى حصل عليها الفينيقيون فى رحلاتهم التجارية فى مقابل كمية قليلة من السلع ، وحملوها الى بلاد الاغريق وآسيا والبلاد الاخرى ، وحصلوا على ثروات كبيرة ، كما زادت قوتهم عن طريق هذه التجارة التى مارسوها لوقت طويل ، وكانوا قادرين على ارسال أعداد من المهاجرين الى صقلية والجزر المجـاورة وأفريقيا وسردينيا ، والى أسبانيا ذاتها[11] .

وعلى أية حال فلم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة و العودة من حيث أتوا ، وانما كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون منها فينيقيا جديدة ، أما اذا كانت البلاد التى ينزلها الفينيقيون ذات حكومات قوية وقادرة على حماية نفسها ، فان ملاحى فينيقيا لا يؤسسون مستعمرة حقيقية ، وانما يكتفون بوكالات تجارية وبشراء حق حرية التجارة ، كما فعلـوا فى مصر ، حيث استقـروا عند مصبى الدلتا ، وطبقـا لرواية

---

(٨) حزقيال ٢٧/١ — ٣٦ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١١٦ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٠٧ — ١٠٨ ، وكذا
Strabo, XVI, 3-4.

(٩) أنظر عن «أوفير» والاراء التى دارت حـول موقعها (محمد بيومى مهران : اسرائيل — التاريخ — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٧٨٣ — ٧٩٢) .

(١٠) ملوك أول ١١/١٠ — ١٢ ، محمد بيومى مهـران : المرجع السابق ص ٧٨١ .

(١١) ب٠هـ٠ ورامنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٤ .

هيرودوت ، فلقد اتخذوا لانفسهم فى «منف» — العاصمة المصرية القديمة — حيا خاصا بهم سمى «معسكر الصوريين» ، كما أقاموا معبدا هناك كانوا يتعبدون فيه للمعبودة «افروديت الاجنبية» ، وهى عشتار على الارجح[١٢] •

(٢) الفينيقيون ومستعمراتهم فى البحر المتوسط :

كانت السفن الفينيقية — نظرا لظروف الملاحة فى العصور القديمة — تسير ، بصفة عامة ، فى محاذاة الساحل وتلقى مراسيها أو تسحب فى الليل الى الشاطىء ، هذا وقد استخدم الفينيقيون فى البحر المتوسط طريقين ، الواحد : شمالى بمحاذاة الشواطىء الجنوبية لصقلية وسردينيا وجزر البليار ، والاخر : جنوبى بمحاذاة ساحل أفريقيا ، وربما كانت هناك — بمحاذاة الساحل الافريقى — مراس استخدمها الفينيقيون كل ثلاثين ميلا ، أو قريبا من ذلك ، رغم أن تطور مثل هذه المراسى الى مستوطنات دائمة انما كان يعتمد على عوامل مختلفة ، وكانت المواقع القديمة جزرا قريبة من الساحل ، أو ألسنة صخرية يمكن أن ترسو السفن عليها من كلا الجانبين •

هذا ومن المتعارف عليه أن أول مستعمرة فينيقية فى الغرب انما كانت فى «قادس» (كاديز الحالية ، قرب مصب الوادى الكبير) على شاطىء أسبانيا الغربى ، وقد أخذ الاسم من الكلمة الفينيقية «جادير» Gadier — بمعنى القلعة — وربما يوضح هذا أصلها (أى أصل كاديزا — أو كاديس) كمركز تجارى ، وكانوا يحصلون من هناك — كما أشرنا من قبل — على الفضة المتوفرة فى أسبانيا[١٣] •

هذا وكانت السفن تخرج من «جادير» لاستجلاب القصدير ، فتبلغ

---

(١٢) ج٠ كونتنو : المرجع السابق ص ٩٥ ، محمد بيومى مهران : تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم ص ١٨٤ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١١٦ ٠
(١٣) ب٠هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ ٠

الشاطىء الغربى لاسبانيا ، وقد تصل الى جزائر «كاسيتيريد» (جزائر سيللى) ، وكانت كل هذه البلاد الاسبانية تعرف عند الفينيقيين باسم بلاد «ترشيش» ، وهى عند اليونان «ترتيسوس»[١٤] ، وطبقا لما جاء فى التوراة[١٥] ، فان سفن سليمان عليه السلام ، وسفن «حيرام» ملك صور ، كانت تأتى مرة كل ثلاث سنوات الى «ترشيش» ، ويذهب «ستانلى كوك» — اعتمادا على نص التوراة[١٦] «كان للملك (سليمان) فى البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام» — الى أن سليمان عليه السلام، وحيرام ملك صور ، قد امتلكا أسطول «ترشيش»[١٧] ، وان اسم الاسطول انما يدل على أنه قد ذهب الى ترشيش فى أسبانيا[١٨] .

وعلى أية حال ، فان اسم «ترشيش» الذى نصادفه فى أسفار التوراة[١٩] وفى الكتابات الاشورية ، انما هو اسم فينيقى ، فى أكبر الظن ، بمعنى المنجم أو مكان الصهر أو معمل تكرير ، هذا وقد اكتسبت تسمية «ترشيش» بسبب بعد موقعها معنى غامضا ، وصارت تعنى المغرب الاقصى أو أبعد البلاد التى بلغتها التجارة الفينيقية ، وان ذهب البعض الى أن ترشيش انما هى «طرطوس» فى قلقيا ، حيث كانت هناك مستعمرة فينيقية ، هذا فضلا عن أن عبادة «البعل» فيها ، انما تشبه تلك

---

(١٤) ج. كونتنو : المرجع السابق ص ٩٦ .

(١٥) ملوك ثان ٢٢/١٠ ، أخبار أيام ثان ٢١/٩ .

(١٦) ملوك أول ٢٢/١٠ .

(١٧) ترشيش : يذهب بعض الباحثين الى أنها فى سردينيا ، ويذهب آخرون الى أنها «ترتيسوس» فى جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق، ولعل ترتيسوس هى قرطاج فى شمال افريقيا (قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢١٥ — ٢١٦ ، هيرودوت (١٥٢/٤) ، وكذا

M. F. Unger, Op. Cit., P. 1978-1071.

F. Thieberger, King Solomon, London, 1957, P. 206).

18) S. A. Cook, in CAH, III, Cambridge, 1965, P. 367.

(١٩) ملوك أول ٢٨/٩ ، ٢٢/١٠ ، أخبار أيام ثان ٢١/٩ ، ٣٦/٢٠ ، اشعياء ١٩/٦٦ ، ارميا ٩/١٠ حزقيال ١٢/٢٧ ، مزمور ٧/٤٨ .

التى فى صور وقرطاجة[٢٠] •

وهناك من المستعمرات الفينيقية فى أسبانيا «ملقة» (ملاكه بالفينيقية) — بمعنى دكان أو معمل صغير — ويذكر «سترابو» مكانا لتمليح الاسماك فى هذه المدينة ، وهو أمر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك ، هذا وكانت «قرطبة» فى الاصل مدينة ايبيرية استولى عليها الفينيقيون ، وأقدم نقودها تحمل حروفا فينيقية ، استبدلت فيما بعد باليونانية •

ولعل من أهم المستعمرات الفينيقية فى جزر البحر المتوسط ، انما كانت «صقلية» التى اتخذوها محطة ينتفعون بها فى أسفارهم الخطيرة الى «أعمدة هيرقل» (أعمدة هيراكليس) — وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق — ونزلوا خاصة فى «بانورموس» (Panormus) — أى بالرمو — و«سيولينوس» (Selinunte) (سيلينونت = Selinunte) و«موتيا» (Motya = Mozia) ، وهذه المدن الصقلية الثلاثة أختيرت أماكنها فى عناية بالغة مسترشدين بما يجدون فيها من المنافع ، وكانت مدينة «بانورموس» (باليرمو) فى أحد الخلجان ، و«سيلينوس» عند أحد الرؤوس ، و«موتيا» فى بطن الخليج الواقع شمال رأس ليليبية ، وكانت الاخيرة أهمها جميعا ، حيث كانت القاعدة الاساسية التى انطلقت منها «قرطاج» لمباشرة حروبها الصقلية ، حتى حوصرت ودمرت فى عام ٣٩٨ ق•م •

هذا — وطبقا لرواية ديودور الصقلى — فلقد استقر الفينيقيون كذلك فى جزيرتى مالطة وجولوس (أو جوزو Gozzo) وذلك لانهما جزيرتان تقعان فى عرض البحر المتوسط ، صالحتان لتكونا مرافىء

---

(٢٠) قاموس الكتاب المقدس ٢١٦/١ ، ج• كونتنو : المرجع السابق ص ٩٦ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٢ ، وكذا

W. Albright, in Studies in History of Civilisation, P. 42.
A. Dertrich, Phonizische in Spanien, Lepzig, 1936, P. 32.

ارتفاق عند المرور من شرق البحر المتوسط الى غربية[٢١] ٠

وأيا ما كان الامر ، فلقـد كان للفينيقيين عـدة مراكز فى كورسيكا وسردينيا ، ففى سردينيا كانت أربع مـدن رئيسية هى : «سولكيس» (Sulcis) و«كارالس» ونـورا (Nora) — (أو نورى Nurri) و «ثـاروس» (بـرج القديـس جيوفـانى Torre die S. Giovanni فى سردينيا) ، وكانت «سولكيس» تقع على الشاطىء الداخلى لجزيرة «أنتيوكو» الحالية ، الى جانب ممر للجزيرة يصلها بالارض الرئيسية ، وأما الثلاثة الاخرى فهى مرتفعات جبلية ٠

هذا ولم يعثـر فى «سـولكيس» الا على آثـار قليلة تكشف عن طبوغرافيتها الفينيقية ، وان عثر على فخـار فينيقى يرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد ، ويعد أقدم ما عثر عليه فى سردينيا ، كما عثر على عدد من الالواح تشبه نظائر لها عثر عليها فى خطائر المعبودة «تانيت» Tanit فى قرطاج ، مما قد يشير الى وجود ، أو احتمال وجود معبد هناك ، وأمـا فى «كارالس» (كاليارى) — حيث حجبت أبنيه من عصر متأخر — الطوبغرافية الفينيقية ، فان المحلة الاصلية تشبه من نواحى كثيرة نظيرتها بالقرب من مرتفع «سـان ايليا» الى الجنوب الشرقى ، وربما كان موقع الميناء القديم ، حيث توجد البحيرة المالحة اليوم الى شرق «كاليارى» ، ولم يعثر هناك على مقابر من عصر مبكـر ، ولكننا نلتقى بالمقابر من القرن الخامس وما بعده منتشرة على طول جانب التل الى شمال غرب المدينة الحديثة ٠

وأما «نورا» (نورى) فتقع عند طرف شبه الجزيرة ، ولها ميناء ، ولم تشغل منذ العصر الرومانى ، الا بقلعة من العصور الوسطى فى مكان قلعة فينيقية ، وقد عثر بها على مقابر من القرن السـادس قبل الميلاد

---

(٢١) ج٠ كونتنـو : المرجـع السـابق ص ٩٥ — ٩٦ ، ب٠هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، محمد بيومى مهـران : المرجع السابق ص ١٨٦ ٠

وما بعده ، فضلا عن معبد للمعبودة «تانيت» ، ومجموعة ضخمة من اللوحات والاوانى الجنازية ، وأما «شاروس» فتقع الى الغرب من الجزيرة (جزيرة سردينيا) ، ولا تزال فى حاجة ماسة الى اجراء حفائر تكشف عن آثارها[٢٢] .

هذا وقد سعى الفينيقيون للنزول فى بلاد اليونان ، وكثر تردد تجارهم عليها ، بل ان بلاد اليونان — فيما يبدو — لم تخل من مستعمرات فينيقية ، وآية ذلك انتشار الاسماء السامية فى بلاد اليونان، هذا فضلا عن أن بعض المعبودات اليونانية انما كانت متأثرة الى حد ما بالديانات السامية ، ويبدو أن الفينيقيين لم يتركوا ناحية فى البحر المتوسط ، الا وقد أوغلوا فيها ، فانتشروا فى ساموس وكريت ، بل ان «ديودور الصقلى» انما يذهب الى القول بأن أهل مالطة من أصل فينيقى ، كما أن أهل «تراقيا» فينيقيو الاصل كذلك ، وعلى أية حال ، فليست هناك أية آثار لمدينة فينيقية فى جزيرة مالطة ، ومع ذلك ، فهناك مقابر بونية كثيرة ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده ، وهناك عدد قليل منها يرجع الى القرن الثامن والتاسع قبل الميلاد ، وربما كان أشهر مواقعها يقع حيث تقع اليوم مدينة «فاليتا»[٢٣] هذا وتتصل «كورنثوس» — وهى مؤسسة فينيقية فى الغالب — بمعبود من أصل فينيقى هو «ملقارت» (ملكرث = ميلكرتس) ، فيما تروى الاساطير[٢٤] .

(٣) المستعمرات الفينيقية فى الشمال الافريقى :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا — وقبل أن نتحدث عن

---

(٢٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٢٣) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٠ — ١٦١ ، جسن محمود : المرجع السابق ص ٣٩٥ ، وكذا

H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, P. 523.

Diodorus, V, 12, 2-2.

Autran, Pheniciens, Ph, P. 5.

(٢٤) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٣ .

المستعمرات الفينيقية فى الشمال الافريقى — الى عدة نقاط ، لعل من أهمها (أولا) أن تأسيس المراكز الفينيقية فى المغرب ، انما قد تم فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، ومن ثم فان العصر الفينيقى انما قد أستمر فيما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد ، حيث بدأت الدولة القرطاجية فى الوقوف على قدميها ، كقــوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق •

ومنها (ثانيا) أن العصر الفينيقى فى المغرب انما كان عصر استكشاف اقتصادى ، أكثر منه عصرا سياسيا ، ذلك لان المدن الفينيقية فى الشمال الافريقى ، انما كانت تابعة سياسيا لمدينة «صور» فى فينيقيا ، بل يمكننا القول أن الارتباط السياسى — فضلا عن الالتزام الضريبى ، وربمــا الحضارى — انما ظل قائما حتى بعد استقلال المدن الفينيقية الافريقية عن أصولها الاولى فى فينيقيا •

ومنهــا (ثالثا) أن الانتقال من المرحلــة الفينيقية الى المرحلــة القرطاجية ، انما قد تم فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، حيث أسس «ماقون» أو «ماجــو» **Mago** أسرة حاكمة فى «قرطــاج» (الاسرة الماجونية)[٢٥] •

وأما أهم المــدن أو المستعمرات الفينيقية فى الشــمال الافريقى (المغرب) فهى :

١ — قرطــــاج :

لا ريب فى أن أعظم المدن الفينيقية عبر البحر قاطبة انما هى مدينة «قرطاج»[٢٦] ، وتقع على مقربة من مدينة «تونس» الحالية ، فيما بين

---

(٢٥) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٦٧ — ١٧٣ ، هـ٠ب٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٦ •

(٢٦) قرطاج : جرت عادة بعض المؤرخين أن يكتبوها «قرطاجنة» ، =

«بو سعيد» و «لاجويت» ، ويرجع تأسيسها الى عام ٨١٤ ق٠م ، حتى وان زعم البعض أنه يرجع الى ما قبل ذلك — الى القرن الثامن قبل الميلاد — حيث ثبت حتى الان عدم وجود أية آثار فينيقية الاصل فى تلك المناطق قبل منتصف القرن الثامن (أى حوالى عام ٧٥٠ ق٠م)[٢٧] ، وهو لا يبعد كثيرا عن التاريخ المتعارف عليه ، أى عام ٨١٤ ق٠م ، وعلى أية حال ، فلا يمكن أن نستنتج شـيئا ذا قيمة تاريخية من أسـطورة تأسيس قرطاج التى وصلت الينـا فى مختلف كتابات المؤلفين الاغريق والرومان[٢٨] ، وسوف نتحدث عنهـا بشىء من التفصيل فى الفصـل التـالى ٠

هذا ويذهب البعض الى أن اسم «قرطاج» (قرطاجة (Carthago) وفى اللاتينية Carthage) انما هو صورة محرفة من الاسم الفينيقى «قرت حدشت» بمعنى «المدينة الجديدة» ، ويدل هذا ضمنـا على أن المكان قدر له منذ البداية أن يكـون المستوطنة الرئيسية للفينيقيين فى المغرب ، وطبقا لقصة انشائها ، أو بعبارة أصح أسطورة انشائها[٢٩] ، فقد أسستها الاميرة «اليا» (Eliasa) ابنة «متان» ملك صور ، عندما

=

وهو خطأ شـائع ، والصحيح كتابتها «قرطـاجة» أو «قرطـاج» ، كما يسميها أهل تونس أنفسهم ، أما «قرطاجنة» فهى مدينة فى أسبانيا (معالم تاريخ الانسانية ٢/٥٠٥) ٠

27) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 22.
D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, P. 54.

(٢٨) ب٠هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ ٠

(٢٩) لعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك الكثير من الاساطير التى ترتبط بالشخصيات الهامة — وربما الاسطورية — بتأسيس المدن الهامة ، فضلا عن الاحـداث الرئيسية ، وذلك لان الكتـاب القدامى أرادوا لفت الانظار الى أهميتها — المدن والاحداث — فقاموا بتسجيلها بصورة شعبية وباسهاب وتفصيل ، قد يغرى فى كثير من الاحيان عواطف العامة وخيالهم ، أكثر مما يرضى عقول العلماء ، فقدموا لنا أحداثا أقرب الى الاساطير منها الى التاريخ الحقيقى ٠

وهناك فى تاريخ العرب القديم — على سبيل المثال — مدينة «ياثل» — وهى مركز دينى هام فى دولة معين — وتسمى «براقش» (وكانت قديما =

هربت من ظلم أخيها «بيجماليون» (Pygmalion) ـ الذى خلف أباه فى حكم صـور ، وكانت اليـا ترغب فى الزواج من خالها «أشربـاس» (Echerbas) ـ أحد كهنة المعبود ملقارت ـ وقد أغضب ذلك أخوها «بيجماليون» فأمر بقتل هذا الكاهن ، مما دفع اليا الى الهجرة الى جزيرة قبرص ـ مع عدد من المعارضين لاخيها ـ وهناك انضم اليها أحد كهنة المعبودة «عشتارت» Asterte الذى اشترط أن تكـون له ولعائلته أولوية فى كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة ، وأن يكون ذلك وراثيا فى أسرته ، وسرعان ما انضمت اليهـا ثمانون عذراء كانوا أصلا للبغـاء المقدس ، ثم اتجهوا جميعا الى منطقة الساحل الافريقى المغربى ، غير أن «اليا» سرعان ما انتحرت عندما أراد رئيس البربر أن يتخذها زوجة له ، هذا ويسمى الرواة الاميرة «اليـا» هذه ، باسم «ديدون» بمعنى «الهاربة» ، وهو اسم غير فينيقى ، وليست لدينا أية وثائق تسوغ لنا قبول هذه الرواية أو حتى رفضها[٣٠] .

غير أن هناك مصدرا آخر يتحدث عن تأسيس «اليـا» (ديدون) لمدينة «قرطـاج» حيث يحدثنا المؤرخ اليهـودى «يوسـف بن متى»

=

تسمى يطيل) ، وهى نفسها مدينة (Athluba = Athrula) ـ آخر موضع وصلته حمله «اليوس جالليوس» الرومانى على اليمن فى عام ٢٤ ق.م ـ وعلى أية حال فان «براقش» عنـد الاخبـاريين مدينة قديمة جدا ، كان يسكنها عند ظهور الاسلام «بنو الاوبر من بلحارث بن كعب ومراد» ، وقد اختلفوا فى سبب تسميتها «براقش» ، فرواية تذهب الى أنها انما سميت كذلك نسبة الى كلبة عرفت باسم براقش ، ورواية أخرى تنسبها الى امرأة تدعى «براقش» عهد اليها أبوها بتصريف شئون الدولة أثنـاء غيابه فى واحدة من غزواته ، فما كان من براقش الا أن اهتبلت الفرصة ، فبنت مدينتى براقش ومعين تخليدا لذكراها ، غير أن ذلك قـد أغضب والدها الملك ، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينـة ، على أن رواية ثالثة تنسبهـا الى مراقش امرأة لقمان بن عاد (أنظر : البكرى ٢٣٨/١ ، الميدانى ١٤/٢ ـ ١٥ ، البيان والتبيين للجاحظ ٢٢٢/١ ، القاموس المحيط ٢٧٢/٢ ، وكذا محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣٣٢) .

(٣٠) ج. كونتنو : المرجع السابق ص ٩٨ ، ب. هـ. وارمنجتـون : المرجع السابق ص ٤٥٥ ، رشيد الناضورى : المرجع السـابق ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(يوسفيوس فيلافيــوس = ٣٧ ـ ٩٨ أو ١٠٠م)[٣١] ـ نقــلا عن آخرين ـ أنه فى السنة السابعة من حكم «بيجماليون» أسست اليا مدينة قرطاج،ومن ثم فهناك عنصر تاريخى سليم ـ اذا ما صدقت رواية يوسف اليهــودى ـ يتعلق بارتباط هذه الامــيرة الصورية بتأسيس مدينــة قرطــاج[٣٢] •

وعلى أية حال ، فان المستوطنات الفينيقية جميعا ، بما فيها قرطاج نفسها ـ على عكس المستوطنات التى أقامها الاغريق فى صقلية وايطاليا وغيرهمــا فى القرنين الثامن والســابع قبل الميلاد ـ انمــا ظلت (أى المستوطنات الفينيقية) محدودة المساحة ، وربما لم يسكنها ، لمدى بضعة أجيال ، غير مئات قليلة من المستوطنين على الاكثر[٣٣] •

(٢) أوتيكــا :

كانت «أوتيكا» (Utica) ـ أو عتيقة ـ بمعنى القديمة ، تمييزا لها عن «قرطاج» بمعنى الجديدة أو الحديثة ، وقد سماها «ابن خلدون» (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) «وطاقة» ، وتقع الى الغرب من قرطــاج ، وتلى قرطاج فى الاهمية ، وتعتبر أقدم مستعمرة فينيقية فى شمال أفريقيا ، على الارجح ، وقد أسستها صور حوالى عام ١١٠٠ ق•م ، أو ١١٠١ ق•م ، وقد عثر فيها على آثار ترجع الى حوالى هذا التاريخ •

وتقع أوتيكا على مرتفع من الارض عند مصب نهر «بجراداس» ، أهم أنهــار تونس ، الذى يجــرى فى أخصب بقاعهــا ، ومن ثم فهى ـ كقرطاج ـ ميناء ، رغم أنها تقع الان على مبعدة ٧ أميال فى الداخل، ذلك لان معالم الموقع تغيرت اليوم عنها فى العصــور القديمة ، فغطى الغرين المجرى الادنى للنهر ، ويمكن التعرف على القلعة القديمة عند تل

---

(٣١) انظر عن يوسف بن متى (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣١ ـ ٣٢) •
(٣٢) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٦٣ •
(٣٣) ب•هـ• وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ •

كان يوما ما فى داخل البحر ، مع جزيرة الى شرقه ، يفصلهـا عنه ممر مائى ضيق .

هذا وما تزال هناك ــ كما هى الحال فى قرطاج ــ خرائب رومانية كثيرة ، وان كان من العسير التعرف على آثار بونية[34] ، وقد ترجع أقدم المقابر هنا الى القرن الثامن قبل الميلاد ، ومكانها على جانبى الممر المائى، أما المقابر من العصر المتأخر ، فبعيدة الى الغرب والشمال .

هذا وقد ظلت «أوتيكا» مستقلة ــ على الاقل اسميا ــ عن قرطاج ، حتى مرحلة متأخرة ، ووراءها على الساحل حتى مضيق جبل طارق عدة مواقع لمراس ، ولكن قلة منها هى التى تطورت الى نفس الدرجة التى وصلت اليها مراكز الساحل التونسى ، وليس هناك من ريب فى أن هذا انما يرجع أساسا الى الصعوبة الكبرى فى الوصول الى الداخل[35] .

(٣) هيبـــو :

هيبو ــ أو «هيبو أكرا» (Hippo Acra) هى «بنزرت» الحالية ، وكان لها مرفأ عظيم فى بحيرة بنزرت ، وكان مقرا ملكيا ، ومن ثم فقد أعطيت «هيبو» لقب "Regius" ، وأما كلمة «هيبو» فهى كلمة ليبية ، وتذهب الاساطير أن «ليبيا» ــ وهو الاسم اليونانى لشمال أفريقيا ــ كان فى الاصل اسم زوجـة المعبود «بوسيدون» اله البحـر ، ووالدة «أجينور» ملك فينيقيا .

(٤) ليتـــس :

وهى المدينة الوحيدة التى اختيرت فى موقع غير مناسب ، فى مجاورات خليج «سرته» ، ولم يكن لها مرفأ ، غير مصب نهر .

---

(٣٤) كلمة «بونيـة» (Punic) مشـتقة من الكلمـة اللاتينيـة «بيونيكوس» (Punicus) ــ أى قرطاجية ، أعنى فينيقية (معـالم تاريخ الانسانية ٢/٥١٤) .

(٣٥) ج. كونتنو : المرجع السابق ص ٩٧ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٥ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٥) موجـــــادو :

كان أبعد مكان فينيقى أمكن الكشف عنه على الســاحل الافريقى غربا ، انما يقع الى الجنوب من مدينة «موجادو» مباشرة ، على الشاطىء المغربى ، فيما بين الدار البيضاء وأجــاديو ، حيث يصب نهر «كسوب» فى خليج صغير تذود عنه أمواه المحيط ، جزيرة صغيرة ، طولها ٣ كيلا ، وعرضها نصف كيلو مترا ، وتبعد عن الشاطىء بمسافة تتراوح فيما بين كيلو ونصف ، وثلاثة كيلو مترات ، وقد عثر هناك على ما يؤكد قيــام مستعمرة فينيقية بها[٣٦] .

---

(٣٦) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٠ ، ج. كونتنو : المرجع السابق ص ٩٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٢ – ١٦٣ .

الباب الخامس

العصر القرطــــاجى

الفصل الأول

الحياة السياسية والعسكرية

(١) من مظاهر العصر القرطاجي :

يمتد العصر القرطاجي ــ نسبة الى مدينة قرطاج ــ من حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وحتى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد ، أو على وجه التحديد حتى سقوط «قرطاج» تحت الاحتلال الرومانى فى عام ١٤٦ قبل الميلاد ، وليس هناك من ريب فى أن هذه الفترة القرطاجية انما تعتبر من أهم فترات التاريخ المغربى القديم ، فضلا عن التاريخ الافريقى وحوض البحر المتوسط .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن البناء التاريخى لهذه الفترة انما هو أمر صعب ، ذلك لأن المصادر ــ فى معظمها ــ يونانية ولاتينية ، وكان الفينيقيون فى الغرب بالنسبة للاغريق ــ وخاصة تحت قيادة قرطاج ــ انما هم أعداء ألداء ، ومن ثم فان الصورة فى هذه المصادر اليونانية واللاتينية مشوبة بالتجنى والتحامل ، ومن أسف أن الزمن لم يبق لنا على أية مصادر قرطاجية .

ويذهب «سبتينو موسكاتى» الى أن المؤلفين اليونان واللاتين انما ركزوا انتباههم أساسا على الحروب ، بين قرطاجة وسرقوسة من ناحية ، وبين قرطاجة وروما من ناحية أخرى ، وهنا ــ فقط ــ يكون الوصف شاملا ومفصلا ، فضلا عن كتابة الاحداث فى أعقاب حدوثها مباشرة ، وأما بالنسبة لباقى التاريخ القرطاجى ، فالمعلومات قليلة ومتفرقة ، فمثلا ملاحظات الفيلسوف اليونانى «أرسطو» (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق.م) عن الدستور البونى ، ورواية «بوليبيوس» عن ثورة الجند المرتزقة ،

والترجمة الاغريقية لنقش «هانو» ، وقائمة ممتلكات قرطاجة فى أفريقيا فى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد — كما ذكرها «سكيلاكس الزائف» Pseudo - Scylax — كلهـا أمثلة أخذت من وثائق متفـرقة غـير منظمة ، ومليئة بالفجوات ، وغالبا يصعب تجميعها[1] •

هذا بالاضافة الى أن العون الذى يقدمه علم الاثار محدود ، ففى معظم الحالات ، أقيمت فوق المستوطنات الفينيقية مدن رومانية ضخمة ، وان كان قد حدث تقدم فى هذا المجال فى العقدين الاخيرين ، هذا وهناك عدد كبير من النقوش المدونة بمختلف صور اللغة الفينيقية ، غير أنها فى معظمهـا ، ان لم تكن جميعها ، نقوش نذريـة أو شخصية فى مقـابر أصحابها •

هذا ويكتنف تطور الحضـارة الليبية المحلية — قبل القرن الثالث قبل الميلاد — بعض الغموض ، وقد استمر تراث حضارة العصر الحجرى الحديث القفصية فى المغـرب حتى الالف الاولى قبل الميلاد ، ويوجد القليل الذى يمكن تمييزه بأنه من عصر البرونز ، وهكذا فان الصورة الاثرية للالف سنة الاولى انما تعكس لنا تطورا بطيئا مطردا ، وان يكن مصحوبا بتأثيرات فينيقية فعاله متزايدة منذ حوالى القرن الرابع قبل الميلاد ، فظهرت ، بصفة خاصة ، المقابر ذات السطح الفسيح الضخم المبنى من الحجر ، والتى — فيما يبدو — لا علاقة لها بمقابر حضارات ما قبل التاريخ الضخمة فى شـمال أوربا — وترجع الى نفس الفترة موضوع الحديث — وأما المقابر الاضخم منهـا ، كالمقبرة الركامية فى مزورة ، ومقبرة المدرسين ، فمن المحتمل أن لها علاقة بنشأة الوحدات القبلية الكبيرة فى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد[2] ، وأخيرا فهناك قدر ملحوظ من التماثيل فى المغرب ترجع الى هذا العصر •

---

1) S. Moscati, The World of The Phoenisians, London, 1968, P. 113.

(٢) ب.هـ. وارمنجتون : تاريخ أفريقيا العام ـ العصر القرطاجى ـ تورينو ـ ايطاليا ـ ١٩٨٥ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ •

(٢) سكان المغرب فى العصر القرطاجى :

يذهب «وارمنجتون» الى أن سكان المغرب فى العصر القرطاجى — من غير الفينيقيين — انما ينقسم الى ثلاث مجموعات رئيسية هى : الموريون والنوميدون والجيتوليون :

١ — الموريون (Mauri) : وكانوا يعيشون فى أقصى المغرب ، فيما بين الاطلنطى ومولكا (Mulucca) (وادى الملوية) ، وقد أطلق على اقليمهم اسم «موريتانيا»[٣] ، ومن قبل مورسيا (Maurousia) وقد امتد اسم «موريتانيا» بعد ذلك شرقا الى ما وراء «وادى شلف» •

٢ — النوميديون (Numidae) : وكانوا يعيشون بين الموريين وأقصى امتداد غربى للقرطاجيين فى الاقليم الداخلى — فى اقليم نوميديا — هذا ورغم أن الاغريق والرومان انما قد اشتقوا — خطأ اسم النوميديين من كلمة يونانية بمعنى «الرعاة» ، ويعنون بها وصف طريقتهم فى الحياة — أى حياة البدو الرحل (Nomadie) — فالواقع أنه لم تكن هناك اختلافات جوهرية بين السكان فى المنطقتين — منطقة الموريين ومنطقة النوميديين — وعلى أية حال ، فلا شك أنه كانت هناك مناطق للحياة المستقرة والزراعة الدائمة ، التى استمرت هناك فى النمو والتطور ، هذا فضلا عن أن هناك اتصال وثيق بين موريتانيا وجنوب أسبانيا •

٣ — الجيتوليون (Gaetuli) (الجدالة) : وهو الاسم الذى أطلق على الرعاة الحقيقيين على طول حواف الصحراء الشمالية[٤] •

---

(٣) موريتانيا : اسم أطلقه الرومان على مملكتين فى المغرب ، الواحدة : موريتانيا القيصرية ، وتقع فى المنطقة الغربية من الجزائر ، وعاصمتها «شرشال» ، والاخرى : موريتانيا الطنجية ، وعاصمتها «طنجة» (تنجيس = (Tingis)

(٤) ب٠هـ٠ : وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٤ ٠

(٣) الزعامة القرطاجية للفينيقيين الغربيين :

يبدو أن المؤرخ الرومانى «ابيان» (القرن الثانى الميلادى) انما كان موفقا الى حد كبير فى وصفه لمدينة قرطاج عندما وصفها بأنها أشبه ما تكون بالسفينة الراسية ، فهى قد بنيت فى شبه الجزيرة المحاطة بالبحر من ناحية ، وبالبحيرتين من ناحية أخــرى ، الامر الذى جعل وجهتها بحرية ، أكثر منها برية أفريقية ، وعلى أية حال فمدينة قرطاج انما تعتبر نموذجا للمدينة القرطاجية التى تعبر عن التفكير والحياة القرطاجية ، فضلا عن النشاط السياسى والاقتصادى فى العصر القرطاجى(٥) •

هذا وقد كان لقرطاج ميناء صناعى مزدوج أعد اعدادا جيدا ، فاما الميناء الخارجى فكان لاستخدام السفن التجارية ، وان كنا لا نعرف عدد السفن التى كان يمكنها استخدامه فى وقت واحد ، وأما الداخلى فكانت به أرصفة وأحواض تتسع لمائتين وعشرين سفينة حربية ، هذا فضلا عن مبنى للمراقبة يصل ارتفاعه الى درجــة تكفى للرؤية ـــ رغم المبــانى المعترضة ـــ الى مسافة بعيدة فى البحر •

وكانت أسوار المدينة ـــ والتى ترجع الى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ـــ هائلة الحجم ، الامر الذى مكنها من الصمود لكل هجوم ـــ بما فى ذلك الهجوم الرومانى الاخير فى عام ١٤٦ ق•م ـــ وكان طول الاسوار ـــ بما فى ذلك المسافة المطلة على البحــر ـــ حوالى ٢٢ ميلا ، وكان ارتفاع القطاع الحاسم ـــ لمسافة ميلين ونصف الميل عبر برزخ قرطاجة ـــ أربعين قدما ، وسمكه ثلاثين قدما ، ولم تقتصر مهمة تلك الاسوار على مجرد حماية المدينة من المتسللين أو المهاجمين ، ســـواء بسواء ، وانما كانت جدران الاســـوار الضخمة تستخدم بعد تجهيزها

---

(٥) رشيد الناضورى : المرجع الناضورى : المرجع السابق ص ١٧٧ ـــ ١٧٨ وكذا

Gilbert and Colette Charles - Picard, Daily Life in Carthage, London, 1961, 26.

بالاحتياجات الاســاسية ــ كثكنات واسطبلات ذات أســوار سفلية وعلوية ، وكان الدور السفلى يسع ٣٠٠ فيلا ، ويسع العلوى ٤٠٠٠٠ حصانا ، وقد جهزت الارضيات المنحدرة بحيث تساعد على نزول وصعود هذه الحيوانات ، وتتسع الثكنات لحوالى عشرين ألف جندى من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان ، هذا فضلا عن حفر خندق كبير يبلغ عرضه عشرين مترا لزيادة تحصين المدينة ، الامر الذى جعل وسائل الدفاع عن قرطاج فى غاية القوة .

ولم تقتصر وسائل التحصين على ذلك ، وانما أقيمت أيضــا قلعة داخلية ، مكانها الان كنيسة لويس التاسع ، ويحيط بها سور كبير طوله حوالى ٣ كيلا ، وهو بلا شك أقدم جزء فى المدينة .

وهناك أيضا آثــار المبانى ذات الصبغة السياسية والاقتصــادية والاجتماعية كالساحات ــ أو كما تسمى عند المواطنين العرب فى تونس بالرحبة أو البطحاء ــ وتشبه الساحة اليونــانية(Agora) واللاتينية (Forum) [٦] ، وتقع فى مكان متوسط بين الميناء والقلعة ، وهكذا وجد بين الميناء وتل بيرصة ساحة عامة مكشوفة ، تشبه «الاجوراء» الاغريقية، و«الفوروم» الرومانى ، وان كان يبدو أن ساحة قرطاج انما قد خططت تخطيطا منتظما ، أو اتخذت مظهر الفخامة الذى تميزت به ميادين المدن الاغريقية ، هذا فضلا عن مبان أخرى لها وظيفتها السياسية مثل مبنى مجلس الشيوخ وقاعات القضاء[٧] .

وعلى أية حال ، فان مدينة قرطاج ــ فى أكبر الظن ــ قد نمت دون

---

(٦) الاجوراء (Agora) عند اليونان ، و «الفوروم» (Forum) عند الرومان ، هو سوق المدينة ، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء ، وهو ملتقى الاجتماعات العامة ، ولما اتسعت روما زاد عدد الاسواق بها ، وكانت تقوم به المنشآت والابنية العامة .

(٧) ب.هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٣ ، أحمد صقـر : مدينة المغرب العربى فى التاريخ ــ تونس ١٩٥٩ ص ٩٧ ، ١٠٢ ، رشـيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٧٩ ــ ١٨٠ .

تخطيط ، فكانت شوارعها ضيقـــة ملتوية ، وان كانت مرتفعة بالنسبة لعصرها ، حتى وصل ارتفاع بعضها الى ستة طوابق ، شأنها فى ذلك شأن تلك المبانى التى وجدت فى صور — المدينة الفينيقية الام — وفى موتيا فى صقلية ، وقد استمر القرطاجيون فى تلك المبانى ذات الادوار المتعددة ، بصورة تقليدية لما كان فى مدينة صور ، رغم عدم الحاجة اليها فى المغرب ، وعلى أية حال ، فلقد وضحت فى تلك الدور القرطاجية بعض التأثيرات المعمارية اليونانية ، وخاصة الاعمدة الايونية[٨] .

وأيا ما كان الامر ، فلقد استكملت قرطاج جوانبها الدينة ببنـــاء المعابد ، غير أن معابد قرطاج — رغم ما قيل عن كثرتها ، فليس هناك ما يشير الى أنهـــا كانت ضخمة ، حتى المراحل الاخـــيرة من التاريخ القرطاجى ، حين وضح التأثير الثقافى الاغريقى ، وذلك لان الادلة انما تشير الى أن القرطاجيين انما كانوا قوما محافظين فى المسائل العقدية ، ومن ثم فقد ظلوا طويلا مخلصين لفكرة بساطة الاماكن المقدسة الخاليةمن أية أبنية أو أنصاب فخمة[٩] .

بقيت الاشارة الى أن ما يقدمه لنا المؤرخون عن عدد السكان فى قرطاج ، انما هو مجرد افتراضات ، لا تقوم على احصائيات رسمية ، وعلى أية حال ، فلقد قدر «سترابو» عدد السكان بسبعمائة ألف ، وهذا يعنى ببساطة كثافة سكانية مستحيلة ، فضلا عن أن مدن العالم القديم لم تكن تعرف هذه الارقام فى عدد السكان ، وان كان هناك من يذهب الى أن «سترابو» كان يعنى بهذا العدد الذى ذكره (سبعمائة ألف) كل سكان قرطاج وكل منطقة أذار ، وربما كان التقدير الاكثر قبولا هى أربعمائة ألف ، بما فى ذلك العبيد ، وهو ، على أية حال،رقم يجعل عدد ســـكان قرطاج مساويا لعدد سكان أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد[١٠] .

---

(٨) ب٠هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٣ ، رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ١٨٠ .
(٩) ب٠هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٣ .
(١٠) نفس المرجع السابق ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

وأيا ما كان الامر ، فان التاريخ الحقيقى لقرطاج لم يبدأ الا منذ القرن السادس قبل الميلاد ، عندما بدأت صور تضمحل ويقل شأنها تحت ضربات الامبراطور الكلدانى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ — ٥٦٢ ق٠م) ، كما أشرنـا من قبل ، ثم خضوعها له وضمهـا الى الامبراطورية البابليـة الكلدانية ، غير أن العامل الاهم — فيما يرى وارمنجتون — انما كان ازدياد ضغط المستوطنات الاغريقية فى صقلية ، مثل «سرقوسة» التى نمت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة ، والتى تأسست أصلا — هى وغيرها من المستوطنات هناك — نتيجة للضغط السكانى فى بلاد اليونان ذاتها ٠

وسرعان ما ازدهرت قرطاج حتى غـدت زعيمة المدن الفينيقية فى أواسط البحر المتوسط ، ثم صارت قرطـاج على نفس سياسة صـور وصيدا ، فأظلت المدن الفينيقية بحمايتها ، وأسست مستعمرات جديدة ، من ذلك تلك المستعمرات التجارية فى جزيرة «اليـا» — بين سردينيا وأسبانيا — حوالى عام ٦٥٠ ق٠م ، فضلا عن مستعمرات أخرى على شواطىء «مينوركا» فى جزر البليارد ، وغيرهـا من المستعمرات على شواطىء البحر المتوسط الاوربية والافريقية[١١] — كما سنرى — ٠

(٤) التنظيم السياسى فى قرطـاج :

كان المظهر الوحيد فى قرطاجه (قرطاج) الذى خطى باطراء ومديح اباطرة الاغريق والرومان هو دستورهـا السياسى الذى يبدو أنه كان يكفل لها الاستقرار ، وهو مطلب عزيز كانت تنشده المدن فى العصـور القديمة ، وان كانت التفاصيل عن هذا الدستور غامضة ، كما أنه ليس من المؤكد أن هؤلاء الكتاب القدامى قد أدركوا الحقائق ، كما ينبغى أن تدرك[١٢] ، وعلى أية حال ، فـان التنظيم السياسى فى قرطاج قد مر بمراحل رئيسية ثلاثة :

---

(١١) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٥ — ١٨٦ ، وكذا
D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, P. 54.

(١٢) ب٠هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٤ ٠

١ — المرحلة الاولى : مرحلة الملكية ، والتى استمرت حتى العصر الهلينستى ، وذلك النظام استمرارا لما كان موجودا فى حكومات المدن الفينيقية فى المشرق — كما تشير الى ذلك النظام الفينيقى الوثائق المصرية والاشورية — فقد كانت الملكية الفينيقية وراثية فى الغالب ، مع انقطاع أحيانا فى التسلسل الملكى — ومع ذلك ، ففى الامكان عمل قوائم بأسرات ملكية حكمت فى عدة مدن ، وان كانت غير كاملة ، فهناك مثلا أسرة حيرام فى صور ، وكذا «لولى» (ايلو ايلى) فى صور أيضا ، وقد ظهر الاول كأهم شخصية فى منطقة الساحل فى عهد داود وسليمان عليهما السلام ، وظهر الثانى كأهم شخصية فى نفس المنطقة على أيام سرجون الثانى (٧٢٢ — ٧٠٥ ق.م) ، بل انه انما قد فرض شخصيته على قسم كبير من فينيقيا ، حتى أنه حاول اخضاع قبرص(١٣) .

غير أن الملكية القرطاجية — رغم ذلك — انما كانت الى حد ما فريدة فى نوعها ، فهى ليست كالملكية المصرية القديمة ذات الطابع الالهى(١٤) ، أو الملكية السومرية(١٥) ، ذلك لان الملكية القرطاجية انما كانت فى بداية أمرها تتم عن طريق الانتخاب — وليس الوراثة — فكان الملك القرطاجى

---

(١٣) أنظر : (محمد بيومى مهران : اسرائيل ـ الكتاب الثانى ص ٧٨ — ٧٨٢ ص ٨٤٣ — ٨٤٧ ، ٩٠٤ ، ٩١٠ — ٩١٢ ، ٩٦٣) .

(١٤) أنظر : سورة الشعراء : آية ٢٩ ، القصص : آية ٣٨ ، النازعات آية ٢٢ — ٢٤ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ـ القاهرة ١٩٨٤ ص ٩٩ — ١٣٠ .

(١٥) هناك ما يشير الى مبادىء ديمقراطية بدأت فى العراق القديم منذ الالف الثالثة قبل الميلاد ، تشير الى تواجد التفكير الديمقراطى فى بداية العصر التاريخى ، وانتخاب الحاكم الذى يرأس حكومة المدينة ، بناء على قرارات الجمعية العمومية ، والتى تتكون من جميع المواطنين ، ربما فيهم النساء (أنظر : رشيد الناضورى : جنوبى غربى آسيا وشمال أفريقيا ، محمد عبد اللطيف : تاريخ العراق القديم ص ١٧٨ — ١٨٠ ، T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, in JNES, II, 1843, P. 165, No. 35.

يختار من الطبقة الارستقراطية ، ذات المال والجاه الموروثين ، ومن ثم فان النظام السياسى القرطاجى يتفق مع الهدف الفينيقى الاول ، وهو الاستحواذ على الثـــروة الاقتصادية ، حتى أن العمليــات السياسية والحربية القرطاجية انما كانت تهدف الى تدعيم الجانب الاقتصادى ، كما أن عمليات الاستكشاف البرى والبحرى القرطــاجى ، فضلا عن التدخل فى أسبانيا وغيرها ، انما كانت لتثبيت هذا الهدف الاقتصادى الذى احتل مكان الصدارة فى التاريخ الفينيقى والقرطاجى ، ومن ثم فقد كان أصحاب الثروة فى المكانة الاولى فى السلطات السياسية •

وعلى أية حال ، فلقد تولى منصب الملك فى قرطاج خلال القرنين ، السادس والخامس قبل الميلاد ، أفراد من «الاسرة الماجونية» ، والتى ظهر من أفرادها المبرزين «هملكار» (حملقرت = Hamilcar) الذى قاد حملة فى عام ٤٨٠ ق•م ، والمستكشف «حنون» (هنو = Hanno) والذى ربما كان ابنا للملك «هملكار» ، وذلك لأن النصوص تشير اليهما بوصفهما ملكين ، وقد شغل ملوك أسرة «ماجون» (ماقون) خلال هذين القرنين (السادس والخامس قبل الميلاد) منصب القــادة العسكريين للدولة كذلك ، عندما تطلبت ذلك تلك القيادة ، ومن المحتمل أن الكتاب القدامى فى تلقيبهم لهؤلاء بالملوك قد أخذوا فى الاعتبار سلطتهم الدينية والقضائية ، فضلا عن سلطاتهم السياسية •

٢ ـــ وفى أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حدث تطور أدى فى النهاية الى تناقض قوة الملوك نتيجة لتغير النظم الاقتصادية ، فلقد نشــأت طبقة جديدة فى المجتمع القرطاجى ، وهى طبقة ملاك الاراضى الزراعية ، وبذلك بدأت عوامل التنافس الاقتصادى على الثروة ، والتنافس السياسى على الحكم ، وقد نجحت طبقة ملاك الاراضى فى النهاية من الاستحواذ على تلك السلطة ، وانتزاعها من الاسرة المــاجوية ، وذلك فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، ومن ثم فقد بدأت مرحلة جديدة هى أقرب الى النظام الجمهورى ، منها الى النظــام الملكى ، رغم الاستمرار فى استخدام تعبير «الملك» الحاكم للبلاد ، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية

من التنظيم السياسى فى قرطاج من حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، الى حوالى بداية القرن الثالث قبل الميلاد •

هذا وقد صـــاحب هذا التطور الجديد نشأة سلطة «الشفطـــان» (Sufetes) ، وهو الاصطلاح السياسى القرطـاجى الوحيد الذى نقله لنا الكتاب الرومان ، وكلمة «الشفطان» أو السبطان ، تعادل الرقبـــاء (السناسرة) عند الرومان ، كما كان لقبهـــا باللغة السامية يعادل لقب «القضاة»[١٦] عند بنى اسرائيل ، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منها اثنان ــ وربما أكثر ــ سنويا ، وقد ظل اصطلاح «الشفيط» (Selinus) مستخدما فى شمال أفريقيا فى مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الاقل بعد الغزو الرومانى ، ليشار به الى الحكام الرئيسيين للمدينة ، وكان تقلص سلطة الملك شبيها بالتطورات فى المدن الاغريقية وروما ، وفى نفس الوقت ازدادت قوة الارستقراطية الثرية ، حتى أصبح لهم ــ الى جانب عضويتهم الجماعية فى مجلس للدولة يشبه السناتو الرومانى (مجلس الشيوخ) ــ مجلسان آخران منتخبان ــ مجلس المائة والاربعة ومجلس الثلاثين ــ وهما يكونان فى الحقيقة «أوليجركية» ضيقة وثيقة البنيان ، مكونة من أغنى الرجال ، وأوسعهم نفوذا ، ويتحكمون فى كل ادارات الحكومة •

هذا ورغم أن جماعة المواطنين كان لهـــا بعض الرأى فى انتخابات الملوك والشفطـــان وغيرهم من الموظفين فانه من المؤكد أن السياســـات القرطاجية كانت تحكمها الثروة دائمـــا ، ويعتبر الفيلسوف اليونـــانى «أرسطو» (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق•م) أن الدور الذى لعبته الثروة فى قرطاجه كان مظهرا سيئا ، فلقد كان شرف المولد وتوفر الثروة شرطين أساسيين للانتخاب ، فكل الامور يقررها الملوك أو الشفطان والمجلس بالتشاور

---

(١٦) أنظر عن القضاة عند بنى اسرائيل (محمد بيومى مهـران : اسرائيل ـ الجزء الثانى ـ ص ٦٢٣ ـ ٦٥٧) •

معا ، وفى حالــة اختلافهم فقط تتم استشــارة الجمعيــات الشعبية (الوطنية) •

٣ — وكانت المرحلة الثالثة على أيام القرنين الثالث والثــانى قبل الميلاد ، وتركزت فيها السيادة السياسية لأسرة برقة (برقا) وان اختلفت عن المرحلة الاولى ، وانما جمعت هذه المرحلة الثالثة بين ســلطة برقة وسلطات مجلس الشيوخ والمجالس الاخرى الخاصة بالشــئون المالية والدينية كالمجلس الثلاثينى ومجلس العشرة •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه هنا أن قرطــاج لم تخضع لانقلاب عسكرى يقوده قائد طموح أو مغامر ، مثلما تكرر هذا المصير فى المدن الاغريقية ، وخاصة فى صقلية ، وربما كان السبب أن أجهــزة الرقابة والسيطرة كانت فعالة[١٧] •

(٥) الجيش القرطــاجى :

اتجهت قرطاج الى تدعيم كيانها العسكرى بانشاء قوة حربية برية وبحرية للدفاع عن الدولة القرطاجية وفى القــرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فصلت قيادة القوات المسلحة فصلا تاما عن الوظائف الاخرى ، وكان القواد يعينون فقط فى حالة الضرورة ، ولحملات محــددة الجهة والهدف ، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائدا دائمــا ، وقد انتهجت العديد من الاسر نهجا عسكريا ، مثل «آل ماقون» (ماجون) فى أوائل التاريخ القرطاجى ، و «أسرة برقا» (Barcids) فيما بعد ذلك •

وكان عبء قيادة الفينيقيين فى الغرب — فيمــا يبدو — ثقيلا على القوة البشرية المتاحة لقرطاجة ، وقد ظلت قرطاج حتى القرن السادس قبل الميلاد ، تعتمد على مواطنيها — شأنها فى ذلك شأن المدن الحــرة

---

(١٧) ب٠هـ٠ وارمنجتــون : المرجع الســابق ص ٤٦٤ ، رشــيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٨٠ — ١٨٤ ، هـ٠ج٠ ويلز : معالم تاريخ الانسانية — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٣١ •

الاغريقية — غير أنها منذ منتصف هذا القرن السادس ، وتحت قيادة «ماقون» (ماجو = (Mago)) — الذى أسس أسرة حاكمة فى قرطاج — انما اتبعت سياسة «استخدام القوات المرتزقة» على نطاق واسع ، وهى نفس السياسة التى تبعت حتى نهاية التاريخ القرطاجى •

وهكذا استخدم القرطاجيون الليبيين الذين ساهموا بأكبر نصيب ، ثم سرعان ما ازداد عددهم عندما استولت قرطاج على الاقليم الداخلى ، واضطرت بالتالى الى تجنيد القوات اجباريا ، وقد قام الليبيون بدور هام فى الجيش القرطاجى — كمشاة خفيفى الحركة — كما شارك الفرسان النوميديون والموريتانيون — فى الاجزاء الشمالية للجزائر والمغرب — بدور بارز فى كل الجيوش القرطاجية — سواء أكانوا مرتزقة أو حلفاء طبقا لمعاهدات عقدت فى تاريخ لاحق — هذا فضلا عن مرتزقة آخرين — من أسبان وغاليين وايطاليين ، بل واغريق — عملوا فى الجيش القرطاجى فى أوقات مختلفة ، وطبقا لظروف متباينة ، وقد نجحت هذه السياسة ربما بصورة أكبر ممـا تسمح به طبيعة الامـور ، ولعل أهم ما دفع القرطاجيون الى استخدام الجنود المرتزقة أن قرطاج ما كانت بقادرة على أية حال — اعتمادا على سكانها المحدودى العدد — أن تتحمل الحرب الطويلة التى خاضتها •

على أنه لا ريب فى أن اعتماد الجيش القرطاجى على المرتزقة — فى معظمه — فضلا عن اعفاء المواطنين القرطاجيين من الخدمة العسكرية منذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد — عدا فترات قليلة — انما قد أدى الى نتائج ليست ، على كل حال — فى مصلحة الوطن القرطـاجى ، فهو (أولا) قد حـال بين القرطاجيين وبين تعميق الشـعور بمدى قوتهم الذاتية التى كانت عاملا فعالا فى تطور الاتجاهات الديمقراطية فى بلاد الاغريق والرومان ، فضلا عن اضعاف الروح القومية وابعاد القرطاجيين تدريجيـا عن الجيش ، وهو (ثانيـا) قد أضعف القـوات العسكرية القرطاجية ، ذلك لأن الجنود المرتزقة ما كانوا يحسون بالولاء نحـو الوطن الذين أصبحوا قوته العسكرية ، فضلا عن الولاء للنظام نفسه •

وزاد الطين بلة أن القوم حينما أرادوا علاج هذه المشكلة ، بوضع هؤلاء الجنود المرتزقة تحت القيادة القرطاجية ، انما استعانوا فى الوقت نفسه ، ببعض القادة اليونانيين الذين كانت لهم تجارب حربية معروفة ، وكان هذا مكمن الخطر ، ذلك لأن استخدام هؤلاء القادة اليونانيين انما كان يشكل — فى أحايين كثيرة — خطرا بالغا على الأمن القرطاجى نفسه ، ذلك لأن أحتمال خيانتهم لقرطاج ، انما كان محتمل الوقوع فى أى وقت ، بسبب رغبة اليونان الجامحة فى السيطرة السياسية والاقتصادية على قرطاج — كما حدث فى صقلية على أيام الصراع العنيف بين الاغارقة والقرطاجيين — والتاريخ يحدثنا أن «أجاثوكليس» انما حاول اغـراء «افللاس» — وهو ضابط اغريقى فى الجيش البطليمى فى مصر — ليعمل ضد قرطاج ، على أن يكون ملكا عليها ، ان كتب له النصر على القرطاجيين — الامر الذى فعلوه مع مصر مرات عديدة ، خاصة اذا كان القتال ضد أبناء جلدتهم من اليونانيين — ، وان كان هذا لا يمنع من القول من أن هناك من المرتزقة من كان على ولاء لقرطاج(١٨) .

ومع ذلك ، فليس هناك من سبيل الى شك ، من أن القرطاجيين انما كانت لهم قوتهم الحربية الهامة ، كما كان لهم أسطولهم القوى ، والذى كان يمثل قوة الدفاع — فضلا عن الهجوم — الرئيسية ، ذلك لأن خبرة القرطاجيين الطويلة بفنون الملاحة — التجارية والحربية — فضلا عن درايتهم العملية ببناء السفن وتجهيزها ، الى جانب ما تتميز به سفنهم على السـفن اليونانية والرومانية ، من صـغر فى الحجم ، وسرعة فى الحركة ، وقدرة على التكتيك الحربى السريع أثناء المعارك البحرية ، كل تلك الامور انما قد أتاحت لهم السيادة البحرية الى حد كبير ، وبالتالى

---

(١٨) أنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٣٤٦ — ٣٥٠ ، مصر — الجزء الثالث ص ٦٥٦ ، ٦٦٣ — ٦٦٤ ، ٦٨٨ — ٦٨٩ ، وكذا

Herodotus, III, 13-16.
A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 361-362.
D. J. Wiseman, Op. Cit., P. 94-95.

تدعيم التنظيم السياسى القرطاجى ، الامر الذى ســاعد على تثبيت الدولة القرطاجية فى المغرب وحوض البحر المتوسط ، كقوة سامية تواجه القوى اليونانية والرومانية المعاصرة فى تلك المنطقة ، خاصة وأن الدولة القرطاجية انما دخلت فى صراع مرير مع تلك القوى اليونانية فى المرحلة الاولى من العصر القرطاجى ، ثم استمر هذا الصراع فى المرحلة الثانية من العصر القرطاجى مع القوة الرومية(١٩) .

---

(١٩) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٨٦ ــ ١٨٧ .

الفصل الثانى

الحياة الدينية والاقتصادية

(١) الحياة الدينية

(١) فيما قبل العصر القرطاجى :

لا ريب فى أنه من الصعوبة بمكـــان أن نقدم صـــورة واضحة عن المعتقدات الدينية[1] لبربر ليبيا ، قبل وصول التأثيرات البونية الفينيقية ، ثم فيما بعد الرومية ، ذلك لأن آثار عصور ما قبل التاريخ لا تقدم لنا أكثر من الطقوس ، بل ان معرفتنا عن أفريقيا الصـــغرى تضيق حتى تصبح مقصورة على الطقوس الجنازية[2] ، ومن ثم فليس أمامنا سوى الاعتمـــاد على المؤلفين القدامى ، فضلا عن قليل من نقـــوش العصر الرومانى ، والتى قد تتفق أو لا تتفق مع العصر ــ موضوع الحديث ــ وعلى أية حال ، فان شعور القداسة عند الليبيين انما يتبلور حول عدد

---

(١) لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الدين بمعناه الواسع ليس محصورا فى نطاق الاديان السماوية المستندة الى الوحى السماوى ، والتى تتخذ معبودا واحدا ، هو الله الخالق المهيمن على كل شىء ، فالديـــانة الطبيعية المستندة الى محض العقل ، والديانات الخرافية وليدة الخيالات والاوهام ، وكل ديانة تقوم ، هى أو جانب منها ، على عبادة التماثيل أو العجول وغيرها من الحيوانـــات أو النبـــات أو الكواكب أو الجـــن أو الملائكة .. الخ ، انما هى دين لأن القرآن الكريم سماها دينا ، يقـــول تعالى فى آل عمران (آية ٨٥) «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الاخرة من الخاسرين» ، بل ان القرآن الكريم انما يسمى معتقدات الاخرين دينا ، حتى ان كان هذا الدين هو الكفر ذاته ، يقـــول تعـــالى «لكم دينكم ولى دين» (سورة الكافرون آية ٦) ، وفى صحيح البخـــارى (٦/٢٢٠ ــ كتاب التفسير) عن قول الله تعالى «قل يا أيها الكافرون» : يقال لكم دينكم الكفر ، ولى دينى الاسلام .

2) G. Camps, Aux Origines de la Berberie, Monuments et rites Funeraires Protohistoriques, Paris, 1961, P. 461.

كثير من الاشياء المختلفة ، فقد كان القوم يعتقدون فى ظهـور القوى الخارقة للطبيعة فى المناطق المحيطة بالريف ، حيث تعبد جنبات الجبال والانهار ، كما تشير كتابات العصر الرومانى[3] ، فضلا عن الاعتقاد بأن القوى الالهية يمكن أن تحل فى الاشياء الشائعة العامة .

وهناك ما يشير الى عبادة الصخور المستديرة أو المدببة مثل الحصى الجرانيتى الذى يرمز للوجه الانسانى أو للاعضاء التناسلية[4] ، ويشير «بومبونيوس ميلا» (Pomponius Mela) ، و«بلينى الاكبـر» (٣٢ — ٧٩ ق.م) الى صخرة فى «برقة» كان محرما لمسها خوفـا من هبوب الرياح الجنوبية ، هذا فضلا عن عبادة مصادر الميـاه العذبة ، وخاصة العيون والابار ، ويشـير القديس «أوغسطين» (٣٥٤ — ٤٣٠ ق.م) الى أنه فى يـوم ٢٤ أغسطس من كل عـام ، كان النوميديون يمارسون طقوسا تقضى بالغطس فى البحر ، ولم تكن عبـادة الاشجار مجهولة ، ومن ثم فقد طـالب مجمع دينى أفريقى فى القـرن الرابع الامبراطور أن يبطل عبادة الاوثان «حتى الاشجار والغابات» .

هـذا ، وطبقا لروايـة «نقولا الدمشقى» ، فلقد كانت طقـوس الاستحمام فى البحر فى الانقلاب الصيفى ، وعبادة المـاء والاشجار ، انما هى مظـاهر لتقديس الخصب الذى عبـر عنه بطريقـة مبـاشرة «الدابسوليون» (Dapsolibues) وبمجرد أفول كوكب الثريا ، وبحلول الليل تنسحب النسـوة ، ويطفئن أنوارهن ، ثم يلحق الرجـال بهن ، ليتزوج كل واحد منهم صاحبته التى جمعته الصدفة بها ، وهنـاك ما يدعو للاعتقاد بأن هؤلاء «الدابسوليين» (Dapsolibues) هم حقيقة

---

(٣) أنظـر :

M. Leglay, Saturne ofucain, Histoire, Bibliotheque de L'Ecole francaise d'archeologie de Rome, Fasc. 205, Paris, 1966, P. 420, Note 7, 421, Note, I.

W. Vycichl, Die Mythologie der Berber, 197٦, P. 623-624.

4) E. Gobert, Essai sur la Litholatrie, BA, 89, 1948, P. 24-110.

W. Vycichl, Op. Cit., P. 695-697.

«الدابسو — ليبيون» أو «الليبيون الاغنياء» ، وهذا ما يفسر بوضوح ولعهم بطقوس الخصب فى «ليلة الاخطاء»(٥) .

وهناك ما يدل على أن الليبيين قد قدسوا الحيوانات التى ترمز الى قوة التوالد — وخاصة الثور والاسد والكبش — ويشير «كوريبس» (Corippus) الى أن «اللجوانتانيين» (Laguantan) فى «سرته» (Syrtis) انما كانوا يطلقون الثور — وكان يمثل معبودهم جوزيل بن أمون — على أعدائهم ، هذا وقد زينت كل من المقبرة الملكية فى مقابر «روميا» ، على مقربة من «شرشال» ، والضريح الفخم فى «دجة» بتماثيل أسود ، ولكن «الكباش» انما كانت الهدف الرئيسى للعبادة(٦) ، والتى يحتمل أنها كانت قد انتشرت فى شمال أفريقيا ، قبل أن تصبح الصحراء جرداء ، وطبقا لرواية «أثناسيوس» (Athanasius) فان الليبيين انما اعتبروا «الكبش» الها مقدسا تحت اسم «مأون»(٧) .

وقد اعتبرت الاسماك فى منطقة تونس الحالية مقدسة ، ومن ثم فقد تميزت المنطقة بشعائر عبادة الاسماك ، الامر الذى يفسر لنا الى حد ما وفرة الصور الخاصة بالاسماك التى عثر عليها على الفسفياء التونسية، والسمك — وهو رمز للذكورة — يقى من العين الشريرة ، ويظهر عضو تناسلى ذكر على شكل سمكة قاذفة بلقاحه بين عضو تناسل أنثيين على فسيفساء من سوسة ، والى جانب السمك ، فلقد انتشر المحار انتشارا واسعا ، كرمز للجنس المؤنث فى كل أفريقيا الصغرى ، وهى تخدم

---

(٥) جيهان ديزانج : البربر الاصليون — تاريخ أفريقيا — تورينو ١٩٨٥ ص ٤٤٦ ، وكذا

C. Muller, Fragmenta Hist. Graec. IIII, P. 462.

(٦) أنظر :

W. Vycicchl, Op. Cit., P. 695-697.

(٧) أنظر :

Ahmed Ghazal, The Historical Background of Amun and his Cult in The Western Oases and in The Libyan Greek Coolonies Before Alexander The Great, in BFA, Alexandria University, 1978, P. 103-126.

الاحياء بما فيها من جمال ، وتريح الموتى فى قبورهم[٨]

هذا وقد أعتبر القوم بعض أجزاء الجسم الانسـانى — وخاصة الشعر — وعاء للقوى الخارقة للطبيعة — وقد وجه «بيكار» النظر الى عادة انتشرت بين الليبيين ، وهى تجميع الشعر فى ضفيرة واحدة تتجمع فى خصلة (كالعرف أو الذؤابة) أعلى الرأس ، وطبقا لرواية «سترابو» فان «الموروسيين» (Maurusitans) كـانوا يتجنبون الاقتـراب من بعضهم البعض أثناء المشى حتى لا يفسدوا أناقة تصفيف شـعورهم وهذا لم يكن امارة دلال، أو حفاظا على أناقة ، بقدر ما كان — فى أكبر الظن — خوفا عقديا على رجولتهم ، وطبقا لرواية «هيرودوت» فلقد كان يصحب فلى الشعر شعيرة معينة للانتقام عند نسـاء «الاديرماخيين» (Adyrmachidae)[٩] .

وكان القوم يحيطون الجسد بعناية بعد الموت ، ويذهب «كامبس» الى أن الميت انما كان يدفن على جنبـه ثم تتم امالته أو ضمه ، وقبل ذلك فانه غالبا ما كان ينزع اللحم من العظم ، وعـادة تغطى العظام واللحم بتراب أحمر ، يعتقد أنه يعيد الحياة الى الجثة ، ويتم تزويده بالطعام ، كما توضع التمائم لحمايته فى الحياة الاخـرى ، وأما عادة تقديم الاضاحى على قبـر الميت ، فكانت تتم فى منطقة لذلك تواجـه الشمس المشرقة ، وأحيانا كان يرمز للقوة الحيوية للمبيت بنصب ضخم على هيئة مسلة أو لوحة تذكارية .

ويذهب «هيرودوت» الى أن النسامونيين انمـا كانوا يستشيرون أجدادهم حول المستقبل بالنوم فوق القبر ، ومن ثم فقد ذهب «كامبس» الى أن هذه الشعيرة انمـا كانت سببا فى وجود ركام ترابى فى شـكل

---

(٨) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٤٦ .

(٩) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٥٠ ، وكذا Herodotus, IV, 168.

المنصة العالية فوق القبر ، ومن المحتمل أنها انتشرت انتشارا واسعا بين الصحراويين ، فقد عبروا عن دهشتهم من أن «الاطلنطيين» (Atlantes) لم يروا قط أية رؤيا في نومهم ، كما يذهب «هيرودوت» الى أن «الساموتيين» انما أعتادوا — عندما يقسمون على شيء — أن يضعوا يدا على قبر أحد المشهود لهم بالعدل والخير ، ويبدو أن هذا رمزا لعبادة الموتى الناشئة[10] .

وعلى أية حال ، فان هناك ما يدل — منذ عصور ما قبل التاريخ — على نشأة جبانات كاملة حول قبور معينة ، كان أصحابها — دونما ريب — من ذوى المكانة والاعتبار أثناء حياتهم[11] ، الامر الذى أدى الى أن يتساءل «كامبس»[12] عما اذا كانت عبادة مشاهير الموتى قد أدت الى قيام أو تغيير بنيه التجمعات السكانية فى العصور البونية الرومانية ، وكان من الطبيعى عند قيام أية مملكة أن تنشأ فيها على الفور عبادة لملوكها الراحلين[13] .

وعلى أية حال ، فان الليبيين لم يتعبدوا لمعبودات كبرى ممثلة فى صورة بشرية ، أو حتى شبه بشرية ، وطبقا لرواية «هيرودوت» فقد كانت قرابينهم مقصورة على الشمس والقمر — وقد سادت عبادتها كل منطقة الشرق الادنى القديم فى معظم الاحايين — ومع ذلك ، فان سكان منطقة الجريد انما كانوا أكثر ميلا لتقديم القرابين الى «أثينا» (Atlantes)

---

(١٠) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٥٠ ، وكذا
Herodotus, IV, 172, 184.
G. Camps, Op. Cit., P. 461-466.

(١١) أنظر عن هذه العادة فى مصر (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ١٤٠) .

12) G. Camps, Op. Cit., P. 564.

(١٣) أنظر عن هذه العادة فى مصر (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ، الحضارة المصرية القديمة ص ١٢٨ ، وكذا
A. R. Schulman, A Cult Ramesses, III, at Memphis, JNES, 22, 1963, P. 1771184).

و «بوسيدون» (Poseidon) و «تريتون» (Triton) وفى نفس الوقت لعن «الاترانتيون» (الاطرانطيون = Atarantes) وهم الجيران الغربيون للجرمانتيين — الشمس ، بينما قدم «ماسينسا» (Massinissa) — طبقا لرواية شيشرون ١٠٦ — ٤٣ ق٠م — الشكر للشمس وغيرها من آلهة السماء ، وعلى أية حال ، فلقد استمرت عبادة الشمس فى عدة مدن فى أفريقيا الرومانية مثل «مكثر» و «سبيطلة» (فى تونس) ، و«دجة» (على الساحل الجزائرى ، غربى بلدة جيجل مباشرة ، شرق خليج بجاية) ، وان هذا لا يمنع من القول بأن المصادر المنقوشة والادبية انما تكشف عن عدد وفير من المعبودات ، لا ترد أسماؤها غالبا ، الا مرة واحدة ، وأحيانا يشار اليها اشارة جماعية ، مثل المعبودة «المورية» Dii Mauri ، كما عثر على نحت يشبه هيكلا مكرسا لسبعة من المعبودات ، على مقربة من البجة[١٤] .

وأما وجهة النظر القائلة بأن هناك الها واحدا كبيرا للبربر الليبيين ، فان هناك من يرى أن «أمون» — اله العاصمة المصرية طيبة (الاقصر) — انما كان فى طريقه لكى يصبح الاله السائد فى أفريقيا الصحراوية ، وأفريقيا الصغرى ، عندما ظهر الفينيقيون فى القارة ، ورغم أن هذه النظرية قد تكون مقبولة ، غير أننا لا نملك الادلة الكاملة لتأييدها[١٥] .

على أن هناك ما يشير الى أن عبادة آمون قد انتشرت فى الصحراء الغربية ، وأن أمون قد أصبح فى عهد الدولة الحديثة (١٥٧٥ — ١٠٨٧ ق٠م) فى مصر ، هو الاله الرئيسى للمعابد فى الواحات ، ورغم أن عبادة أمون بدأت تتقهقر فى مصر فى العصر المتاخر ، غير أن الليبيين فى الواحات انما قد تمسكوا بها فى اخلاص ، حتى أن عبادة أمون فى الواحات قد ازدهرت فى القرن الخامس قبل الميلاد ، بل أن شهرة

---

14) G. Camps, L'Inscription de Beja et le Probleme des Dii Mauri in RA, 98, 1954, P. 33-39.
وكذا جيهان ديزانج : المرجع السابق ص ٤٥٠ — ٤٥١ .

وحى أمون فى سيوه ، انما قد ذاعت — منذ القرن السادس قبل الميلاد — بين الاغريق النازلين فى برقة ، وكان له جمهور عارف بفضله ، فنشر شهرته فى عالم البحر المتوسط ، فكان الناس يقصدونه من آسيا الصغرى ومن بلاد الاغريق وقرطاج لاستشارته[١٦] .

ولعل هذه الشهرة فى التنبؤ هى التى دفعت الملك الفارسى «قمبيز» (٥٢٥ — ٥٢٢ ق.م) الى القيام بحملته المشهورة الى سيوه لتحطيم معبد أمون هناك ، والذى تنبأ كهنته بسوء المصير لقمبيز وفتوحاته ، وقد صدقت نبوءتهم[١٧] ، كما أن الاسكندر المقدونى قد أسرع عندما فتح مصر فى عام ٣٣٢ ق.م ، الى واحة سيوه — مقر وحى أمون — حيث رحب به كهنة أمون كابن للاله أمون ، الامر الذى اعتبره الاسكندر قرارا من الاله أمون يمنحه به السيادة على العالم ، ومنذ ذلك الحين أصبح مهبط وحى أمون فى سيوه (جوبيتر — أمون) ، احدى العجائب العظيمة فى العالم القديم ، وغدا معبده ومصدر الشمس فيه من الاشياء الشهيرة التى تستحق المشاهدة[١٨] .

(٢) فى العصر القرطاجى :

لا ريب فى أن العبادات فى «قرطاج» انما تشبه الى حد كبير تلك التى فى فينيقيا — حيث نشأت أصلا — وأما أهم المعبودات القرطاجية فهى :

١ — بعل حمون :

يعد «بعل حمون» هو الاله الاعلى فى العالم الفينيقى المغربى ، حيث

---

(١٦) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة — ترجمة وراجعه : عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى القاهرة ١٩٥٢ ص ٣٩٠ — ٣٩١ .

(١٧) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٦٦٦ — ٦٦٧ ، وكذا
Herodotus, III, 17-19.

(١٨) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣٩١
A. Fakhry, Siwa Oasis, Cairo, 1944, P. 84-98.

عرف بهذا الاسم ، وأما فى فينيقيا فهو «بعل»[١٩] ، وأما معنى اللقب «حمون» لبعل القرطاجى فهى «النارى» ، ويعبر عنه بشكل الشمس ،

---

(١٩) بعل : هو ابرز الالهة «الكنعانية ـ الفينيقية» ، ومركز مجموعة أخرى من الالهة ، وكلمة «بعل» معناه فى الاصل «سيد» ، ولهذا أمكن اطلاقه على آلهة أخرى ، ولكن «بعل الاكبر» كان اله العاصفة والبرق والمطر والاعصار كالاله «حدد» (هدد) عند البابليين والاراميين ، وتشير بعض الاساطير الى انه ابن «ايل» و «عشيرة البحر» بينما تشير اساطير أخرى الى أن زوج عشيرة هو «ادد» المعروف باسم «بعل» أو «السيد» أو «أدون» رب الرعد والعاصفة والبرق ، ومن ثم فهو اله خصب واخصاب .

ويوصف «بعل» فى بعض النصوص بأنه أقوى الابطال ، وهو الامير (زبل ، بعل ، بول اله عقرون فى التوراة) وهو أحيانا الشمس التى تضىء وأما اسمه «أدد» (حدد = هدد) فيشير من الناحية اللفظية الى الرعد وأمطار الشتاء ، تعبيرا عن مظهر القوة ، ولكنه لم يظهر الا بصورة ثانوية كاله للزراعة الناتجة عن المطر ، وهو يوصف كأنه محارب صغير يبدو فى دثارة القصير مسلحا ببلطة الحرب وحربة البرق ، وعلى غطاء رأسه قرنا ثور ، اشارة الى قوة اخصابه .

وهناك اشارة تتعلق بصفات «بعل» فيما يختص بالخصب والزراعة ، وهو ما تزال موضع خلاف ، فى تفسيرها وترجمة جزئيات منها ، فضلا عن الخلاف حول أسماء الالهة ، بل ان هناك من يرفض وجود ابن للاله بعل يسمى «عليان» ، ويفسرون اصطلاح «عليان بعل» (عاليان بعل) بانه صفة للاله بمعنى الرفيع أو العالى ، وليس اسما لابن بعل ، وأما الاسطورة ذاتها فتدور حول صراع بعل وابنه عليان ضد المعبود «موت» (وهو عند فيلون بمعنى الموت ، وعند ديسو بمعنى البطل المحارب) الذى يسمى حرارة الصيف ، ويبدأ الصراع ببعل قويا قبل وصول موت ، فيرسل الصواعق والمطر مدرارا ، فضلا عن الرياح والاعاصير ، كما يحدث فى شهر شباط ، غير أن سلطان بعل سرعان ما ينهار أمام قوة «موت» الذى يامر بأن تسود الحراراة والدفء ، وهكذا يموت بعل أولا ، وينزل الى باطن الارض ويبقى ابنه عليان (عاليان) بمفرده بعض الوقت ، متمثلا فى الثمر على الشجر ، تحت وطأة حرارة الشمس القوية ، وأخيرا يضطر عاليان الى السقوط واللحاق بوالده داخل الارض ، ولكنه قبل وفاته يلتقى بأخته وزوجته «عينات» (عين أو نبع الماء) واجتماعهما يمثل الربيع ، وتبحث عينات عن أخيها حتى تجده تحت الارض فتخرج جسمه وتذهب به الى قمة جبل «سافون» ، حيث تدفنه وتضحى من أجله ، ثم تفتش عن موت وتسأله أن يرد أخاها الى الحياة ، فيرفض فتقتله ، وتصف النصوص مشهد مقتله متمثلا فى سنابل القمح التى تنضجها حرارة الصيف ، ثم تعيد أخاها الى الحياة ، وتستأنف الدورة الزراعية سيرتها من جديد (أنظر : نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٦٨ ـ ٧١ ، محمد بيومى مهران ـ المدن الفينيقية ـ بيروت ١٩٨٩ ص ٢١٥ ـ ٢١٨ ، ج. كونتنو : المرجع السابق =

وقد شبه فى العصور الرومانية بالمعبود «ساتورن» (Saturnus) [٢٠]
وقد أورد «هنو» (Hanno) وغيره ذكر معبـده فى «قرطـاج» ، وربما اقترن قبل ذلك بالمعبود «زيوس» (آب هرقـل / ملقارت) ، ذلك لان المعبود الرئيسى الذى كان يذكر ، فيمـا يتصل بقسم «هانيبال» عن العداوة المستعمرة الاوار ضد روما ، كان هو «زيوس» الذى تم القسم أمام محرابه • هذا وكرست لوحـات تذكارية فينيقية غريبـة للمعبود «بعل حمون» و «تانيت بينى بعل» معـا ، وهو يبدو فيها أقل الاثنين شأنا ، ومع ذلك فهو يظهر وحده فى لوحات أخـرى ، ومن الطبيعى أن يوجد له (أى بعل حمون) معابده ومحرابيه على جبل «بوقرين» (الذى يشرف على قرطاج عبر الخليج) [٢١] •

وربما كان «بعل حمون» انما يمثل اندماج بعل أفريقى شرقى باله أفريقى (ليبى) قريب الصلة بالمعبود «زيوس أمون» ، ومن هنا اتجه البعض الى اعتبار «بعل حمون» (Baal Hammon) (ويدعى أحيانا «بعل عمون») ذى صلة بالمعبود المصرى «أمون» ، وربما أمكن تأييد هذا الاتجاه على أساس أن الاله أمون قد انتشرت عبادته فى شمال أفريقيا ، وقد عثر الباحثون على رسوم لأكباش مقدسة على رأسها قرص الشمس فى ليبيا والجزائر ، ويمكن اعتبارها تماثل الكبش المصرى المقدس الذى يرمز للاله أمون فى العاصمة المصرية طيبه (الاقصر) ، مع اختلاف فى نوع الكبش وشكله ، ومن ثم فربما تأثرت قرطاج بهذا المعتقد المصرى وظهوره مع الالهة الاخرى الفينيقية والليبية ، وربما يرجع هذا الاندماج الى العصر الفينيقى نفسه باتخاذ المعبود بعل الفينيقى مع المعبود أمون

=
ص ١٠٤ ــ ١٠٩ ، محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ص ١٤٠ ــ ١٤٢ ، وكذا

R. Dussaud, les Decouvertes de Ras-Shamra, (Ugarit) et L'Ancient Testament, 1914, P. 104.

J. Gray, Near Eastern Mythology, London, 1968, P. 80-90.

(٢٠) جيهان ديزانج : المرجع السابق ص

(٢١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٧٣ ــ ٧٤ •

المصرى ، الامر الذى أدى الى ظهور «بعل حمون» الذى يحمل الصفتين الفينيقية والمصرية ، والذى صور فى عدة أشكال ، منها ذلك الشكل الذى يصوره على هيئة انسان جالس على عرشه ، وبجواره تمثال لأبى الهول المجنح ، وأحيانا يحمل قرنى كبش ، هذا فضلا عن أن قرص الشمس المجنح ، والمصرى الاصل ، انما كان من الرموز المتصلة بهذا الاله .

وعلى أية حال ، فان المعبودات الفينيقية — بصفة عامة — انما تترادف أو تماثل قوى الهية أخرى تناظرها فى العقائد المختلفة ، فالاله «بعل» الفينيقى ، يرادف فى العقائد العراقية القديمة المعبود «أدأد» . و«ملقارت» اله مدينة صور ، يماثل الاله اليونانى «هيراقليس» ، و «داجون» الفينيقى يقترب من «أوناس» البابلى و «أشمون» يرادف «اسكليبيوس» اليونانى[٢٢] .

(٢) تانيت :

برزت «تانيت» (Tanit) فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كمعبودة شعبية ، وقد اختلف المؤرخون فى أصل هذه المعبودة ، غير أن عدم الاشارة اليها فى نصوص رأس الشمرا وصور وغيرها ، انما يؤكد أنها غير فينيقية كما أن أسمها الليبى ، فضلا عن عبادة البربر لها ، انما يدل على أنها بربرية الاصل ، وعلى أية حال ، فهى الهة الانتاج والخصوبة عند القرطاجيين ، وقد رمز لها بأمرأة ترضع طفلها ، كما مثلت على هيئة مثلث يمثل الجسم واليدين ودائرة تمثل الرأس ، كما مثلت فى أشكال أنثوية تحمل أسلحة ، مع ارتفاع ذراعيها ، تمثيلا بسيطا على مئات من اللوحات Stelae فى قرطاج وغيرها ، ولعل اهتمام البربر بالهة أنثى — بدلا من اله ذكر — انما يرجع الى أن المجتمعات القبلية ربما

---

(٢٢) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٥٧ ، ٢٠٩ — ٢١٢ ، ج. كونتنو : المرجع السابق ص ١٢٠ — ١٢١ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٥ ، وكذا

E. Drioton, G. Contenau and J. Duchesne - Guillemin, The Religions of The Ancient East, London, 1959, P. 76-78.

كانت تعطى أولوية خاصة للمرأة ، الامر الذى يجعلها تمثل رمزا للقوى الكامنة فى ظاهرة الاخصاب •

وأيا ما كان الامر ، فلقد توافق انتشار عبادة «تانيت» مع التوسع الرومانى فى أفريقيا ، وقد طبق الرومان هويتها على هوية جينون كويليستيس = Junon Coelestis) ، لأنها تبرز مظاهر الاخصاب ، فهى تدين بالكثير للمعبودتين الاغريقيتين «هيرا» و «ديمترا» ، وقد عثر لها على معبد فى «نورا» ومجموعة ضخمة من اللوحات والاوانى الجنازية[٢٣] •

(٣) عشتارت :

عشتارت أو عشتار (وجمعها عشتاروت) هى الصفة المؤنثة من البعل ، أى بعلة ، أو السيدة ، وأصح نطق لها ، فيما يرى البعض «عشترة» (بالتاء المربوطة للمؤنث) — كما جاء فى رسائل العمارنة — وتنطق فى النصوص اليونانية «أشتاريته» ، وقد أطلق العبرانيون عليها — كما فى سفر الملوك الاول من التوراة —[٢٤] «عشتورت» ، وليس هناك من شك فى أن عبادة عشتا هذه انما انتقلت الى قرطاج عن طريق الفينيقيين •

(٤) اشمون :

أشمون هو فى الاصل بعل مدينة صيدا وسيدها ، ولم يكن يحمل لقب بعل ، وقد قرنه اليونان بمعبودهم «اسكلبيوس» ، الذى يشرف على الشفاء ، هذا فضلا عن خصائص الخصوبة التى عرفت عنه ، ومن ثم فهو — فى نظرهم — اله الطب ، وعلى أية حال ، فان اشتقاق اسم «أشمون» غير معروف على وجه اليقين ، ويذهب «ليدز بارسكى» الى

---

(٢٣) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، وكذا
B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 129-130.

(٢٤) ملوك أول ١١/٥ ، ٣٣ ، كما أطلقت عليها التوراة ملكة السماء (ارميا ٧/١٨ ، ٤٤/١٧ — ١٩ ، ٢٥) •

أنه صيغة مشـــتقة من «شيم» بمعنى الاســم الاعظم ، و«شيم» من الالقاب المقدسة التى بطلت عندما ظهر لقب «أشمون» ، ومن ثم فلفظة أشمون انما هى مجرد صفة كمعظم الاوصاف التى تطلق على البعول الاخــرى[٢٥] •

هذا وقد كشف عن معبد أشمون فى صيدا عام ١٩٠١م ، على الضفة الجنوبية من نهر «أوالى» على مقربة من مصبه فى بستان الشيخ[٢٦] •

وهناك ما يشير الى أن أشمون انما قد أصبح معبودا أكثر قوة فى قرطاج ، ولعله قد فاق المعبود «ملقارت» نفسه ، فلقد وقف القرطاجيون فى دفاعهم الاخير عن مدينتهم فى عام ١٤٦ ق٠م ، عند معبد أشمون الذى كان فى قلعة المدينة ، أو فى منطقة بيرصة (Byrsa) — أقدم جزء فى قرطـاج[٢٧] •

(٥) ملقــارت :

ملقارت هو «ملكرث» معبود صور ، وكلمة «ملقـــارت» تتكون من كلمتين فينيقيتين ، هما «ملك» بمعنى «ملك» ، و«قارت» بمعنى «مدينة» أى «ملك المدينة أو اله المدينة» ، وهذا يعنى أن «ملقـــارت» انما هو ملك المدينة وبعلها ، أى سيدها ، وقد شبه الاغـارقة ملقارت بهرقل ، هذا ، وطبقا لنقش من مالطة ، فلقد لقب «ملقارت» بلقب «بعل صور»، وقد انتشرت عبادته من صور الى قبرص ومصر وقرطاج وغيرها[٢٨] •

هذا وكان ملقارت فى الاصل معبودا شمسيا ، ثم سرعان ما أكتسب خصائص بحرية بعد أن انتقل عبر البحر غربا ، وقد ظهرت عبادته فى أكثر من مكان فى الغرب ، فظهرت فى «جـاديس» (كاديز — قادس) ،

---

25) Lidbarski, in Encyclopaedia of Religion and Ethics, IX, 892.
26) D. Baramki, Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961, P. 109.
(٢٧) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨٥ •
28) R. Dussaud, les religions des Hittites et des Hourites, des Phoeniciens et des Syriens, Paris, 1949, P. 365.
G. A. Cooke, A Text-Book Semitic Inscriptions, Oxford, 1903, P. 74.

حيث كان له معبد أسسه فينيقو صور منذ القرن الثانى عشر ، وقد قدم لنا وصفا له فى القرن الاول الميلادى الكاتب «سليوس ايتاليكوس» ، ويشير الى قيام العبادة فيه عن طريق كهنة على النمط الفينيقى ، حفاة الاقدام ، يرتدون الكتان ، وأن النار به انما كانت شعلة دائمة ، وان لم يكن به تمثـال عبادة ، كما كان لملقـارت معبد آخـر على مقربة من «لكسوس» على شاطىء المحيط الاطلسى •

ويرجح الباحثون أن «ملقارت» هو المعبود الذى كـان يضحى له بالاطفال تحت اسـم «مولوخ» أو «مولك» (الملك = الاله الرهيب) ، وكان القوم حين يحز بهم الامر ، يضحون بأطفالهم ، فيحرقونهم أحياء ، تقربا له ، كما حدث أثناء حصار قرطاج فى عام ٣٠٧ ق•م (وربما فى عام ٣١٠ ق•م) ، حيث أحرق على مذبح الاله الغاضب مائتا غلام من أرقى الاسرات ، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامـير تغطى على صراخ الاطفال وهم يحترقون فى حجر المعبود ، وقد عثر فى قرطاج على جبانة واسعة تضم جثثا لأطفال معظمهم دون الثانية ، وان كانت هنـاك قلة ضئيلة تصل الى عمر الثانية عشرة •

هذا وقد عثر فى بعض مزارات ملقارت على البقايا المحترقة لهؤلاء الاطفال مدفونة فى جرار ، ومن المعروف أن تمثاله كان صنما من النحاس المجوف تشعل فيه نار حامية ، ثم تقدم له الذبيحة البشرية ، كما عثر على نظائر لهذا المكان فى «نورا» أو «نورى» (Nora - Nurri) ، وفى «موتيا» (Motya - Mozia) وفى جهات أخرى فى الشمال الافريقى ، مثل «سوسة» (حضرو متوم = Hadrumatum) ، حيث وجد أحد هذه الاماكن ، ويضم طبقات متعددة ، ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد[٢٩] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك معبودات من الدرجة

---

(٢٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨٠ ـ ٨٢ •

الثانية عند القرطاجيين ، لعل من أهمها : أدونيس : وقد شبهه الرومان بمعبودهم مركور ، واسم أدونيس مشتق من كلمة سامية معناها «سيد»، وهى كلمة «أدون» التى نجدهـا فى العبرية والفينيقية والاوجاريتية ، والاصـل فى أدونيس هو «أدونى» (سـيدى) فحرف فى اليونـانية واللاتينية الى أدونيس Adonis [٣٠] .

وهناك «بس» ، وهو قزم مشوه الخليقة شنيع ، نجد له أمثالا فى أسيا الصغرى ومصر[٣١] .

وهناك «جوبيتر أمون» — كما أشرنا من قبل — وهو معبود أفريقى، وقد اختلط الاسمان فيما بعد ، حتى اتخذ «جوبيتر أمـون» الافريقى شخصية «زيوس كوبليستيس» عن طريق بعل حمـون ، ثم اختلطت الخصائص ، مع أن الاسمين فى الواقع لمعبودين مختلفين ، كما يدل على ذلك هجاء اسمهما الاصلى ، غير أن حروف «بعل حمون» لم تلبث أن نسيت ، وشاع رسم الاسم خطأ باسم «بعل أمون»[٣٢] .

ولعل مما تجـدر الاشارة اليه أن الغـالبية العظمى من الاسـماء القرطاجية انما يدخل فى تركيبها أسماء الالهة (Theophoric) ، وليس من شك أن ذلك انما كان بقصد ترضية الالهة والتبرك بها ، وعلى سبيل المثال ، فان «حملقرت» انما يعنى «حبيب ملقارت» ، و «حنبعل» يعنى «حبيب بعل»[٣٣] .

---

(٣٠) أنظـر :

W. R. Smith, Lectures on The Religion of The Semites, London, 1827, P. 68, 411.

E. Dharme, Les religions des Babyloine et d'Assyrie, Paris, 1949, P. 115, 134.

(٣١) أنظر عن «بس» فى مصر (محمد بيومى مهران : الحضـارة المصرية القديمة ص ٣٣١ — ٣٣٣ ، وكذا

A. E. Budge, The Gods of The Egyptians, II, London, 1969, P. 285.

S. A. Mercer, The Religion of Ancient Egypt, 1959, P. 189).

(٣٢) ج. كونتنو : الحضارة الفينيقية ص ١٢٧ .

(٣٣) ب.هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٥ .

ولعل من الاهمية بمكان أن نتوقف هنا قليلا ، لنتحدث بايجاز عن عـادة «التضحية البشرية» والتى تعرضت من أجلها الحيـاة الدينية القرطاجية لنقد شديد من جميع الكتاب القدامى ، ومن البدهى أن الحياة الدينية فى معظم منطقة الشرق الادنى القديم قد تعرضت لنفس النقد لممارستها نفس تلك العادة السيئة ، عادة التضحية البشرية •

هذا وقد أثبتت الحفريـات التى تمت فى قرطاج وسوسة وقرطـة (قسنطينة) ، فضلا عن عدد آخـر من المستوطنات الفينيقية فى خارج أفريقيا ، أن القرطاجيين انما كانوا يمارسون تلك العادة السيئة ـــ عادة التضحية البشرية ـــ ومن هذه المكتشفات أفنية دفن مقدسة تضم الجرار والعظام المتكلسة للاطفال ، وتتميز بلوحـات تذكارية اشارة الى تقديم القرابين عموما الى «بعل حمون» ، ولكن غالبا ما كانت تقدم أيضا الى «تانيت» •

وطبقا المصادر المتاحة ـــ وهى على أية حال ليست فوق مستوى الشبهات ـــ فان الضحايا انما كانت فى أغلب الاحايين من الرجـال ، وكانت سنوية واجبارية على العائلات البارزة ، ومن المؤكد أن هذه العادة السيئة اندثرت فى فترة ما ، غير أن حادثا ـــ كحصار قرطاج عام ٣١٠ ق•م ـــ انما يدل على أنه كان من الممكن احياؤها فى أوقات الازمات ، عندما كان يعتبر تجاهلها سببـا فى غضب الالهة ، وليس هناك من ريب فى أن العقائد الدينية القرطاجية انما كانت تؤكد على ضرورة تهدئة القوى الالهية المتقبلة واسترضائها ، فضلا عن الحصول على النصر فى الحروب، والرفاهية فى المجتمع الدنيوى[٣٤] •

وفى الواقـع ، رغم أن القرطاجيين انمـا نقلوا هذه العـادة عن الفينيقيين ، فالامر الذى لا شك فيه أن كثيرا من مجتمعات الشرق الادنى القديم انما قد عرفت عادة «التضحية البشرية» التى كانت تقدم على

---

(٣٤) ب•هـ• وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٥ •

مذابح الالهة الوثنية ، وتدلنا حفائر «أور» (تل المقبـــر الحالية ، على مبعدة ١٢٠ ميلا الى الشمال من البصرة فى جنوب العراق) على قدم تلك العادة ، فقد كان السومريون يدفنون ملوكهم ، ومعهم بعض حاشيتهم وخدمهم ، ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم قد ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته ، وفيها أثـــر الذبح أو الخنق أو الضرب العنيف .

ويذهب «سير ليونـــارد وولى» الى أنهم انمـــا كانوا يتجرعـــون باختيارهم عقارا ساما يخدرهم ويميتهم ، لايمانهم بالانتقال مع الملوك الارباب الى حالة فى السماء ، كحالتهم فى الحياة الارضية ، وقد وجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعا يشبه رأس الحيوان ، والمظنون أن هذا الزى كان مقدمة للذبح الرمزى ، واجـــراء الشعائر مجرى التمثيل فى الاحتفالات العامة ، ولا سيما الاحتفال بعيد رأس الســـنة[٣٥] .

هذا وتشير التوراة الى أن «السفرو ايميين»[٣٦] (أبو حبة الحالية فيما يرى رسام) ، انما كانوا يحرقون بنيهم بالنار ، كتقدمات لآلهتهم الوثنية[٣٧] ، وربما كانوا قد أخذوا هذه العـــادة عن السومريين الذين سبقوهم فى سكنى هذه المنطقة من قبل[٣٨] .

وتدلنا مقبرة «حعبى زفاى» ، الحـــاكم المصرى فى كرما ، جنوب الشلال الثالث فى السودان ، على أيام الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ — ١٧٨٦ ق.م) على اتباع نفس عادة التضحية البشريـــة ، ومن ثم فان

---

(٣٥) أنظر : عباس العقاد : ابراهيم أبو الانبياء ص ١٧٢ وكذا
Sir L. Wooiley, Ur of The Chaldees, London, 1950.
Sir L. Woolled, Excovations at ur, London, 1963.

(٣٦) أنظر عن «السفروايميين» (محمد بيومى مهـــران : اسرائيل — الكتاب الاول — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ١٦٣) .

(٣٧) ملوك ثان ٣١/١٧ .

(٣٨) حبيب سعيد : خليل الله فى اليهودية والمسيحية والاسلام ص ١٠

«جورج رايزنر» الذى كشف عن مقبرة «حمبى زفاى» فى كرما فى عام ١٩١٤ / ١٩١٥م[٣٩] ، يقول «أقيمت مأدبة جنازية فخمة ذبحوا فيها أكثر من ألف ثور ، دقوا رؤوسها حول النصف الجنوبى للدائرة من الخارج ، ثم وضعوا جسد الامير فى الحجرة المقببة ، والى جانب القرابين ، ثم اقفلوا الباب الخشبى ، وأمـا الضحايا فكانوا جميعـا من النوبيين ، وكانوا اما أن يخدروهم أثناء الحفل منوما ، أو كـانوا يخنقونهم ، ثم يحملونهم ليضعوهم فوق أرضية الدهليز ، وكان عددهم يتراوح ما بين مائتين وثلاثمائة ، من الرجال والنساء والاطفال ، ثم وضعوا معهم بعض أوان وقدور ، أحيانا نجد سيفا الى جانب صاحبه ، فضـلا عن حليهم الشخصية ....»[٤٠] .

ولم تكن مصر بمنأى عن هذه العادة السيئة ، فهناك ما يشير الى معرفة القوم لعادة التضحية البشرية منذ عصور ما قبل الاسرات ، وأثناء عصر التأسيس ، وربمـا يرجع ذلك الى رغبـة الملوك ، وربما رغبـة الاشخاص المضحى بهم أنفسـهم فى مصاحبة الملك سيدهم فى العالم الاخر ، حتى يقوموا على خدمته هناك ، كما كانوا يفعلون فى هذه الحياة الدنيا[٤١] ، والامر هنا ــ كما هو فى العراق أو السودان أو حتى قريب منه ــ فان هؤلاء الاشخاص المضحى بهم لم يدفنوا أحيـاء ، كما أنه لا يوجد أثر للعنف فى جثثهم ، وأكبر الظن أنهم قد أعطوا شرابا مخدرا ، أو كميات من السم ، قبل دفنهم[٤٢] ، غير أن المصريين سرعان ما أقلعوا

---

39) G. A. Reisner, in Bullentin of The Museum of Fine Arts, Baston, 13, 1915, P. 72.

(٤٠) انظر : محمد بيومى مهـران : الثورة الاجتمـاعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ٢٠٩ ــ ٢١١ ، مصر ــ الجزء الثانى ص ٤٠١ ــ ٤٠٢
J. A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, P. 140.

(٤١) أحمد أمين سليم : دراسة تاريخية للحضارة المصرية أثناء عصر الاسرتين الاولى والثانية ص ٢٢٥ ــ ٢٢٧ وانظر :
W. B. Emery, Great Tombs of The First Dynasty, II, London, 1954, P. 142-158.

42) Ibid., P. 142.

عن هذه العادة القبيحة — كما تشير الى ذلك مقابر عصر التأسيس[٤٣] — والتى هى فى أصلها (أى عادة التضحية البشرية) انما هى عادة أفريقية تسربت الى الحضارة المصرية فى عصور ما قبل التاريخ[٤٤] .

هذا وقد عرف الفينيقيون والكنعانيون كذلك عادة التضحية البشرية، ومن ثم فقد كانت التضحية بالطفل البكر عرفا جاريا لدى الكنعانيين فى العصر العتيق ، وفى حفريات «جازر» (على مبعدة ١٨ ميلا شمال غرب القدس ، ١٧ ميلا جنوب شرق حيفا)[٤٥] ، دليل قاطع فى هذا الصدد ، فلقد وجدت بها عظام أطفـــال فى حالة بلاء بين بين ، مودعة فى أسس المنازل ، وقد احتفظ الفينيقيون بهذه العادة السيئة الى العصور القريبة، حتى روى «فيلون» الجبيلى النحوى (٦١ — ١٤١م) أنه كان من عاداتهم فى حالة الاخطار العامة أن يضحوا بأعز أبنائهم لابعاد الكـــوارث عن أنفســـهم[٤٦] .

وكان المؤابيون يمارسون عادة التضحية البشرية كذلك ، وطبقا لما جاء على الحجر المؤابى[٤٧] ، وفى التوراة[٤٨] ، فان «ميشع» ملك مؤاب

43) G. A. Reisner, The Development of The Egyptian Tomb, London, 1936, P. 128.

W. M. F. Petrie, Tombs of The Courties and Oxyshylabas, London, 1925, P. 3.

44) R. El-Nadowry, Human Sacrifice in The Ancient Near East, in Publications of The Archaeological Society of Alexandria, 1968, P. 5.

45) M. F. Unger, Op. Cit., P. 401.

(٤٦) ج. كونتنو : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٤٧) أنظر عن نص الحجر المؤابى وترجمته :

J. B. Pritchard, ANET, 1958, P. 209 F.

W. F. Albright, ANET, 1966, P. 32ᵧ-321.

G. A. Cooke, Op. Cit., P. 1-14.

S. A. Cook, Op. Cit., P. 372-373.

M. F. Unger, Op. Cit., P. 756.

R. Dussaud, Le Monuments Palestiniens et Judaiques (Musee du Louvre), Paris, 1921, P. 4-22.

J. Finegan, Op. Cit., P. 188-188.

(٤٨) ملوك ثان ٣/٤ — ٥ .

قد قام بحملة مظفرة ، نجح فيها فى توسيع ملكه على مدى خط العرض من الطرف الشمالى للبحـر الميت ، واخضـاع المستعمرات الاسرائيلية والمدن الخاضعة لاسرائيل فى الهضبة الخصبة شمال عرنون[٤٩] ، ثم نهب المعبد الاسرائيلى فى «نبـو» (خربة المخيط جنوب شرقى حسبان بخمسة أميال) ووهب سبعة آلاف من سكانها الى المعبودة «عشتار — كيموش» ، مما اضطر الملك الاسرائيلى «يهورام» (٨٤٩ — ٨٤٢ ق٠م) الى طلب العون من دولتى يهوذا وأدوم ، ثم القيام بهجوم على مؤاب[٥٠] الامر الذى دفع الملك المؤابى «ميشع» الى أن يضحى بولده البكر لالهه «كيموش» حتى ينقذه من هذه القوات المتحالفة[٥١] •

وأما فى بلاد العرب ، فلقد تبين من مخلفات المدافن فى «أم النار» فى «أبو ظبى» أنها تضم العديد من الهياكل العظمية المتكدسة فى المدفن المشترك ، هذا ويدل وجود الهياكل العظمية خارج الجدران الخارجية على ظاهرة التضحية البشرية التى تواكب مراسم الدفن ، حيث توضع جثث الاطفال الذين يضحى بهم مع بعض فى خارج المبنى الذى يضم جثة المتوفى[٥٢] •

هذا وقد عرف بنو اسرائيل أيضا التضحية البشرية ، وقد استمرت الى ما بعد عهد موسى عليه السلام (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)[٥٣] ونزول التوراة ، ومن هنا رأينا التوراة تحرم على بنى اسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا الى الالهة ، بل ان التوراة انما تجعل الرجم عقوبة لمن يقدم ولده قربانا لاله العمونيين «ملوك» ، حيث كان بنو اسرائيل يقدمون له ذبائح بشرية ، ولا سيما من الاطفال[٥٤] • ومع ذلك ، فقد

---

49) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 244-246.
50) S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, P. 372.
(٥١) ملوك ثان ٣/٢٧ •
52) K. Thorvildson, Kuml, 1962, P. 217-218.
G. Bibby, Looking for Dilmun. London, 1970, P. 212.
(٥٣) انظر عن عصر موسى عليه السلام (اسرائيل — الجزء الاول — ص ٣٥٧ — ٤٣٩) •
(٥٤) خروج ٢٢/٩ ، لاويون ١٨/٢١ ، ٢٠/٢٠

ظل بنو اسرائيل يقدمون أبناءهم لتحرق على المذابح ، كما فعل يفتاح الجلعادى — على أيام القضاة — فقد نذر للرب «ان دفعت بنى عمون ليدى ، فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون ، يكون للرب ، وأصعده محرقة»[٥٥] ، وهكذا ما أن يعود «يفتاح» من معركته ضد العمونيين منتصرا ، حتى تكون ابنته الوحيدة ، هى أول من يهب للقائه ، ومن ثم فقد اضطر — وفاء لنذره — أن يذبح ابنته قربانا لرب اسرائيل — يهوه — بعد شهرين من نصره على بنى عمون ، فصارت عادة فى بنى اسرائيل أن بنات اسرائيل يذهبن من سنة الى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادى ، أربعة أيام فى السنة[٥٦] .

وهكذا بقى بنو اسرائيل — وحتى عصر القضاة — يمارسون هذه العادة الشنيعة ، ربما ايمانا بها ، وربما تقليدا لجيرانهم الكنعانيين والفينيقيين والمؤابين وغيرهم ، رغم أنها ليست — ولن تكون أبدا — من شريعة موسى عليه السلام ، ورغم أن التوراة طالما نهتهم عنها ، بل وجعلت الرجم عقوبة لمن يرتكب تلك الفعلة الشنيعة ، مع ذلك كله لم يرعو بنو اسرائيل ، بل ظلوا يمارسون عادة التضحية البشرية حتى على أيام الملكية ، وحتى عصر النبى ارميا (٦٢٦ — ٥٨٠ ق.م) الذى نعى عليهم أنهم «بنوا مرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار» ، وحتى عصر «اشعيا الثانى» الذى يقول لقومه من بنى اسرائيل : «يا بنى الساحرة ، يانسل الفاسق والزانية ... أولاد المعصية ، نسل الكذب ، المتوقدون الى الاتهام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الاولاد فى الأودية تحت شقوق المعاقل»[٥٧] .

---

(٥٥) قضاة ١١/٣٠ — ٣١ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل : الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٦٤٢ — ٦٤٥ ، وكذا

O. Eissfeldt, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 557.
M. Noth, Op. Cit., P. 157-158.

(٥٦) قضاة ١١/٣٤ — ٤٠ .

(٥٧) أشعياء ٥٧/٣ — ٥ ، قاموس الكتاب المقدس ٢/٧٢١ — ٧٢٤.

وأما أشهر الأماكن التى كان يمارس فيها بنو اسرائيل عادة التضحية البشرية فهى «وادى هنوم» ، تقول التوراة «وبنو المرتفعات للبعل التى فى وادى بن هنوم ، ليجيزوا بنيهم وبناتهم فى النار لمولك ، الامر الذى لم أوصهم به ولا صعد على قلبى ، ليعلموا هذا الرجس ، ليجعلوا يهوذا يخطىء»(٥٨) ، ويقع وادى هنوم هذا فى جنـوب أورشليم (القدس) وغربها (وادى ربــابة الان) ، ويعرف القطــاع الجنوبى الشرقى منه باسم «وادى توفه» أو «وادى القتل» ، ولكى يتوقف الناس عن القتل وممارسة هذه الوحشية ، فلقد خصص المكان لالقاء القاذرات وحرقها ، ومن هنا عرف باسم «جى ــ هنوم» (ومنها جهنم أو مكان العقاب)(٥٩) .

ولم يكن سكان المغرب ــ قبل الفينيقيين ــ بمنأى عن هذه العادة الوحشية ، فقد كان البربر يفعلون ذلك أحيانا ، وطبقا لأبحاث كامبس ، فقد كان يقدم للميت ذبائح حيوانية كجواد مثلا ، وأحيانا كانت ترتكب جريمة قتل طقوسى ، حتى يتسنى للميت أن يحتفظ بخادم مخلص(٦٠) .

بقيت الاشارة الى أن القرطاجيين انما قد عرفوا ــ بجانب التضحية البشرية ــ نظام مفصل يشمل مختلف الاضاحى ، وكان نظام الكهانة يضم كهنة متفرغين ، وآخرين ممن ليسوا فى جماعة منفصلة ، هذا ورغم اتصال القرطاجيين بمصر ، فأكبر الظن ، أنهم لم يهتموا الا قليلا بفكرة الحياة بعد الموت ــ شأنهم فى ذلك شأن العبرانيين الاوائل(٦١) ــ وكان

---

(٥٨) ارميا ٣٢/٣٥ .

(٥٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨١ .

(٦٠) انظر G. Camps, Op. Cit., P. 461 F.

(٦١) كانت الديانة الاسرائيلية ــ كما تقدمها توراة اليهود المتداولة اليوم ــ تجهل الاخرة والحياة بعد الموت تماما ، اذ لم يرد فى أى موضع من التوراة ذكر لامكان حياة بعد الموت ، مع أن الايمان بالاخرة يتفــق تماما مع عقيدة التوحيد ، ذلك لان القوم انما كانوا يعتقدون أن الفرد يخدم الرب ويتلقى بركاته فى الدنيا ، وعندما يموت بعد عمر طويل مديد خصيب ، فانما هى النهاية ، وهذه النظرية الاسرائيلية تتعارض تماما مع

دفن الجثث — كما هي العادة المتبعة — وكانت محتويات القبور متواضعة، وتضم العديد من المقابر ، أقنعة صغيرة غريبة من الفخار ، والتي يبدو أن لها مغزا سحريا — كالتمائم والرقى — لدرء الأذى ، وطرد الارواح

=

الاصرار الدائم على الحياة الاخرة في كل الديانات السماوية والبشرية انما يفسرها تحـريف اليهود للتوراة ، فضـلا عن نظرة العبراني الى نفسه «كجسد حي» وليس «كروح متجسدة» ، ومن ثم فانه يعبر عن كل قيمة في حدود الحياة التي يعرفها عن طريق جسده في هذه الارض ، فلم يكن التمييز الحيوي عنده «بين الروحي والمادي» ، وانما «الحيوية والضعف» فالرجل الروحي هـو « الرجل ذو الروح العـالية) المليء بالحياة التي تملؤها قوة الرب بالحيوية ، وليس الرجل الروحي الذي يحتقر عـالم الحواس ، وكان من نتائج ذلك أن يفترض الفرد العبراني أنه بالامكان خلاص «روح» انسـان ما مع اهمال اخصـاب حياته وازدهارها على الارض ، وهكذا فقد العبراني التوافق بين المـادة والروح ، والاخـلاق والدين ، وكانت النتائج دائما وأبدا مدمرة .

وشارك كتبة أسفار الانبياء — بقية كتبة أسفار العهد القـديم في عدم الايمان بالحياة بعد الموت ، وان كان هناك نصان — الاول ملحق بسفـر أشعيا ، والثاني في سفر دانيال — ويرجعـان ربما الى القرنين الثالث والثاني ق.م ، وليس لواحد منهما تاثير على العقيدة في العهد القديم ، ومع ذلك فهما يفكران في البعث بعد الموت ، بعد أن كان القوم يعتقدون أن الانسان يتلقى البركات وحكم الرب في هذه الارض فقط ، وبجسـده وأن العودة الى الارض هي البعث ، لان الروح تنزل عند الموت الى عالم سفلي هو «شيول» Sheol ، وهو نقيض ما نعني به الضوء والحياة ، وشيول منطقة تكاد تقترب من العدم والنسيان ، وتنظر الى البشر كوحوش وتغلق عليهم أبوابها ، فسكانها من الاموات مجـرد ظلال ، يتمـيزون بالضعف الشديد ، وهم منقطعون عن تبعية الرب .

والرأي القائل أن الانسان عند الموت كالماء المنسكب على الارض ، كان السبب في أن تنصح التوراة في سفر الجامعة ، قراءها أن ينتهزوا كل فرصة ليتمتعوا الى أقصى الحدود ، وهذا يعني أنها تقدم لنا الحياة على أنها سابق مع الزمن ، على عكس أسفار الانبيـاء التي لم تهتم بقصر الحياة ، رغم اتفاقها مع بقية أسفار التوراة في عدم الاعتقاد بحياة أخرى (انظر : تكوين ٣٨/٤١ — ٤٥ ، قضاة ٢/٢ — ٢٢ ، أشعيا ٩/١٤ — ١١ ، ١٤/٢٦ ، ١٩ ، أيوب ٩/٧ ، ٥/٣٦ ، مزمور ١٠/٨٨ ، ١٨/١٠٧ ، أمثال ١٨/٢ ، جامعة ١٠/٩ ، موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٣٤ ، محمـد بيومي مهران : النبوة والانبياء عند بني اسرائيل ص ١٠٢ — ١٠٤ ، وكذا

S. Freud, Moses and Monotheism, N. Y., 1939, P. 18-29.

E. W. Heaten, The Old Testament Prophets, 1969, P. 134-137.

R. B. Scott, The Relevance of Praphets, 1944, P. 132-134.

G. Anderson, The History and Religion of Israel, 1966.

الشريرة[٦٢] ، وأكبر الظن أن القرطاجيين قد عرفوا هـذه التقاليد من اتصـالهم التجارى والحضـارى ــ برا وبحرا ــ مع أفريقيـا الزنجية والاطلاع على نماذجها الحضارية والتأثر بها ، تمشيا مع طريقتهم فى الاستزادة من الحضارات الاجنبية لاستكمال كيانهم الحضارى[٦٣] .

وأما تأثر الفينيقيين بالديانة الاغريقية ، فلقد كـان القرطاجيون ــ حتى تاريخ متأخـر ــ أقل تأثرا ، الى حد كبير ، بتلك الديانة ،رغم أنهم لم يكونوا على الاطلاق بمنأى عن تأثيرهـا ، فلقد أقرت عبـادة «ديميتر» (Demeter) و«كورى» (Kores) رسميا فى قرطاج ، ولكن العبادات المحلية لم تتأثر بالديانة الاغريقية على نطاق واسع[٦٤] .

(٢) ــ الحيـاة الاقتصادية

لا ريب فى أن قرطاج انما قد اعتمدت على التجارة أكثر من أيـة مدينة أخرى ، وأن الرجل القرطاجى الاصيل ، انما كان فى أذهان الناس وقت ذاك ــ وخاصة عند اليونان والرومان ــ تاجر بطبعه ، كما كانت قرطاج تمثل أغنى مدينة فى عالم البحر المتوسط ، ومع ذلك فان الثروة التجارية لم تترك آثارا تتفق ، وما اشتهرت به قرطاج من غنى وجاه ، فضلا عن أنها ــ (أى الاثـار) ــ أقل بكثير من آثـار المدن الكبرى ــ الاغريقية والاتزورية ــ التى ترجع الى نفس الفترة ، وليس هناك من ريب فى أن أحد الاسباب الرئيسية فى حالة قرطاج ، أن أغلب تجارتها انما كانت فى سلع لا تترك أثرا ، فأغلبها معادن غـير مصنعة ــ وهى الهدف الرئيسى من حركة الاستكشاف ، الفينيقية ــ ثم المنسـوجات والرقيق والمواد الغذائية التى تزايدت نتيجة لاستغلال أراضيها الخصبة ، وكانت تجنى الارباح من التجارة مع القبائل الداخلية التى جلبت منها

---

(٦٢) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٥ .
(٦٣) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢١٨ ــ ٢٢٠ .
(٦٤) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٥ .

الذهب والفضة والقصدير ، وربما الحديد أيضا ، ذلك لان قرطاج ــ كما هو معروف ــ انما كانت تصنع أسلحتها بنفسها ــ ٠

وليس من شك فى أن قرطاج انما قد حصلت على تلك المعـادن فى مقابل مصنوعات رخيصة ، ومن ثم فقد جنت أرباحا طائلة ، وليس أدل على وفرة الارباح من تلك الجيوش الضخمة التى استطـاعت قرطاج تجنيدها من المرتزقة فى القرنين ــ الرابع والثالث قبل الميلاد ــ هـذا فضلا عن سك العملة من الذهب ، على نحو تجاوز ما فعلته المدن المتقدمة الاخرى وقت ذاك(٦٥) ٠

هذا وتحدثنا المصادر كثيرا عن الدور القيادى النشط فى المشروعات التجـارية الكبرى ، وطبقـا لرواية هيرودوت ، فـان الفرعون المصرى «نخاو الثانى» (٦١٠ ــ ٥٩٥ ق٠م) قد كلف الملاحين الفينيقيين بالطواف حول أفريقيا ، ويكاد يكون من المؤكد الان أن السفن التى أرسلها الفرعون لتقوم بدورة ملاحية حول أفريقيا قد نجحت فى هذه المهمة ، حيث قضت فى رحلتها ثلاث سنوات دارت فيها حول شواطىء أفريقيا ، ثم عادت من مضيق جبل طارق (أعمدة هيراكليس) محملة بجميع خيرات أفريقيا التى حصلت عليها من الموانى التى مرت بها السفن ٠

ولعل من أهم الادلة على نجاح الرحلة ما ذكره الملاحـون من أنهم كانوا دائما يسيرون على مقربة من الشاطىء ، وكانت الشمس تشرق عن يسارهم ، ولكنهم وصلوا الى نقطة فاذا بهم يرون أن الشمس تشرق عن يمينهم ، وقد رفض هيرودوت تصديق ذلك ، بينما أن هذه النقطة بالذات انما تدل على صدق أنباء الرحلة ، لأن ذلك انما قد حدث عنـدما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح ، وكانت المرة الاولى التى تمر فيها مثل هذه السفن ، لغرض الكشف والمعرفة واظهار المهـارة وفتح أسواق للتجارة فى آن واحـد ، ولابد أن مهدت لها معارف وارهاصات

---

(٦٥) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٩ ــ ٤٦٠ ٠

سابقة ، وقد روى هيرودوت من مراحل الاعداد لهذه الرحلة ، بناء سفن كورنثية أو ايونية (فينيقية) ذات ثلاث طبقات من المجاديف ، كانت تمخر عباب البحر المتوسط وخليج السويس ، فضـــلا عن الاستعانة بخبـــرة الملاحين الفينيقيين ، الى جانب المصريين[٦٦] .

ويحدثنا هيرودوت أيضـــا عن التجارة القرطـــاجية على الســـاحل المراكشى ، فكتب حوالى عام ٤٣٠ ق٠م ، يقول : «أخبرنا القرطاجيون أيضا عن جزء من أفريقيا وسكانها وراء مضيق جبل طـــارق ، وعندما وصلوا هذا البلد أفرغوا بضائعهم ورتبوها على الشاطىء ، ثم عـــادوا الى سفنهم ، وأرسلوا اشارة بالدخان ، عندما رأى الوطنيون الدخان جاءوا الى البحر ووضعوا كمية من الذهب مقابل البضـــائع ثم قفلوا راجعين ، وعندئذ عاد القرطاجيون الى الســـاحل مرة أخرى وفحصـــوا الذهب الذى تركه الوطنيون ، فاذا رأوا أنه يعادل قيمة البضائع أخذوه وأبحروا بعيدا ، والا عادوا الى سفنهم وانتظروا أن يضيف الوطنيون الذهب الكافى لارضـــائهم ، لا يخدع جـــانب جانبا آخـــر ، فلم يكن القرطاجيون يقربون الذهب حتى يساوى فى قيمته البضائع التى أحضروها كما أن الوطنيين ما كانوا يقربون البضـــائع حتى يتم نقل الذهب من مكانه»[٦٧] .

هذا وهناك تقرير عن طريقة المقايضة الصامتة القديمة هذه ، وتجارة الذهب ، يرتبط برحلة قام بها «حنون» (هنو ــ Hanno) زعيم أسرة «ماقون» فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد[٦٨] ، تقول مقدمته :

---

(٦٦) محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الثالث ص ٦٤٢ ــ ٦٤٣٠
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, P. 357.
Herodotus, II, 159.
E. Drioton et J. Vandier, L'Egypt, Paris, 1962, P. 584.
H. De Meulenaere, Op. Cit., P. 50-52.
(٦٧) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٠ .
(٦٨) انظر عن ترجمة تقرير حنون (هنو) : رشـــيد الناضورى : المغرب الكبير ص ٢٢٨ ــ ٢٣٧ ، وكذا
B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 62-64.

«تقرير عن رحلة هنو ملك القرطاجيين الى أجزاء من أفريقيا فيما وراء مضيق جبل طارق ، والذى قدمه لمعبد الاله «بعل» ، ثم تقول فقرته الاولى :

«قرر القرطاجيون أنه يجب على هنو الابحار بعد مضيق جبل طارق، وتأسيس مراكز ليبية — فينيقية ، وقد أبحر ومعه خمس وستون سفينة ، مجهزة بالمجاديف ، وكذا ثلاثون ألف رجل وامرأة ، فضلا عن الطعام والضروريات اللازمة» .

هذا ويفهم من التقرير أن أبعد مكان وصلت اليه الرحلة جنوبا انما كان مستوطنة «قرنة» (Cerne) وقد حددت بصفة عامة بجزيرة «هرنة» (Herne) عند مصب نهر «ريودى أور» (Rio de Oro) (وادى الذهب)، وقد ذكر هذا الاسم فى مصدر جغرافى اغريقى يعرف باسم «سليلاكس» (الزائف) (Pseudo - Scylax) ، حوالى عام ٣٣٨ ق.م ، جاء فيه :

«فى قرنة يرسى الفينيقيون (أى القرطاجيون) سفنهم التجارية المعروفة باسم «جاولوى» (Gauloi) وينصبون خيامهم فى الجزيرة ، وبعد أن يفرغوا بضائعهم ينقلونها الى البر فى قوارب صغيرة ، حيث يعيش الاثيوبيون الذين يتاجرون معهم ، وفى مقابل بضائعهم يحصلون على جلود الغزلان والاسود والنمور وأسنان وجلود الفيلة ، ويحضر الفينيقيون العطور والاحجار الكريمة المصرية (الخزف المزخرف أو القاشانى) والفخار والجرار الاثينية» ، هذا وتظهر «قرنة» هنا كمرسى، أكثر منها مستوطنة ، ويبدو أن البضائع التى أحضرت من قرطاج صحيحة ، غير أن الحصول على جلود الحيوانات المفترسة ، أمر تحيط به هواتف الريبة والشك ، على أساس أنه كان يمكن الحصول عليها على مقربة من قرطاج .

وينتهى تقرير حنون بالحديث عن رحلتين توغلتا جنوبا بعد «قرنة»، مع تصوير حى لوحشية السكان ، ففى الليل : دقات الطبول واضرام نيران هائلة ، ربما كانت بهدف بث الذعر فى قلوب الطامعين أو المغيرين، هذا وقد امتد الحد الجنوبى للرحلة الى مسافة بعيدة ، حتى جبل

كميرون ، وان كان يبدو أن هذا بعيدا جـدا ، ذلك لان أبعد المواقـع الجنوبية التى تمدنـا بأدلة أثرية على الزيارات القرطاجية انمـا هو «موجادور» (Mogador) (الصويرة) ، ولكنها — مع ذلك — أدلة على الزيارات الموسمية التى ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد فحسب ، ولا يمكن ربطها بأى مكان ذكر فى التقرير .

وعلى أية حال،فلقد أبحر المؤرخ الاغريقى «بولبيبوس» (٢٠٣—١٢٠ ق.م) الى ما وراء قرنة بعد عام ١٤٦ قبل الميلاد (أى بعد سقوط قرطاج فى أيدى الرومان) ، ولم يجد شيئا ذا قيمة ، وفى القرن الاول الميلاد كتب «بلينى الاكبر» (٢٣ — ٧٩م) عن تقرير «حنـون» بأن عددا من الاغريق والرومان يخبروننا على أساسه بأشياء خرافية كثيرة ، وبقيام عدد من المدن لا يوجد عنها فى الحقيقة أى ذكر أو أثر» ، ومن الغريب أن عددا من فلاحى دولة موريتانيا (التابعة للنفوذ الرومـانى) بدأوا يترددون على «موجادور» (مغدور = الصويرة) ، غير أن هدفهم انما كان صيد السمك ، وليس الحصول على الذهب[٦٩] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى عدم ذكر الذهب ، رغم أن هيرودوت انما يخبرنا فى الكتاب الرابع ، أن الفينيقيين قد تاجروا فى الذهب مع السودان الغربى ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الذهب محـور تجارة السودان العابرة للصحراء ، غير أن السودان لم يمثل مصـدرا هـاما من مصـادر امداد حـوض البحر المتوسط بالذهب حتى سقـوط الامبراطورية الرومانية ، فقد كان الرومـان يحصلون على الذهب من أوربا ، كما كانوا يحصلون على القليل منه عن طريق شمال أفريقيا[٧٠]، وعلى أية حـال ، فلقد أصبح الذهب — بعد سـقوط الامبراطوريـة الرومانية — فى السودان الغربى عنصرا أساسيا فى اقتصاد العصـور

(٦٩) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٠ — ٤٦١ .
70) E. W. Bovill, The Golden Trade of The Moors, Oxford, 1952, P. 24.

الوسطى لدى شمال أفريقيا (المغـــرب) وغرب أوربا ، قبل اكتشـــاف أمريكـــا[٧١] .

وكان العـــاج من السلع التى دخلت تجـــارة الصحـــراء منذ عصر «الجرمانتيين» والفينيقيين[٧٢] ، وكان — فيما يرى البعض — متوفرا بكميات كبيرة جعلت المواطنين يصنعون منه أوانى للشراب ، ويزينون به الخيل ، وكان من الكماليات المرغوب فيها فى شمال الصحـــراء ، وهناك أيضا من السودان الغربى «العنبر» ، وكان يستخرج من سواحل المحيط الاطلسى على مقربـــة من جزيرة «أوليل» والتى عرفت باسم «جزيرة العنبر»[٧٣] .

هذا وكانت منطقة «فـــزان» من عصور مبكرة ، مصـــدرا لتصدير الاحجـــار الكريمة ، وقد تاجـــر فيهـــا الجرمانتيون مـــع الفينيقيين والرومان[٧٤] .

وعلى أية حال ، فان أستاذنا الدكتور الناضورى انما يقدم لنا عدة ملاحظات عن رحلة حنون (هنو) ، منها (أولا) أن التقرير قـــد تضمن الكثير من الحقـــائق التى تدل على نجـــاح القرطـــاجيين فى رحلتهـــم الاستكشافية والاقتصادية الهامة على ساحل أفريقيا الغربى ، ووصولهم حتى منطقة الكونغو فى أفريقيا الاستوائية الغربية ، ومنها (ثانيا) أن الغرض من الرحلة انما كان أساسا تأسيس مراكـــز «ليبية — فينيقية» (أى بربرية قرطاجية) على الساحل الغربى لافريقيا الامر الذى يؤكد

---

71) J. D. Fage, An Ontroduction to The African History, Cambridge, 1955, P. 21.
B. Davidson, The Africans, An entry to Cultural History, London, 1969, P. 215.

72) R. C. Law, in JAH, 8, 1867, P. 196.

(٧٣) أحمـــد الياس حسين : سلع التجـــارة الصحراوية — كتاب الصحراء الكبرى — ليبيا ١٩٧٩ ص ٢٠٦ .

(٧٤) نفس المرجع السابق ص ٢٠٤ — ٢١٠ .

تداخل العنصرين البربرى والفينيقى فى العصر القرطـاجى ، واعتبارهما عنصرين اندمجا معا ، وحملا الصفة القرطاجية ، لأول مرة فى تاريخ المغرب ، وبالتالى فقد أصبحت العلاقات البربرية الفينيقية سليمة للغاية فى هذه المرحلة ، ومنها (ثالثا) أن عدد السفن وأفراد الرحلة كان كبيرا للغاية ، فالنص يشير الى أن اعداد أفراد الرحلة قد بلغ ثلاثين ألف رجل وامرأة ، وهو رقم جد مبالغ فيه ، بالنسبة لعدد سكان قرطاج (حوالى ٢٠٠ ألف نسمة) ، فضلا عما يتطلبه من مؤونة وايواء ، وعلى أية حال فربما كانت الاغراض السياسية والاقتصادية من وراء تلك المبالغة •

ومنها (رابعـا) أن المكـان الذى ذكر تحت اسـم «ثايمياتريون» (Thymiaterion) قد حدده البعض «بالمهديـة» شمال الرباط ، ولكن من الافضل أن يكون قرب «طنجة» (تنجيس — Tingis) ، اعتمادا على أن النص انما يشير فى الفقرة السادسة الى نهر «لوكوس» الذى يوجد عنده موقع «ليكسوس» مما يجعل الرحلة ما تزال فى الجـزء الشمالى الساحلى من المغرب ، ولم تصل بعد الى منطقة المهدية ، ومنها (خامسا) أن محاولة القرطاجيين تشييد مبان فى مراكزهم الجديدة ، وبالتالى تبعيتها للدولة القرطاجية ، الامر الذى يجعل تحقيق أهدافهم الاقتصادية أيسر مما لو ظلت على طبيعتها الاولى البربرية ، وقد نجح القرطاجيون — كما جاء فى الفقرة السادسة — فى توطيد علاقاتهم مع أهل ليكسوس ، (وهو نهر كبير ينبع من ليبيا ، وعلى ضفافه يرعى أهـل ليكسوس الرحـل مواشيهم) •

ومنها (سادسا) أن النص يشير — فى فقرتيه السابعة والحادية عشرة — الى عناصر بشرية تحمل اسم «الاثيوبيين» ، وهنا يجب أن نفرق بين الاثيوبيين الشماليين ، وهم من البربر الذين ما يزالون حتى هذه المرحلة فى العصر الحجرى الحديث ، والاثيوبيون الجنوبيون الذين تغلب عليهم الصفة الزنجية ، ولم يتمكن التراجمة من أهل ليكسوس من التفاهم معهم ، وذلك لاختلافهم الكلى عن اخـوانهم فى الشمال ، ومنها (سابعـا) أن النص يشير — فى فقرته الثالثة عشرة — الى ظاهرة النيران المشتعلة فى

فترات غير منتظمة ، والمصحوبة ، فى بعض الاحايين ، بأصوات المزامير والطبول وصيحات المجموعات البشرية من حولها ، تعبيرا عن الاحتفالات القبلية الزنجية ، وأما النيران المشتعلة فربما كانت للاضـــاءة ، وربما لابعاد القوى الشريرة ، وربما لأغراض الدفء أو العبادة ، وان اشارت الفقرة السادسة عشرة الى أن لهيب النار انما كان يلامس النجــوم ، الامر الذى قد يشير الى بركان الكمرون ، ومنها (ثامنـــا) أن الفقرة السابعة عشرة انما قد أشارت الى «الغوريلات» التى اعترضت الرحلة ، وقذفت أفرادها بالاحجار ، الامر الذى يشير — مع غـــيره — الى أن الرحلة قد وصلت الى المنطقة الاستوائية .

ومنها (تاسعا) أن هذه الرحلة الكشفية انما هى جهد مبكر فى حركات الاستكشاف الانسانى للعالم ، وتسبق الجهود الاسبـــانية والبرتغالية وغيرها فى محاولة كشف القارة الافريقية والدوران حولهـــا ، ومن ثم فهذه الخطـــوة القرطاجية انما هى احـــدى مآثرهم الهامـــة فى تاريخ الانسانية[٧٥] .

وعلى أية حال ، فهناك رحلة أخرى — غير رحلة هنو (حنون) هذه والتى وصلت الى منطقة الكونغو — قام بها «هملكو» (Himilco) الى ساحل أسبانيا وفرنسا الغربى ، فلقد كشفت رحلة «هملكو» (حملكون) ســـاحل الاطلنطى لكل من أسبانيـــا وفرنســـا ، ووصلت بالتأكيد الى «بريتانى» (Bretagne) فى شمال غرب فرنسا ، وربما كان الهدف منها زيادة السيطرة على تجارة القصدير ، الذى كان يمكن الحصول عليه من مصادر مختلفة قريبة من سواحل الاطلنطى ، وكان القرطاجيون حريصين فى تجارة القصدير ، حتى أنهم لم يسمحوا بتسرب معلومات عنها ، الا فى النادر القليل ، الامر الذى أثار انتباه وفضول الكتاب القدامى .

وفى الواقع ، فان العصر القرطاجى انما كان آخر مرحلة فى تجارة

---

(٧٥) رشيد الناضورى : المغرب القديم ص ٢٣٣ — ٢٣٨ .

القصدير على طول الساحل ، وهى تجـارة ترجع الى عصـور ما قبل التاريخ مع جنوب غرب بريطانيا — الذى كان واحدا من أهم مصادرها — ومع ذلك فليس هناك من دليل على أن هناك فينيقيا واحدا وصل الى بريطانيا ، كما لم يعثر هنـاك — أو حتى فى بريتانى — على أى أثـر فينيقى ، وعلى أية حال ، ان كان الفينيقيون قد حصلوا على قصدير من بريطانيا ، فأكبر الظن ، أن ذلك انما تم عن طريق القبائل فى بريطانيا ، ومع ذلك ، فهناك احتمال بأن أغلب قصدير بريطانيا المصدر ، انما كان ينقل عبر «غالة» (Gallia) الى وادى الرون والبحـر المتوسط ، وأن القرطاجيين انما قد حصلوا على احتياجاتهم منه من شمال أسبانيا •

وأيا ما كان الامر ، فالذى لا ريب فيه ، أن أكبر انتـاج معدنى ذى قيمة فى أسبانيا انما كان الفضة ، وقد وصل انتاجها الى مستويات كبيرة فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد تزايدت أهمية «جاديس» (كاديز — قادس) بسرعة ، وكانت المدينة القرطاجية الوحيدة فى الغرب التابعة لقرطاج ، بصرف النظر عن «ابيزا» Ibiza — التى أصدرت عملة خاصة بها — وطبقا لرواية «سترابو» فان بنـاة السفن فيها قد تفوقوا على زملائهم فى صناعة السفن ، سـواء أكانت للملاحة فى البحر المتوسط أو فى المحيط الاطلسى •

هذا وقد مارست قرطاج احتكار التجارة داخـل امبراطوريتها — سواء باغراق أية سفينة تخرق هذا الاحتكار ، او بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين المحتملين مثل المدن الاترورية روما — وكان طبيعيـا أن لا يسمح للتجار الاجانب بالتجارة فى غربى قرطاج ، وهذا يعنى ببساطة أن السلع التى كانوا يحضرونها الى هذه المدينة كانت تنقل الى السفن التجارية القرطاجية ، ومن ثم فقد كانت المنتجات الواردة من أتروريا وكامبانيا ومصر ومختلف المدن الاغريقية انما تصل الى عدد كبـير من الاماكن فى شمال أفريقيا •

وبدهى أن ذلك كله انما كان مصدر قوة اقتصادية لقرطاج ، خاصة

بعد التغييرات الاقتصادية والسياسية الضخمة التى حدثت فى غربى البحر المتوسط بسبب فتوحات الاسكندر الاكبر (٣٥٦ — ٣٢٣ ق٠م) ، فلقد أوجدت هذه الفتوحات أسواقا كبرى عالمية للمصنوعات الرخيصة التى كان القرطاجيون فى موقع متميز يمكنهم من ترويجها ، فضلا عن الارباح منها(٧٦) ٠

هذا وكان القرطاجيون يقومون برحلات تجارية برية ، عبر الصحراء ، الى منطقة نهر النيجر والسنغال ، وربما كانت عن طريق «لبدة» و«صبراته» ، وهما المدينتان الواقعتان فى منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة ، وعلى أية حال ، فان اهتمام قرطاج بابعاد الاغريق عن المنطقة دليل على وجود تجارة هامة مع الداخل ، حيث أن الارض الزراعية المناسبة للاستيطان نادرة ، وفى القرن الخامس قبل الميلاد يحدثنا هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما : الجرمانتيون والناسامونيون فى أقاليم جنوب سرت ، وأن المسافة بين الساحل ومنطقة الجرمانتيين — المركز السكانى لجرمة — تستغرق ثلاثين يوما ، وان الرومان قد حصلوا — عن طريق الجرمانتيين — على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية فى القرون التالية ٠

وهناك ما يشير الى أن «العقيق الاحمر» انما كان احدى السلع التجارية الصحراوية ، وربما كانت هناك تجارة فى الرقيق ، حيث يذهب البعض الى أن الجرمانتيين انما كانوا يتعقبون الاثيوبيين (الزنوج) بعربات تجرها أربعة جياد ، هذا الى ما سبق أن ذكرناه من قبل عن تجارة العاج والجلود ، وليس هناك من ريب فى أن عدم وجود «الجمال»(٧٧) فى شمال أفريقيا وقت ذاك ، انما يجعل السفر فى الصحراء

---

(٧٦) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦١ — ٤٦٢ ٠

(٧٧) لم يظهر «الجمل» — وأصله من الشرق الادنى — فى الصحراء الافريقية الا بعد فترة متأخرة ، بل انه لم يظهر فى مصر حتى العصرين ، =

جد صعب ، الامر الذى يحول دون تجارة واسعة عن طريق الصحراء •

وعلى أية حال،فهناك من «جرمة» دليل أثرى حديث يشير الى أن النمو السكانى المبكر فى الدولة القرطاجية ، انما يرجع الى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد ، وأنه بتتابع القرون ازداد عدد السكان المستقرين ، والمعتمدين على الزراعة ، زيادة مطردة ، ولعل هذا يرجع الى التأثير الثقافى الذى أمتد من المراكز القرطاجية على الساحل ، وبعد تدمير قرطاج توغل الرومان الى كل من جرمة وغدامس ، وأحيانا الى أبعد من ذلك جنوبا [٧٨] •

ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن التجارة انما كانت تتم عن طريق المقايضة ، وأن اليونان قد بدأوا فى استخدام العملة فى القرن السابع قبل الميلاد ، وأكبر الظن أن «كرويسوس» (٦٥٠ — ٥٤٦ ق٠م) ملك ليديا ، هو الذى استخدم صب السبائك الذهبية ، ذات الوزن الواحد ، وطبع الصور عليها ، وعلى أية حال ، فلقد أصبح استعمال العملة عاديا فى القرن السادس قبل الميلاد •

=
الفارسى والهلينستى (فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد) ، وقد نوقشت هذه المسألة كثيرا ، دون أن تحسم ، والواقع أن الجمل دخل الصحراء من وادى النيل ، وان كان تأريخ دخوله صعب ، وكل مانهتدى به فى هذا الصدد هو الرسوم الصخرية الليبية البربرية فى الصحراء ، وهى قليلة الفائدة فى التأريخ الدقيق ، ثم النقوش والتماثيل الرومانية فى شمال افريقيا ، وكلها ترجع الى القرن الثانى الميلادى ، وهنا كما يشير الى أن قيصر قد غنم عام ٤٦ ق٠م عدد ٢٢ جملا من الملك النوميدى « يوبا الاول» الذى امتدت دولته الى حدود الصحراء ، وكانت الجمال ماتزال حيوانات نادرة ، ثم كثرت بعد ذلك ، ثم أصبحت وسيلة المواصلات فى الصحراء ، كما تشير الى ذلك كثرة صور الابل فى «رسوم الجمل الصخرية» (Caballine) فى كل مناطق الصحراء الكبرى ، ورغم أنها صعبة التاريخ ، الا أنها بالتأكيد أحدث زمنيا بكثير من صور الجياد البديعة (Gallia) وقد كثرت الجمال فى القرن الرابع الميلادى فى شمالى طرابلس،حتى أن الرومان فرضوا على «لبدة» (لبتس ماجنا) أن تجمع على نفقتها بانتظام أربعة آلاف جمل ، وفى الوقت نفسه عززت وفرة الجمال قدرة البدو على شن الهجمات على الرومان (تاريخ افريقيا العام ص ٥٤٠ — ٥٤٦) •

(٧٨) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٣ •

هذا وقد بدأ الفرس فى استخدام العملة على أيـام «دارا الاول» (٥٢٢ — ٤٨٦ ق.م) عند نهاية القرن السادس ، ورغم أن فينيقيا كانت وقت ذاك خاضعة للفرس ، غير أن دارا لم يحـاول أن يضرب العملة باسمهم ، وأما أقدم عملة شرقية فينيقية فقد ضربت فى صور عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم تبعتها صيدا وأرواد ، وجبيل فى أواخـر القرن الخامس قبل الميلاد ، وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد[٧٩] .

ولعل أقدم العملات — من النصف الثانى للقرن الخامس قبل الميلاد — تلك القطعة المحفوظة بالمتحف البريطانى ، وهى من صور ، وعلى أحد وجهيها «درفيل» (حيوان بحرى) ، وعلى الوجه الاخر «بومة» داخل مربـع[٨٠] .

هذا وقد قامت المدن الفينيقية الغربية بضرب عملتها متأخـرة عن المدن الشرقية ، فهناك فى المتحف البريطانى قطعة عليهـا رأس المعبودة «تانيت» ، وعليها غطاء رأس بونى ، وعلى الوجه الاخر ، أسد وشجرة نخيل ، ونقش مكتوب بالبونية (الفينيقية) «رجال المعسكر» ، وتؤرخ هذه القطعة بمنتصف القرن الرابع قبل الميلاد[٨١] ، وأمـا صقلية فقد ضربت عملتها منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وفى أسبانيا ضربت العملة فى القرن الثالث قبل الميلاد ، كما أن هناك نقودا ضربت من الفضة ، كما فى قرطاج الجديدة[٨٢] ، كما عثر فى «جاديس» على قطعة نقود ، على أحد وجهيها رأس المعبود «ملقارت» وعلى الاخر ، فيل وحرف أبجـدى Aleph ، وتؤرخ هذه القطعة بحوالى عام ٢٠٩ قبل الميلاد[٨٣] .

وعلى أية حال ، فان «قرطاج» انما بدأت فى اصدار عملتها فى القرن

---

(٧٩) عبد الحميد : الشرق الخـالدة ص ٣٣٠ — ٣٣١ ، سبتينـو موسكاتى : المرجع السابق ص ١٣٦ .

80) G. F. Hill, B. M. Cat. Phoenicia, London, 1910, Pl. 28, No. 9.
81) G. F. Hill, Guide and Greek Coins, London, 1932, Pl. 62, No. 41.
82) F. S. G. Robinson, Punic in Spain, 1965, Pl. 49, No. 4.
83) Ibid., Pl. 52, No. 8.

الرابع قبل الميلاد ، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة ، وحيث أصبح من الضرورى — نتيجة للتغيير فى الوضع الاقتصادى — أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقــدا[84] .

---

(٨٤) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٢ ٠

الفصل الثالث

قرطاج والصراع العسكرى ضد الاغريق والرومان

١ ـ الصراع العسكرى ضد الاغريق

(١) العلاقات بين قرطاج والاغريق فيما قبل القرن السادس ق٠م :

يذهب بعض الباحثين الى أن اليونانيين انما قد سبقوا الفينيقيين فى انشاء المراكز التجارية فى غربى البحر المتوسط ، غـير أن عملية الانشاء هذه انما تمت ــ فى أكبر الظن ــ فى وقت متقارب ، وان كان الفينيقيون كثيرا ما نجحوا فى السيطرة الاقتصادية على منـاطق سبق لليونانيين الاقامة فيها ، فضلا عن السيطرة عليها ، الامر الذى أدى الى المنافسة الشديدة بين الفريقين فى المجال الاقتصادى ٠

على أن تلك المنافسات الاقتصـادية بين الفينيقيين واليونانيين لم تقف دون قيام علاقات سلمية بين الفريقين ، نجح الفينيقيون من خلالها فى ادخال الابجدية الفينيقية ــ والتى نقلوها عن المصريين ــ الى بلاد اليونان بدورهم فى القرن السادس قبل الميلاد بنقل هذه الابجدية ــ بعد أن أدخلوا عليها بعض التحسينات ــ الى الرومان ، ومن هذه الابجـدية تولدت معظم الابجديات الاوربية[1] ، وكان اليـونان قد قلبوا اتجـاه بعض الحـروف ، لأنهم كانوا يكتبون من اليسـار الى اليمين ، ولكن حروفهم فى جوهرها هى الحروف التى علمهم اياها الفينيقيون ، والتى علموها بدورهم أوربـا[2] ٠

---

(١) فيلب حتى : المرجع السابق ص ١١٦ ـ ١١٧ ، وكذا ٠
Hedodouts, II, 49, V, 58, VIII, 57.
Diodorus, III, 67, V, 57, 5.

(٢) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣١٥ ـ ٣١٦ ٠

غير أن العلاقات السلمية بين اليونان والفينيقيين سرعان ما تحولت الى علاقات عدائية بسبب المنافسات التجارية والسياسية ، وقد ظهرت بوادر ذلك العداء فى القرن السادس قبل الميلاد فى جزيرة صقلية ، التى جمعت بين الفينيقيين واليونان ، ولم تستطع مدينة صور القيام بدور الحماية والدفـاع عن هذه المراكـز الفينيقية الغربيـة بسبب الضغط الاشورى والبابلى الكدانى — كما رأينا من قبل فى حديثنـا عن مدينة صور — وفى نفس الوقت كانت «قـرطاج» بدأت تحتـل مكان الزعامة للفينيقيين الغربيين ، وتعمل على تحقيق حمايتهم من أخطار اليونانيين ، وخاصة من المستوطنات الاغرقية فى صقلية مثل «سرقوسة» التى نمت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة ، والتى تأسست أصلا — هى وغيرها من المستوطنات هناك — نتيجة للضغط السكانى فى بلاد اليونان ذاتها[٣] ، وفى نفس الوقت بدأت الدولة القرطاجية فى التواجد — كقوة سـامية جديدة — فى غربى البحر المتوسط ، حتى انتهى الامر بأن امتد نفوذها من خليج سدرة فى ليبيا ، وحتى منطقـة جزيرة الصويرة على المحيط الاطلسى فى غربى المغرب الاقصى[٤] .

وعلى أية حال ، فلم يكن هناك — فى القرن السابع قبل الميلاد — صراع كبير بين الاغارقة والفينيقيين ، وكانت الواردات الاغريقية معروفة فى أماكن عديدة فى المغرب ، ولكن فى عام ٥٨٠ قبل الميلاد ، حاولت مدينة «سيلينوس» (Selinus) وغيرهـا من المدن الفينيقية فى صقلية ، طـرد الفينيقيين من مستوطناتهم فى «موتيـا» و «بانورموس» (باليرمو) ، واضطرت قرطاج للتصدى للهجـوم الاغريقى حتى لا يؤدى ذلك الى تهديد الاغريق للمستوطنات الفينيقية فى سردينيا ، وفتح التجـارة مع أسبانيا التى حرموا منها طويلا ، وتبع هذا النجاح توحيد المستوطنات الفينيقية فى سردينيا ، فضلا عن التحالف بين قرطاج والمدن الاترورية

---

(٣) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٦ .
(٤) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ١٩٠ .

على الساحل الغربى لايطاليا ، الامر الذى أدى الى نصر مشترك للحلفاء فى عام ٥٣٥ ق٠م ، ومنع الاغريق من استيطان كورسيكا(٥) ٠

(٢) الصراع القرطاجى ضد جيلون :

غير أن ميدان المعركة سرعان ما انتقل الى افريقيا ذاتها ، وذلك حين حاول «دوريوس» (Dorieus) الاسبرطى تأسيس مستعمرة عند مصب نهر «كنيبس» (Kinyps) (وادى وكيرى) فى ليبيا ، واعتبرت قرطاج هذا العمل اعتداء عليها ، وقد تمكنت — بمساعدة الوطنيين الليبيين — من طرد الاغريق فى خلال أعوام ثلاثة ، غير أن «جيلون» (Gelon) حاكم جيلا ثم سرقوسة ، انما بدأ فى عام ٤٨٥ قبل الميلاد ، يعد حملة للثأر من قرطاج ، واحتلال المستوطنة الفينيقية حول خليج قابس ، ومن ثم فقد بدأت قرطاج فى البحث عن أصدقاء فى صقلية من بين أعداء جيلون للعمل ضـــده ٠

وهكذا ، وفى عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، وجهت قرطاج لصقلية جيشا كبيرا من المرتزقة ، بلغ — فيما يرى البعض — ٣٠٠ ألف ، بقيادة «هملكار» ، وهو رقم مبالغ فيه كثيرا ، وكانت قوة صقلية ، بقيادة جيلون ، تتكون من ٢٤ ألف جندى ، وألفين من الفرســـان(٦) ، ويذهب البعض الى أن قرطاج انما استغلت كذلك فرصة الغزو الفارسى لبلاد اليونان فى تلك السنة ، على أيام «اكزركسيس الاول» (٤٨٥ — ٤٦٤ ق٠م) ، انتقاما لهزيمة «ماراثون» فى عام ٤٩٠ ق٠م ، فى «اتيكا» على أيام «دارا الاول» (٥٢٢ — ٤٨٦ ق٠م) أمام الاثينيين(٧) ، الامر الذى قد يدل على اتصال قرطاج بالفرس ، والافادة من ذلك فى ايقاع الهزيمة بالاغريق فى شرق البحر المتوسط وغربيه ، على أساس أن الاغارقة انما كانوا العدو المشترك

---

(٥) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٦ ٠

6) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 46-47.

(٧) انظر عن موقعة ماراثون : عبد الحميد زايد : الشرق الخـالد ص ٦١٩ — ٦٢١ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ٣٨٨/٥ — ٣٨٩ ، وكذا J. B. Bury, History of The Greece, London, 1963, fig. 78.

للفرس والقرطاجيين سواء بسواء ، ومن ثم فمعاصرة الاحداث بعضها البعض الاخر ، ليس مجرد مصادفة ، فقد عاصر انتصـــار « جيـــلون » انتصار الاسطول الاثينى على الفرس فى سلاميس فى عام ٤٨٠ ق٠م[٨] ٠ وقد قدر الباحثون الاسطول القرطاجى فى هذا التاريخ بمائتى سفينة ، وهو ما يجعله على قدم المساواة مع أسطول سرقوسة ، كما أنه لا يقل عن أسطول أثينا ، ومع هذا فلقد انتهى الامـــر بكارثة تحطيم الجيش والاسطول القرطاجى فى معركة كبيرة فى عام ٤٨٠ ق٠م ، فى «هيميرا» (Himera) ، غير أن جيلون لم يكن قادرا ، وربما لم يكن راغبـــا فى متابعة هذا النصر بعمل آخر ، ومن ثم فقد عقد صلحا أو هدنة حربية بشروط معتدلة ، مع «حنـــون» (هنـــو — Hanno) بن «هملكـــار» (حملقرت — Hamilcar) الذى هزم فى هيمـــيرا ، والذى يصـــفه الكاتب الاغريقى «ديو فم الذهب» Dio Chrysostom وصفا غير دقيق ، حيث يقول بأنه حول القرطاجيين من صوريين الى أفارقة ٠

واتجهت قرطاج بعد هزيمتها فى هيميرا الى كسب أرضين جديدة فى أفريقيا ذاتها ، وقد حدث هذا التغيير فى الوقت الذى كانت تزداد فيه عزلة قرطاج بسبب الانتصارات الاغريقية فى كل مكان — ضد الفرس أولا ، وضد الاتروريين فى ايطاليا ثانيا — وربما اقتصر نشاط القرطاجيين وقت ذاك على تجارتهم مع العالم الاغريقى ، وعلى أية حال ، فان قبور القرن الخامس قبل الميلاد ، انما تشير بوضوح الى مظاهر الفقر وقلة المواد المستوردة ، وان كان هذا لا يعنى أن المجتمع القرطاجى برمته قد صار أفقر من ذى قبل ، ما دامت محتويات المقابر لا تعتبر فى حد ذاتها دليل ثروة أو فقر[٩] ٠

وعلى أية حال ، فرغم أننا لسنا على يقين من مساحة الارضين التى

---

(٨) انظر : عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٦٣٦ — ٦٣٨ ،
J. B. Bury, Op. Cit., fig. 82.
Ch-Andre' Julien, Histoire de L'Afrique du Nord, Paris 1961, P. 66.
(٩) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٧ ٠

غزتها قرطاج فى القرن الخامس قبل الميلاد ، فضلا عن عدد المستوطنات التى تحولت وقت ذاك الى مـدن ــ وإن تكن صغـيرة ــ فقد بدأت الفتوحات ــ التى قد ر لقرطاج أن تسيطر عليها فى أى وقت ــ تقترب من أقصى اتساعها ، وكان من أكثرها أهمية غزو شبه جزيرة رأس بون ، فضلا عن مساحة كبيرة من الارضين جنوب قرطاج ، وحتى «دجــة» (دقة) على أقل تقدير ، وقــد ضمت قرطاج بذلك جـزءا من أخصب الاراضى فى تونـس ، وهى المنطقة التى صـارت فيما بعد مزدحمـة بالمستوطنات الرومانية ، وقد وفرت هذه المنطقة المـؤون الضرورية من الطعام ، وامكانية استيعاب عدد أكبر من السكان فى المدينة ، وقد أقام العديد من القرطاجيين فى رأس بون فى تاريخ لاحق ، واعتبرت الارض فى رأس بون كأرض المدينة ، وربمـا وضع السكان فى منزلـة العبيد أو أشباههم ، وأرغم أغلب سكان الاراضى المفتوحة على دفـع الضرائب والانضمام للجيش[١٠] .

هـذا ورغم أن خليج سرت انمـا كان يمثل الحـد الفاصـل بين الامبراطورية القرطاجية ومنطقة الاستعمار الاغريقى ، وأن المستعمرات القرطاجية على ساحل ليبيا كانت قليلة ، فان هناك مستعمرة «صبراته» التى استوطنت منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وهناك «لبدة الكبرى» ، وقد أصبحت مستوطنة دائمة عندما كانت حملة «دوريوس» على مقربة منها ، وقد صارت «لبـدة» المركز الادارى للمستوطنات حـول خليج قابس ، وعرفت كمكان غنى فى أخريات العهد القرطاجى ، وظلت ثقافتها القرطاجية سائدة طوال قرن تحت الحكم الرومانى ، ويرجع مصـدر ثروتها الى تحكمها ــ بصفة عامة ــ فى تجارة الصحراء ، حيث كانت المنطقة تقع عند نهاية أقصر الطرق الى النيجر ، وهو طريق «غدامس» (كيداموس = (Crimisos)) .

وأما أهم المراكز الاخرى ــ غير لبدة ــ على خليج قابس ، فهى :

---

(١٠) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٥٧ .

«زوخيس» ، وقد اشتهرت بسمكها المملح وصبغتها الارجوانيـــة ، ثم «جيجتيس» (بوغرارة) و «قابس» (تاكاباى) ثم «تايناى» (هنشير ــ تينا ، على مقربة من صفاقس) ، وهناك من يذهب الى أن لبدة الصغرى (لمطة) وسوسة (هادرو ميتوم) أسسها الفينيقيون ، وليس القرطاجيون، وعلى أية حال ، فلقد أصبحت سوسة أكبر مدينة على الساحل الشرقى لتونـــس(11) •

وفى عام ٤١٠ قبل الميلاد ، انتهت فترة التوسع القرطاجى فى أفريقيا، وانتهت معها فترة السلام التى بدأت منذ كارثة هيميرا فى عام ٤٨٠ ق•م، ذلك أن المدن الاغريقية فى صقلية انمـــا تورطت فى الصراع الكبير على السيادة فى بلاد اليونان بين آثينا واسبرطه ، ورغم أن حملة آثينية على صقلية لقيت فشلا ذريعا ، فان نتيجتها النهائية أدت الى توريط قرطاجة، وكانت مدينة «سيجسته» (Segeste) ـــ المدينة الصقلية الاصـــل ، وحليفة قرطاجة ـــ مسئولة الى حد ما عن استقدام الاثينيين الى صقلية ، وأصبحت الان هدفا لهجوم تأديبى من مدينـــة «سيلينوس» Selinus الاغريقية وذلك حين اشتد الخلاف بين المدينتين (سيجسته وسيلينوس) على الحدود بينهما ، ورغم أن الخلاف قد سوى بصفة مبدئية فى «مؤتمر جيلا» فى جزيرة صقلية عام ٤٢٤ ق•م ، الا أنه تكرر مرتين بعد ذلك ، وفى المرة الاخيرة طلبت «سيجسته» العون من قرطاج ، بل والانضمام الى السيادة القرطاجية كذلك فى عام ٤١٠ ق•م(12) •

وأجابت قرطاج سيجسته الى سؤلهـــا ، ظنا من القرطاجيـــين أن «سيجسته» لو هزمت ، فان السيطرة الاغريقية سوف تحول المستعمرات الفينيقية الى مجرد موطىء قدم فى غرب الجزيرة ، هذا فضــــلا عن أن القائد القرطاجى «هانيبال» (حنبعل) سرعان ما حول الحملة الى حرب انتقاما من هزيمة هميرا ، التى هلك فيها جده «هملكار» •

---

(١١) نفس المرجع السابق ص ٤٥٨ •

12) B. H. Warmington, Op. Cit., P. 74-75.

وفى نفس الوقت فان «سيلينوس» انما طلبت من «سيجستة» العمل على ضبط النفس ، ومحاولة حل الأزمة ، غير أن قرطاج سرعان ما أتمت استعداداتها العسكرية ، وهكذا تقدم «هانيبال» فى عام ٤٠٩ ق٠م ، على رأس الجيش من المرتزقة ، يقدر بحوالى خمسين ألف رجل ، وحاصر «سيلينوس» ثم اقتحمها عنوة بعد تسعة أيام من بدء الحصار ، وقام القرطاجيون بقتل آلاف من جنود عدوهم ، وأسر عدد كبير منهم ، ثم اتجه «هانيبال» الى «هيميرا» لاعادة السيادة القرطاجية عليها ، فضلا عن أخذ الثأر منها لجده «هملكار» (Hamilcar) ، و استخدم فى هجومه عليها القوات البرية والبحرية معا ، وهنا تقدمت قوات «سرقوسة» (سيراكيوز) بقيادة «ديوكليس» لمساعدة هيميرا ٠

غير أن «هانيبال» سرعان ما لجأ الى خدعة عسكرية ، تظاهر فيها بترك هيميرا ، والاتجاه الى «سيراكيوز» ، الامر الذى أثار الفزع فى نفوس السرقوسيين ، واضطرهم للتراجع فورا للدفاع عن مدينتهم «سرقوسة» ، وهنا اتجه هانيبال الى هيميرا ، ونجح فى الاستيلاء عليها ، وما أن تم له ذلك حتى سوى بالمدينة الارض ، وحتى ذبح السكان الذين لم يهربوا منها ، بل لقد وصل به الامر فى التشفى من أعدائه أن جمع عددا كبيرا من الاسرى ، وقدمهم — كتضحية بشرية لروح جده هملكار — ثم عاد وسرح الجيش ، الامر الذى يدل على أن قرطاج لم تكن تفكر فى توسيع أراضيها ، وان كان من الواضح ، أنه منذ هذا التاريخ ، فان الفينيقيين هنا — وفى المناطق الاخرى من صقلية التى سيطروا عليها — انما قد أنشأوا فى الواقع ولاية قرطاجية[١٣] ٠

(٣) الصراع القرطاجى ضد ديونيسيوس :

وفى عام ٤٠٦ قبل الميلاد ، حاولت قرطاج — للمرة الاولى والاخيرة — غزو كل جزيرة صقلية ، بعد أن هاجم أراضيها بعض السرقوسيين ، ومن ثم فقد أرسلت فى عام ٤٠٦ ق٠م قوة أكبر الى «أكراجاس» — ثانية

---

13) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 75-78.

أكبر المدن الاغريقيـة ــ واستولت عليها ، وفى عـام ٤٠٥ ق.م ، تم الاستيلاء على «جيلا» ولكن هانيبـال لم يستطع أن يتوج انتصـاره بالاستيلاء على «سرقوسة» نفسها ، ويبدو أن وباء دمر نصف جيشه •

وكان حاكم سرقوسه الجديد «ديونيسيوس» (Dionysius) ــ وهو شخصية قوية ، وموضع ثقة الشعب السرقوسى ــ قد اتبع فى سياسته ــ فى بادىء الامر ــ كل ما يكفل له تدعيم مركزه الداخلى فى سرقوسة، حتى وان كان ذلك على حساب السيادة السرقوسية فى صقليـة ، كما تشير الى ذلك المعاهدة التى عقدها مع القرطاجيين ــ بسبب وباء انتشر بين جيوشهم ، وبسبب انتهاء الحرب البلونونيزية وانتصـار اسبرطـة صديقة سرقوسة ــ والتى أكدت الحكم القرطاجى على غرب صقلية ، بما فيه عدد من المجتمعات الصقلية الوطنيـة ، والمتبقية من سيلينوس وأكراجاس وهيميرا ، ومن ثم فقد صارت قرطاج تحكم رقعة من الارض أكبر مما كان لها من قبل ، وتجبى جزية أضخم ، فضلا عن كسر نطاق العزلة التى عاشت فيهـا معظم القرن الخامس قبل الميلاد ، وقـد قيل «ديونيسيوس» ذلك كله فى مقابل الاعتراف به زعيما على سرقوسه •

غير أن «ديونيسوس» سرعان ما بدأ استعداداته الحربية ، البرية والبحرية ، والتى نجح فيها الى حد اختراعه آلات حربية جديدة مثل المنجنيق لقذف العدو بالاحجار ، كما ضاعف عدد المجدفين فى الاسطول ، تعضيدا البحرية السرقوسية ، وتقوية لسرعة تحركاتها فى المعارك ، فضلا عن استخدام الحرب النفسية ، وذلك بشن حملة دعاية قوية ضد أعدائه القرطاجيين ، ووصفهم بأنهم أعداء اليونان والصقليين[١٤] •

على أن دعاية «ديونيسيوس» لم تغن شيئا ، ولم تنجح فى جمـع الاغارقة على كلمة سواء ، ذلك لأن الاغريق وقت ذاك انما كانوا شيعا

---

(١٤) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٩٧ ــ ١٩٨ ، ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٦ •

وأحزابا ، ومفرقين بين عدة مدن ، مستقله عن بعضهـــا البعض الاخر تماما ، ومن ثم فقد فشـــلت كل النداءات التى وجهت اليهم فى صقلية للاتحاد ولطرد القرطاجيين من الجزيرة ، ربما لأن هذه النداءات انما كانت تحركات انتهازية لتحقيق مصالح خاصة لدولة بذاتها ، أو لشخصيات بعينها ، كما فعل «ديونيسيوس» فى مـــرات ثلاث ، الاولى فى الفتـــرة (٣٩٨ ــ ٣٩٢ ق٠م) ، والثـــانية فى الفتـــرة (٣٨٢ ــ ٣٧٥ ق٠م) ، والثالثة فى عام ٣٦٨ ق٠م ، وكان نصيبه الفشل فى الواحدة تلو الاخرى، ففى عام ٣٩٨ ق٠م ، على سبيل المثال ، نجح «ديونيسوس» فى الاستيلاء على مدينة «موتيا» الفنيقية وتدميرهـــا[١٥] ، ولكن فى العـــام التالى (٣٩٧ ق٠م) تعرضت سرقوسة للتهديد ونجح الاســـطول القرطاجى ــ بقيادة ماجو ــ فى الانتصار على أسطول سرقوسة ، وكبده خسائر فادحة ، بلغت ــ فيما يرى البعض عشرين سفينة ، وعشرين ألف رجل ــ ولم ينقذه ــ للمرة الثانية ــ سوى انتشار وباء الطاعون بين المرتزقة من جنود قرطاج ، الامر الذى دفع «ديونيسيوس» الى معاودة الهجوم، والانتصار على القرطاجيين[١٦] ٠

وفى عام ٣٩٣ ق٠م ، حاول القرطاجيون استعادة سيادتهم ، ولكن دون جدوى ، ممـــا اضطرهم الى عقـــد معاهدة ســـلام جديدة مـــع «ديونيسيوس» ، غير أن «ماجو» سرعان ما عاود هجومه على صقلية فى عام ٣٨٢ ق٠م ، ولكن النصر كان فيها من نصيب «ديونيسيوس» ، بل ان المعركة انتهت أيضا بقتل «ماجـــو» ، وتنازل قرطـــاج عن المواقع القرطاجية فى صقلية ، ودفع تكاليف ترميم ما خرب منها ، غير أن ميزان القوى سرعان ما تغير بتولى «هيملكو» بن «ماجو» القيادة القرطاجية ، فتمكن من الانتصـــار على «ديونيسيوس» فى هيميرا ، مما اضطر هذا الاخير الى التنازل عن بعض مكاسبه السابقة لصالح القرطاجيين ، ثم عاود «ديونيسيوس» الاشتباك مع سرقوسة مرة أخرى فى عـــام ٣٦٧

(١٥) نفس المرجع السابق ص ٤٦٦ ــ ٤٦٧ ٠

16) B. H. Warmington, Op. Cit., P. 109-110.

ق.م ، حيث انتهى الامـر بين الفريقـين باتفـاقية هـدنة مـع ابن «ديونيسيوس» ، والذى حمل اسم أبيه (ديونيسيوس)[17] .

وعلى أية حال ، فلقد أثبتت هذه الاحداث جمعها أن قرطـاج انما كانت قادرة — فى أغلب الاحايين — على الاحتفاظ بحدودها الشرقية عند نهـر «هاليكـوس» (بلاتـانى Platani) كمـا اثبتـت جيـوش القرطاجيين من المرتزقة — والتى كان يتم تكوينها على عجل من أجناس مختلفة — أنها تضـارع فيالق المشـاة الاغريقيـة كاملة العتاد ، وكان أسطولهم متفوقا بصفة عامة ، كما أثبتت أيضا ، أن قرطاج لم يعد فى وسعها — رضيت أم أبت — أن تنعزل عن العالم الاغريقى مرة أخرى ، ولم يكن هناك اغريق يقيمون فى قرطاج ، وأصبح الطريق مفتوحا أمام قرطاج التدخل بدعوة من الساسة الاغريق أنفسهم ، حتى تكون — بصفة عامة جزءا معترفا به من العالم الهلينسى[18] .

(٤) الصراع القرطاجى ضد تيموليون :

وفى العقد الذى بدأ بعام ٣٥٠ قبل الميلاد ، كانت قرطاج فى طريقها للسيادة على كل جزيرة صقلية بالطرق السلمية ، حيث كـان النـزاع السياسى الداخلى الذى أضعف المدن الاغريقية ما يزال محتدا ، ولم ينقذ الموقف الاغريقى ، سوى حملة «تيموليون» (Timoleon) الكورنثى ، تلك الحملة التى أرسلتها كورنثا لمساعدة سرقوسة ضـد القرطاجيين ، الذين حاولوا عن طريق أسطولهم — منع «تيموليون» من دخول صقلية ، غير أن تيموليون قد نجح فى الافلات من القوة البحرية القرطـاجية ، فضلا عن الانتصار على القوة البريـة القرطاجية والصقلية المعـارضة لدخوله سرقوسـة .

ومن البدهى أن قرطاج لم تستسلم للقائد الكورنثى (تيموليون) ،

---

(١٧) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ١٩٨ — ١٩٩ .
B. H. Warmington, Op. Cit., P. 101-103.
(١٨) ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٧ .

ـ أو كما يسمى «صدر بعل أو ستر بعل ـ ومعه «هملكار» ـ أو كما وانما أرسلت فى عام ٣٤١ ق.م ، قوة حربيـــة ، بقيادة «هزدروبال» يسمى عماقارت أو عبد ملقارت ـ غير أن «تيموليون» سرعان ما تدارك الموقف ، واستخدم أسلوب المباغته فى التحركات الحربية ، حتى استطاع أن يوقع بالقرطاجيين هزيمة منكرة ، عند نهــر «كريمسوس» ، وقتل «هزدروبال» ، وتلاه فى القيادة «جزجو بن هانو» الذى عقــد اتفاقية سلام مع «تيموليون» الذى اضطر أخــيرا الى ترك العمل السياسى ، عندما فقد بصره فى عام ٣٣٨ ق.م[١٩] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنـــا الى أن معركة «كريمسوس» Crimisos فى عام ٣٤١ ق.م ، انما دمرت قوة قرطــاجية مختارة ، قوامها ثلاثة آلاف مواطن قرطاجى ، ومن ثم فقد كانت ، فيمــا يرى البعض ـ أفدح خسارة منيت بها قرطاج ، التى كانت تعتمد على المرتزقة الى حد كبير .

وعلى أيـــة حـــال ، فلقد خلف «تيموليـــون» فى حكم سرقوســـة «أجاثوكليس» Agathockes غير أن الموقف كان مختلفا تماما ، فيما بين عامى ٣١٠ ، ٣٠٧ ق.م ، حيث خاضت قرطاج حربا ضد سرقوسة ـ بقيادة أجاثوكليس ـ استطاعت فيها قرطاج أن تجعل سرقوسة تحت الحصار التام ، ولكن «أجاثوكليس» استطاع أن يفلت من الاســـطول القرطاجى ، وأن ينزل فى صيف عام ٣١٠ ق.م أربعة عشر ألف رجل فى صميم الاراضى المغربية ، وأن يشعل النار فى سفنه بعد انزال جنوده على الشاطىء المغربى فى منطقة سيدى داود ، غربى رأس عنابه ، مما كان له أكبر الاثر السىء فى نفسية القرطاجيين ، حتى أن الذعر وصل بهم الى

---

(١٩) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، وكذا
B. H. Warmington, Op. Cit., P. 110-113.
رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ ، وكذا

الالتجاء الى معبوداتهم ، والتقرب اليها بالقرابين الكثـيرة — وخاصة التضحيات البشرية من أبناء النبلاء — •

وفى نفس الوقت ، فـان القرطـاجيين سرعـان ما ضاعفـوا من استعداداتهم العسكرية لحماية الدولة من هذا الضغط المبـاشر ، الذى جعل من بلادهم نفسها ميدانا للمعركة ، وهكذا تكون جيش من أربعين ألفا من المشاة ، فضلا عن عدد كبير من الفرسان والمركبـات الحربية ، بقيادة «هانو» و «بوملكار» ، وتمكن «أجاثوكليس» من الانتصـار فى أولى معاركه ضد القرطاجيين ، واضطر «بوملكار» الى التراجـع ، فى نفس الوقت الذى لم يحقق فيه «هملكار» أى نصر حاسم فى صقلية ، بل على العكس من ذلك ، فلقد نجح السرقيون فى قتل «هملكار» وارسال رأسه الى «أجاثوكليس» فى المغرب ، كتأييد مادى لانتصارهم ، الامر الذى زاد فى دعم «أجاثوكليس» المعنوى ، ومن ثم فقد تقدم بقواته الى سوسة ثم أوتيكا وبنزرت ، بغية حصار قرطاج نفسها ، وفى نفس الوقت عمل على تدعيم قواته بقوات أخـرى خارجية ، ومن ثم فقد اتفق مع «أفلاس» — وهو أحد حراس الاسكندر المقدونى — على أن يتقـدم بقواته من برقه ، لتلحق بقوات «أجاثوكليس» حول قرطـاج ، غير أن «أفلاس» الذى كان شديد الاعتزاز بيونانيته ، لم يستطع التعاون مع «أجاثوكليس» الصقلى اليونانى ، ومن ثم فقد دبر «أجاثوكليس» خطة تخلص بها من «أفلاس» ، وضم قواته اليه •

غير أن القرطاجيين سرعان ما انتهزوا فرصة سفر «أجاثوكليس» الى سرقوسة ، واسـناد قيادة قواته فى المغرب الى ولـده «أركاجثوس» (Archagethus) ، فقـامت بتجهـيز ثلاثة جيـوش لتـأمين الدولة من الحصار المضروب حولها ، فضلا عن تأمين البربر على أنفسهم وأموالهم ، حتى يأمنوا جانبهم ، وقد نجحت الجيوش القرطاجية فى مهمتها ، الامر الذى أضطر «أجاثوكليس» الى العودة الى المغرب ، غير أن القرطاجيين

انما كانوا قد نجحوا فى لتخلص من الحصار ، وانتهى الامر بعقد اتفاقية هدنة بين الفريقين ، ونجت الدولة القرطاجية من خطر داهم ، وان خربت مساحات واسعة فى الاراضى القرطاجية فى الاعـوام الثلاثة (٣١٠ ــ ٣٠٧ ق٠م) التى قضتها قوات «أجاثوكليس» فى أفريقيا ، قبل ارغامها على الرحيل منها[٢٠] ٠

٢ ـ الصراع العســكرى ضــد الرومان

(١) ظهور روما :

يكاد المؤرخون يجمعون على أن روما عندما ظهرت فى ضوء التاريخ ، لم تكن سوى بلدة تجارية صغيرة ، تقع فى مجاورات مخــاضة على نهــر «التيبر» ، وسكانها قوم ناطقون بالارية ، يحكمهم ملوك من الاترسك ، هذا ويرجع المؤرخون تأسيس روما الى عام ٧٥٣ قبل الميلاد — أى بعد تأسيس قرطاج فى عام ٨١٤ ق٠م ، بحوالى ستين عاما ـــ وبعد اقــامة أول حفل للالعاب الاولمبية (فى عام ٧٧٦ ق٠م) ـــ بما يقرب من ربع قرن من الزمان ، غير أن الحفريات فى السوق (الفوروم الرومــانى)[٢١] ، كشفت عن «أترسكيه» ترجع الى عهد أبعد كثيرا من عام ٧٥٣ ق٠م[٢٢]، ربما الى ألف سنة قبل الميلاد ، ومع ذلك ، فلا يزال أكثر التواريخ تداولا لتأمين روما ، هو الحادى والعشرون من أبريل عام ٧٥٣ قبل الميلاد ، وأما أسطورة تأسيسها على يد «رمولوس» ، فلا تفيد نفعا ، ولا تقدم علمـــا ٠

وعلى أية حال ، فلقد حتم موقع روما الجغرافى الممتاز تقلدها للزعامة

---

(٢٠) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، وكذا

(٢١) الفورم (Forum) : هو سوق المدينة فى روما ، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء ، وهو ملتقى الاجتماعات العامة ، ولما اتسعت المدينة زاد عدد الاسواق بها ، وكانت تقوم به المنشآت العامة والابنيــة العامة ويسمى ذلك السوق عند اليونان «الاجوراء» (Agora) (معالم تاريخ الانسانية ٣٨٣/٢ ، ٥٢٧) ٠

22) H. G. Wells, A Short History of The World, 1865, P. 112.

السياسية ، ومع ذلك ، فلم تكن روما — وموقعها على الحدود بين اللاتين والاتروريين — فى موقع شديد المنعة ، يساعد على الدفاع عنها ، هذا فضلا عن أنها انما كانت محاطة بالعناصر الاترورية (الاترسك) التى كانت تقطن فى الشمال ، والعنصر الايطالية — الاومبرية والسابلية — شرقى نهر التيبر ، واللاتينية فى جنوبه ، وغيرها من العناصر الاخرى ، وخاصة العناصر اليونانية ، التى كانت تستحوذ على بعض المستعمرات التجارية الهامة فى جنوب شبه الجزيرة الايطالية[٢٣] .

وربما كان هناك — فى بادىء الامر، ملوك لاتينيون فى روما ، ثم سقطت بعد ذلك فى أيدى عواهل الاتروريين ، الذى أدى طغيانهم ، آخر الامر ، الى طردهم فى عام ٥٠٩ ق.م (وربما فى عام ٥١٠ ق.م) ثم أصبحت روما جمهورية ارستقراطية ، بها طبقة سادة من الاسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فيمن عداها من عامة الشعب (البليبيان) ، ولولا ما كانت تنطق به من لسان لاتينى ، ما شعر أحد بفارق بينها وبين كثير من الجمهوريات الاغريقية الارستقراطية[٢٤] .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد بدأ الرومان يبسطون سلطانهم على غيرهم ، وكانوا حتى ذلك الحين فى حروب دائمة مع الاترسك ، كانت تنتهى بالاخفاق على وجه العموم ، فلقد كان الاتروريون أحسن تسليحا ، وأكثر تمدنا ، وأوفر عددا ، وكان هناك على مدى بضعة أميال من روما ، قلعة اترسكية ، هى قلعة فياى ، التى لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها ، كما كان من الراجح أن تدور الدوائر على الرومان ، لو أنهم اضطروا الى مقاتلتهم منفردين .

على أن الاتروريين (الاترسك) سرعان ما أصيبوا بكارثتين ، أو هنتا قواهم الى حد أن الرومان استطاعوا آخر الامر أن يغلبوهم على أمرهم

(٢٣) عبد اللطيف أحمد على : روما — الجزء الاول — تاريخ الجمهورية والامبراطورية الرومانية — القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٧ .
24) H. G. Wells, Op. Cit., P. 112.

غلبة تامة ، وكانت أولى هـاتين الكارثتين حـربا مع اغريق سرقوسة فى صقلية ، انتهت بتدمير الاسطول الاتروى فى عام ٤٧٤ ق٠م ، والثانية غارة الغال على ايطاليا ، وذلك حين احتشد هؤلاء القوم ، وانتشروا فى شمال ايطاليا ، واحتلوا وادى نهر «بو» فى أخريات القرن الخامس ق٠م، كما احتشد ذو قرباهم بعد ذلك بقرنين ، وهبطوا على بلاد الأغريق وآسيا الصغرى ، واستقروا فى غلاطيا ، وبذلك وقع الاترورييون بين المطرقة والسندان ، وبعد حروب طويلة فى فترات متقطعة استطاع الرومان أن يستولوا على قلعة «فياى» (Veii) ، وكانت حتى ذلك الحين مصـدر تهديد ومضايقة لهم ٠

على أن غزو الغال (Gaul) النورديين انما كان احدى تلك الاعاصير التى تعصف بالشعوب عصفا فلا تذر شيئا على حاله ، فانهم واصـلوا غاراتهم قدما فى شـبه الجزيرة الايطالية ، وهم يخربـون كل شىء فى «أتروريا» — موطن الاتروريين (الاترسك) فى غربى وسط ايطاليا — حتى استولوا آخر الامر على روما نفسها ونهبوها فى عام ٣٩٠ ق٠م ، وان لم يكتب لهم نجحا قريب المـدى أو بعيده فى فتح «الكابيتـول» (Capitol) ، وطبقا لأسطورة رومانية ، فان صياح الاوز كشف عن محاولة الغال القيام بهجوم ليلى مباغت ، وانتهى الامر بأن اشـترى الرومان أنفسهم وحريتهم بالمال ، وتراجع الغال الى شمال ايطاليا[٢٥] ٠

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن غزو الغال لروما ، انمـا استنهض همتها ، بدلا من أن يخمد نشاطها ويقعدها عن العمل ، ومهما يكن مقدار ما لقيت من الآلام ، فأكبر الظن أن جيرانهـا عانوا من الويلات ، ربما أكثر مما عانت ، ولم يأت عام ٢٩٠ ق٠م ، حتى كانت رومـا سيدة كل ايطاليا الوسطى من نهر الآرنو (Arnoo) الى جنوب «نابلى» ، فانهـا

---

(٢٥) هـ٠ ج٠ ويلز : معالم تاريخ الانسانية — ترجمة عبد العـزيز توفيق جاويد — القاهرة ١٩٦٩ ص ٥١٠ — ٥١١ ٠

H. G. Wells, A Short History of The World, 1965, P. 113.

قهرت الاتروريين قهرا تاما ، وأخذت حدودها تنتقل شمالا تبعا لتقهقر حدود الغال ، وتمتد جنوبا بارتداد تخوم أصقاع ايطاليا الواقعة تحت السيادة الاغريقية ، وبثت الحاميات ومدن المستعمرات ، على امتـــداد الحدود بينها وبين الغال ، ولاشك أن هذا الخط الدفاعي هو السبب فى انحراف غارات الغال وجهودهم نحو الشرق الى بلاد البلقان(٢٦) •

هذا وقد عاصرت فتوحات الرومان فى ايطاليا ، فتوحات الاســكندر المقــدونى (٣٥٦ — ٣٢٣ ق•م) فى الشرق الادنى القديم ، غــير أن امبراطورية الاسكندر ، سرعان ما تمزقت فى أعقاب وفاته فى الثالث عشر من يونية عام ٣٢٣ ق•م ، وتقسيمها بين قواده ، وكان هناك أمــير من ذوى قرابة الاسكندر يدعى «بيروس» (Pyyrrhus) ، وطــد ملكه فى «ابيروس» (Epirus) — وهى من وراء البحر الادرياتى قبالة كعب ايطاليا — وكان يطمع فى أن يقوم فى «الماجنا جرايكا» (Magna Graecia) (بمعنى بلاد الاغريق العظمى) بدور «فيلب المقدونى» معها ، وأن يصبح حاميا وسيدا عاما لمدينة (Tarentum) و «سرقوسة» (سيراكيوز = Syracuse) وباقى ذلك الجزء من العالم •

وكان لديه جيش كان يعد فى زمانه ، جيشا عصريا عظيم الكفاءة ، فقد كان لديه فيلق من المشاة ، وكتيبة فرسان من تساليا ، تضـــارع فى كفاءتها الخيالة المقدونية الاصيلة ، فضلا عن خمسة وعشرين فيلا ، فغزا ايطاليا ، وبدد شمل الرومان فى موقعتين ، الواحدة فى عام ٢٨٠ ق•م، فى «هراقليا» (Heraclea) ، والاخرى فى عام ٢٧٩ ق•م ، فى «أوسكولم» (Ausculum) ، ولمـــا تم له دفعهم نحو الشمال ، وجــه اهتمامه الى اخضاع صقلية(٢٧) •

بيد أن هذا جلب عليه عدوا كان وقت ذاك أرهب جانبا من الرومان ، وهو قرطاج الفينيقية ، وكانت آنذاك أعظم مدن العالم ، أو لعلها كذلك،

---

(٢٦) هـ• ج• ويلز : المرجع السابق ص ٥١٢ •

27) H. G. Wells, Op. Cit, P. 113-114.

وكانت صقلية قريبة من القرطاجيين قربا لا يستطيعون معه أن يرحبوا بمقدم «اسكندر جديد» اليها ، كما أن قرطاج لم تكن قد نسيت بعد المصير الذى حل بأمها «صور» قبل ذلك بنصف قرن ، ومن ثم فقد أرسلت أسطولا يشجع روما — أو يرغمها — على مواصلة الكفاح ، كما قطعت مواصلات «بيروس» ، فوجد الرومان يهاجمونه من جديد ، ويحطمون بعنف ساحق هجوما قام به على معسكرهم فى «بنيفنتم» (Beneventum) — بين نابلى وروما — فى عام ٢٧٥ ق.م[٢٨] ، الامر الذى أدى الى أن انتقلت صقلية بأكملها الى قرطاج ، وتقدمت حدود روما جنوبا حتى أصابع ايطاليا وعقبها ، ثم سرعان ما أصبحت السيادة فى شبه الجزيرة الايطالية لروما ثم ظهور روما كدولة قوية وجديدة وخطيرة فى المنطقة .

(٣) علاقة قرطاج بروما فيما قبل الحرب البونية :

لم تكن العلاقات بين روما وقرطاج يشوبها — فى أول الامر — شيء من العداء ، فروما دولة برية ، أساس اقتصادها الزراعة ، وكان كل نشاطها الخارجى فى الميدان الزراعى ، وقرطاج دولة بحرية ، يقوم نشاطها الاقتصادى على التجارة ، وكان امتداد نفوذها يسلك سبيل البحر ، ومن ثم فلا تعارض بين مصالح الدولتين ، وبالتالى فليست هناك أسباب للصدام بينهما ، وانطلاقا من كل هذا ، ففى العام التالى لقيام الجمهورية الارستقراطية فى روما ، عقدت معاهدة بين روما وقرطاج فى عام ٥٠٨ ق.م ، ثم تجددت هذه المعاهدة بين الدولتين مرتين ، الاولى فى عام ٣٧٨ ق.م ، والثانية فى عام ٣٤٨ ق.م ، لتنظيم التجارة بينهما ، ورغم أن قرطاج قد تعهدت بمقتضى المعاهدة الاخيرة ، ألا تتدخل فى شئون المدن اللاتينية ، فضلا عن مساعدة روما على التحكم فى هذه المدن ابان عصيانها ، ورغم أن روما أصبحت الان أقوى كثيرا مما كانت عليه من قبل ، رغم ذلك كله ، فالذى لا ريب فيه ، أن المعاهدة انما كانت فى صالح قرطاج الى حد كبير ، وذلك لان مصالح روما التجارية لم تكن

---

28) Ibid., P. 114.

شيئا ذا أهمية بالنسبة لتلك التى كانت لقرطاج ، و على الاقــل لم تكن فى درجتها من الاهمية •

وفى العصور التالية اندفعت رومــا بسرعة مذهلة لكى تصبح القوة المسيطرة فى ايطاليا ، وتقلصت تدريجيا تلك الثغرة الفاصلة بين المنــاطق التى تهتم بها كل من القوتين،عندما بدأ عدو قرطاج القديم «أجاثوكليس» فى عام ٢٩٣ ق•م ، يقوم بنشــاط عسكرى فى جنــوب ايطاليا ، وبعد ســنوات قلائل دعى الملك «بيروس» (Pyrrhus) ملك «ابيروس» (Epirus) الى ايطاليا ، ليعمل على تحرير المدن الاغريقية فى جنوب ايطــاليا والتى تزعمتها «تارنتوم» (Tarentum) من السيادة الرومانية[٢٩]، وكما أشرنا من قبل ، فلقد وقفت قرطاج الى جــانب روما ، ومكنتها من الانتصار على «بيروس» فى «بينفنتم» (Beneventum) عام ٢٧٥ قبل الميلاد[٣٠] •

وهكذا لم يكن هناك — حتى هذا التاريخ — تضارب فى المصالح بين قرطاج وروما ، غــير أنه لم يمض غير عقد من الزمــان ، حتى دخلت الدولتان فى صراع أنزل بكل منهما خسائر فادحة ، لم تعرفها حرب حتى ذلك الحين ، ورغم أن النتيجة كانت ذات أهمية فى مجال توظيف العوامل الجغرافية لصالح السياسة ، فليس هناك سوى شك ضئيل فى أن سبب الحرب انما كان تافها ، وأن كلا الجانبين لم تكن له أهداف محددة ثابتة •

وفى عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، قبلت روما استسلام «مسينا» (Messina) — والتى كانت من قبل حليفا لقرطاج ضد سرقوسة — وكان الســاسة الرومان وقتئذ على درجة كبيرة من الثقة بالنفس ، ويبدو أنهم توقعوا أن قرطاج لن تقاوم ، وأن هناك غنائم عظيمة سهلة يمكن الحصول عليها من المدن الاغريقية فى صقلية ، كما أخذت المخاوف مأخذها من الرومان، من أن قرطاج اذا ما سيطرت على مسينا يمكنها أن تسيطر على ايطاليا ،

---

(٢٩) ب• هـ• وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٧ — ٤٦٨ •
(٣٠) هـ• ج• ويلز : المرجع السابق ص ٥١٣ •

والتى لم يكن لها فيها مصالح حقيقة البتــة ، وفى نفس الوقت صممت قرطاج على مقاومة التدخل الرومانى ، لأنه سيعنى تغييرا كاملا فى ميزان القوى الذى كان قائما فى الجزيرة لمدة قرن ونصف القـــرن ، كما أنها شعرت ، دونما ريب ، أن السياسة الرومانية انما هى مغامرة خطيرة ، على أن روما انما كانت فى ذات الوقت ، على تمام الاهبة لما يسمى فى لغة السياسة العصرية ، وأسلوبها العقيم ، باسم «الحرب الهجـومية الدفاعية»[31] •

وهكذا قامت الحرب البونية[32] المشهورة فى التــاريخ الرومانى القرطاجى بأدوارها الثلاثة ، كانت الحرب الاولى فى الفترة (٢٦٤ — ٢٤١) ، وكانت الثانية فى الفترة (٢١٨ — ٢٠١ ق•م) ، وكانت الثالثة فى الفترة (١٤٩ — ١٤٦ ق•م) وذلك من أجل السيادة على غربى حوض البحر المتوسط •

(٣) الحرب البونية الاولى (٢٦٤ ـ ٢٤١ ق•م) :

بدأت الحرب البونية (الفينيقية) الاولى فى عام ٢٦٤ قبل الميلاد ، بسبب حادث مسينا ، فى شمال جزيرة صقلية ، وذلك حين قام جماعة من الجنود المرتزقة الايطاليين من اقليم «كمبانيا» (Campania) فى جنوب ايطاليا ، كانوا يعملون فى خدمة الملك «هـيرو» (Hero) حاكم مدينة «سرقوسة» (Seracuse) ، وبعد انتهاء خدمتهم ، وأثناء عودتهم الى كمبانيا ، مروا بمدينة «مسينا» (Messina) فحاولوا الاستيلاء عليها ، وكانت «مسينا» (مسانا) تابعة سياسيا لملك سرقوســة ، فطلب منهم مغادرة المدينة ، وحين رفضوا طلب المساعدة من رومـا وقرطاج فى آن واحد ، فأسرعت قرطاج الى الوقوف فى جانب سرقوسة ، بينما تباطــأ مجلس الشيوخ الرومانى (السيناتو) ، وأخيرا قرر الانحياز الى جانب

(٣١) ب• هـ• وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٨ ، هـ• ج• ويلز: المرجع السابق ص ٥٣٣ •

(٣٢) كلمة «البـــونية» (Punic) مشتقــة من الكلمة اللاتينيــة «بيونيكوس» (Punicus) أى القرطاجية ـ أعنى الفينيقية ـ ومن هنـا سميت الحرب بين روما وقرطاج بالحرب البونية أو الحرب الفينيقية •

جنود كمبانيا من المرتزقة ، على أساس أن روما هى المسئولة عن حماية المقاطعات الايطالية ، ومن بينهـا كمبانيا ، وعندما عرض الامـر على الجمعية المئوية أقرت اعلان الحرب ، وهكذا بدأ أعنف صراع بين روما وقرطاج فى التاريخ القديم ، والذى عرف باسم «الحرب البونية»(٣٣) .

ولا ريب فى أن التفوق البحرى فى هذه الحرب ، انما كان — فى بادىء الامر — للقرطاجيين ، فقد كانت لهم سفائن حربية كبيرة لم يسمع حتى ذلك الحين بمثل حجمها ، وهى «الخماسيـات» أو «المخماسـة» ، أى السفن ذات الصفوف الخمسة من المجاديف والكبش الضخم (وهو نتوء برأس كبش ناشـز من سفينة لاتلاف سفن الاعـداء) ، وكانت أعظم السفن فى معركة «سلاميس» فى عام ٤٨٠ ق.م ، (حيث انتصر الاسطول الاثينى على الفرس) ، هى «المثلثات» أو «المثلاثة» ، وليس لهـا الا ثلاثة صفوف ، غير أن الرومان سرعان ما نصبوا أنفسهم بهمة خارقة ، على الرغم من قلة درايتهم بالامـور البحرية ، للتفوق على ما ينتجـه القرطاجيون من سفن ، وكانوا يستخدون بحارة من الاغريق فى تسيير الاساطيل الجديدة التى أنشأوها ، ولكى يعوضوا أنفسهم عما عليه العدو من تفوق فى الملاحة ، فقد اخترعوا طريقة امساك سفن الاعداء بالكبابيش (الكلابات) واعتلائها ، فاذا أقبل العدو من القرطاجيين لصك مجاديف الرومان بالكباش أو قطعها ، تعلقت كبابيش ضخمة من الحديد بسفنهم ، وتزاحم الجنود الرومان الى ظهورها زرافات ووحدانا(٣٤) .

ومن الغريب ، أنه على عكس ما كان يتوقع الناس ، فان الاسطول القرطاجى لم يثبت أنه الاقوى ، بالرغم من أن الرومان لم يكونوا يملكون أسطولا من أى حجم حتى عام ٢٦١ ق.م ، ولقد انتصر الرومـان فى البحر مرتين ، الاولى : فى معركة «ميلاى» (Mylae) عام ٢٦٠ ق.م ، على ساحل صقلية ، وخسر الاسطول القرطاجى عشرة آلاف رجل من

---

(٣٣) مصطفى العبادى : مذكرات فى التاريخ الرومانى — بيروت ص ٤٠ .

34) H. G. Wells, A Short History of The World, 1965, P. 115-116.

مجدفى الاسطول ، والثانية : معركة رأس «ايكنوموس»(Economus) عام ٢٥٦ ق٠م[٣٥] ، وأغرق الرومان لقرطاج ثلاثين سفينة ، واستولوا على أربع وستين[٣٦] ٠

هذا وقد دفع هذا النصر الرومان الى التفكير فى غزو أفريقيا ذاتها ، ومن ثم فقد أرسلت روما فى عام ٢٥٦ ق٠م ، جيشـــا بقيادة القنصلين «فالسو» (M. Vulso) و «رجولوس» (A. Regulus) وقد نجحت هذه القوة الرومية فى أن تحتـــل «اسبس» (Aspis) شرقى عنـــابة ، وأن تستولى على تونس — على مبعدة ١٦ كيلا من قرطاج — وزاد الطين بله بالنسبة للقرطاجيين ، أن البربر انتهزوا هذه الفرصة وقاموا بثورة عارمة ضد قرطاج ، ربما بسبب المعاملة القاسية التى عومل بها البربر من الجنود المرتزقة أحيانا ، وربما بسبب عدم دفع أجورهم المتأخرة ، وربما بسبب نزعة البربر الاستقلالية ، والتى كانت تهدف الى الاستقلال والتخلص من النفوذ القرطاجى ، وربما بسبب هذه العوامل مجتمعة[٣٧] ٠

غير أن القرطاجيين سرعان ما نجحوا فى القضاء على الحملة الرومية، وأسر قائدها «رجولوس» فى عام ٢٥٥ ق٠م ، بل ونقل ميدان المعركة مرة أخرى الى صقلية ، ولكنهم هزموا فى عام ٢٥١ ق٠م ، هزيمة منكرة على مقربة من «بالرمو» ، حيث خسروا مائة وأربعة من الفيلة ، أخذها الروم وجعلوها زينة لموكب نصر عظيم اخترق «الفوروم» (Forum) ، لم تر روما له من قبل نظير[٣٨] ، ثم ضربوا حصارا باء بالفشـــل على مدينة «ليلبيايوم» — وكانت المعقل الرئيسى البـــاقى فى أيدى القرطـــاجيين فى صقليـــة — ٠

وهكذا أختل ميزان القوى السياسية مرة أخرى ، وتصادمت القوتان

---

(٣٥) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٨ ٠
(٣٦) هـ٠ ج٠ ويلز : معالم تاريخ الانسانية ، الجزء الثانى ص ٥٣٧ ٠
(٣٧) انظر : رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ٠
38) H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

ــ الرومية والقرطاجية ــ فى المجال البحرى ، وتمكن القرطاجيون من أسر عدد من السفن الرومية ، كما بدأوا فى تدعيم قواتهم فى صقلية . ومن ثم فقد أرسلوا قوة قرطاجية جديدة بقيادة «كارثالو» (Carthalo) ، غير أن القنصل الرومى «بولوس» (Pullus) سرعان ما تصدى لهذه القوة القرطاجية ، ونجح فى حصار «كارثالو» بين قوتين بحريتين روميتين[٣٩] .

وأرسلت قرطاج أكثر قوادها مهارة ومقدرة «هملكار» ــ والذى يعد هو وولده هانيبال (هانيبعل) أخطر من تصدى لقتال روما من قواد فى تاريخها القديم بأسره ــ واستطاع «هملكار» أن يحتل جبلا شمالى «بالرمو» (بانورموس ــ Panormus) يدعى "Erecte" ، وعلى الرغم من محاصرة الروم له ، فلقد استطاع ــ بمقدرة نادرة ــ أن يقاوم الحصار عدة أشهر ، وأن يوجه الجنود الى رعى الابقار وزراعة القمح فوق الجبال ، كما استطاع هؤلاء الجنود القلائل ، بتوجيهات عبقريته الملهمة ، أن يأتوا بالاعجايب ، فمن هذا الموقع الصغير ، استطاع «هملكار» أن يشن عدة هجمات على المواقع الرومية على ساحل صقلية ، وأن يتصل بوحدات خفيفة من الاسطول القرطاجى ، وأن ينظم هجماته بحيث كانت برية وبحرية فى ان واحد .

وما أن تمضى سنون ثلاثة على هذا النحو ، حتى ينتقل «هملكار» الى جبل آخر يسمى Ergx ويتصل بعدد أكبر من القوات القرطاجية، غير أن قواته انما كانت أقل من أن تحقق نصرا حاسما على الروم ، هذا فضلا عن أن الروم بدأوا ــ فى نفس الوقت ــ يتجهون الى القيام بحرب بحرية بصورة أقوى وأكبر من ذى قبل ، ومن ثم فقد أعادوا بناء أسطولهم ، واستخدامه فى قطع سبل المواصلات بين صقلية وقرطاج ، وليس فى محاولة غزو أفريقيا ، كما حدث من قبل ، وهكذا ، وفى عام ٢٤٢ ق.م ، قام الروم بمهاجمة قافلة حربية قرطاجية تحمل الجنود

39) B. H. Warmington, Carthage, London, 1961, P. 160.

والمؤون للمحاربين ، ودمروا جزءا كبيرا من الاسطول القرطاجي[٤٠] ، وهكذا انتهت الحرب البونية لاولى عندما هزم الاسطل القرطاجي في جزر «ايجاتيس» Eegates ، أو الجزائر الايجاتية في عام ٢٤٢ ق٠م ، وهذا يعني ببساطة أنه لم يعد في امكان قرطاج استمرار الامدادات الى صقلية ، وأنه سيتبع ذلك سلام الاستنزاف ، والذي تخلت فيه قرطاج عن صقلية نهائيا ، كما وافقت على دفع تعويضات مالية ضخمة ، بلغت ٣٢٠٠ بالنتون (حوالي ٤ ملايين دولار) ، فضلا عن الافراج عن جميع الاسرى الروم دونما أي فدية ٠

وليس هناك الى سبيل من ريب ، في أن هذه الشروط الجائرة ، انما كان لها أسوأ الاثر في قرطاج فلم تكتف روما بالسيطرة على صقلية — — فيما عدا ممتلكات هيرو ملك سرقوسة — وانمـا استغلت أيضـا ثورة الجند المرتزقة (٢٤١ — ٢٣٨ ق٠م) ضـد قرطـاج ، فاستولت على «كورسيكا» و «سردينيا» ، وحين احتجت قرطاج بأن شروط الصلح لم تتضمن شيئا بشأن هاتين الجزيرتين ، زادت روما التعويض بمقـدار ١٢٠٠ بالنتون ، وجعلت من نهر «ابرو» حدا أقصى للتوغل القرطاجي في أسبانيا ، وهكذا أدت الحرب البونية الاولى الى أن أصبحت صقلية أول ولاية رومية ، ثم سردينيا وكورسيكا الولاية الثانية[٤١] ٠

وزاد الطين بله في قرطاج ، انتشار الفوضى الداخليـة ، ذلك أن الجنود العائدين من الحرب لم يستطيعوا الحصـول على أعطياتهم ، فتمردوا وأخذوا ينهبون ويسلبون ، وتركت الاراضي بورا ، لا تجد من يزرعها ، هذا فضلا عن أن العناصر البربرية انما انتهزت فرصة ضعف الدولة القرطاجية ، للحصول على حقوقهم ، والتمهيد لسيادتهم المستقلة ، وكما أشرنا من قبل ، فلقد استمرت هذه الفوضى أو الثورة فيما بين عامي

---

(٤٠) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٤١ — ٤٢ ٠

(٤١) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٣ ، هـ٠ ج٠ ويلز : المرجع السابق ص ٥٣٩ ، وكذا
H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

٢٤١ ، ٢٣٨ ق٠م ، وقد استعملت قرطاج كل أنواع القسوة لاخماد هذه الفوضى والفتن الداخلية ، حتى أننا نقرأ فى سجل التاريخ صفحات رهيبة من القساوات المروعة التى حدثت ابان اخماد «هملكار» القائد القرطاجى لهذا الشعب ، فنسمع برجال يعدمون صلبا بالالف دفعة وحدة[٤٢] •

على أن الحال فى روما ، لم يكن خيرا منه فى قرطاج ، فلقد ثار الغال (Gauls) ، وانحدروا جنوبا فى ايطاليا — والتى بلغ الهلع بها ، فضلا عن الانحطاط الخلقى والدينى ، الى حد تقديم القرابين والاضاحى البشرية لآلهتها الوثنية — غير أن الروم سرعان ما استطاعوا هزيمة الغال فى معركة «تيلامون» (Telamon) ، وقتلوا منهم أربعين ألفا ، وعندئذ تقدمت روما قدما الى جبال الالب ، بل تجاوزتها ومدت سلطانها جنوبا بحذاء البحر الادرياتى حتى الليريا[٤٣] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن أسباب فشل القرطاجيين فى صراعهم ضد الرومان على أيام الحرب البونية الاولى ، انما يرجع الى أسباب ، ربما كانت تتصل بالقرطاجيين أكثر من اتصالها بالروم ، لعل من أهمها (أولا) أن المجتمع القرطاجى لم يكن مجتمعا مترابطا ، ذلك لأن الفينيقيين القادمين من الشرق لم يستطيعوا — حتى بعد الاستقرار فى المغرب وتكوين الدولة القرطاجية — الاندماج الكلى مع السكان الاصليين من العناصر البربرية ، فضلا عن انصهار العنصرين — الفينيقى والبربرى — فى بوتقة واحدة ، تجعل منهما شعبا قرطاجيا واحدا ، صحيح أن بعض العناصر البربرية قد اندمجت فعلا فى المجتمع الجديد ، ولكنه صحيح كذلك ، أن البربر فى جملتهم — لم ينصهرا فى المجتمع الجديد ، ولم يصبحوا جزءا لا يتجزأ من هذا المجتمع ، ربما لان الفينيقيين ظلوا على طبيعتهم الاولى — الطبيعة البحرية التجارية — مع بعض محاولات ، قليلة أو كثيرة ، للنفوذ داخل القارة الافريقية ، غير أن الطبيعة البحرية للفينيقيين ، انما كانت هى الاساس •

---

(٤٢) هـ٠ ج٠ ويلز : المرجع السابق ص ٥٣٨ •

43) H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

وربما لأن الفينيقيين انما كانوا يستخدمون البربر ، كجنود مرتزقة، وليسوا جنودا وطنيين — وخاصة فى سلاح الفرسان لمهارتهم فى ركوب الخيل والعدو — غير أن المعاملة القاسية ، فضلا عن وضعهم فى مقدمة الصفوف ، حين تشتعل أوار الحرب ، الى جانب تأخير أجورهم ، انما قد دفعهم الى الثورات المتكررة ضد القرطاجيين ، بل والتحالف — فى بعض مراحل الصراع — مع الروم ضد القرطاجيين ، ثم محاولة الاستقلال عن قرطاج وروما معا •

ومنها (ثانيا) عدم وجود جيش قرطاجى دائم — مدرب ومنظم — فضلا عن الاعتماد على المرتزقة ، والذين كانوا يحسون بقليل من الاخلاص نحو الدولة القرطاجية ، وقد أصبحوا يمثلون معظم قوة الدفاع عنها ، ولم يمض طويل وقت حتى وجدوا أنفسهم دون مرتبات منتظمة ، الامر الذى يجعل اخلاصهم لها يتوقف الى حد كبير على الوفاء بدفع أجورهم — بعكس الوطنيين الذين يبذلون النفس والنفيس رخيصا فى سبيل الوطن ، وقد أشار «فلوبيس» الى هذه الحقيقة حين قال : ان تفوق الرومان العسكريين على القرطاجيين ، انما كان تفوق «الجنود — الوطنيين» الذين تحفزهم الروح الوطنية على «المرتزقة» ، أضف الى ذلك كله تدريب هؤلاء المرتزقة — الذين كانوا — يجمعون وقت الحرب — على الاسلحة المختلفة ، خاصة وقد شهدت تلك الفترة تطورا كبيرا فى الاسلحة ، كالمجانيق الكبيرة للقذف بالكتل الحجرية على أسوار المدن ، والكلبشات الحديدية القلابة للسفن ، فضلا عن استخدام انعكاسات الاشعة الشمسية على المرايا ، واستغلال ذلك فى اشعال الحرائق فى السفن وتجمعات الاعداء •

ومنها (ثالثا) عدم استقرار الاوضاع الداخلية — السياسية والاقتصادية — فى المجتمع القرطاجى ، فهناك مثلا النزاع التقليدى بين طبقات المجتمع حول الثروة ، ففريق يعتمد فيها على الزراعة ، وآخر يعتمد على التجارة الخارجية ، وهناك التنافس بين رجال الجيش وطبقات المجتمع الاخرى ، فضلا عن التنافس بين القادة أنفسهم حول السلطة

السياسية ، الامر الذى أدى الى عدم وجود رأى سياسى قرطاجى موحد، ومن البدهى أن ذلك كله انما يؤثر فى اتخاذ القرار السياسى — وخاصة فى العمليات العسكرية — فى الوقت المناسب ، وكثيرا ما اختلف أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجى حول القرارات المصيرية ، الامر الذى كان أحد عوامل فشل قرطاج فى حروبها البونية ضد الرومان(٤٤) .

(٤) الحرب البونية الثانية (٢١٨ — ٢٠١ ق.م) :

دام السلام بين روما وقرطاج اثنتين وعشرين سنة ، وكان سلاما لا رخاء فيه ولا رغد ، قاسى فيه كلا المتحاربين آلام العـوز وانحلال النظام ، التى تتلو بالضرورة والطبيعة كل الحـروب الكبيرة ، وكانت أراضى قرطاج تضطرم بالفوضى العنيفة ، فلقد أدى الضيق المالى الذى سببته الحرب الى صعوبة دفع مستحقات المرتزقة الذين كـان نصفهم ليبيين ، وقامت ثورة فى أفريقيا تميزت ، كما أشرنا من قبل ، بالوحشية القاسية من الجانبين ، وتورط فيها حوالى عشرين ألفا من المرتزقة ، وكان أحد قادتها المبرزين ليبيا يدعو «ماثون» أو «ماثو» Matho ، وقد تعرضت فيها قرطاج نفسها للخطر ، وسيطر المتمردون لبعض الوقت على «أوتيكا» وبنزرت (هيبو أكرا) وتونس ، وكان المتمردون منظمين لدرجة أن أصدروا عملة خاصة بهم عليها شعار «الليبيون» بالاغريقية ، وترجع شدة الصراع الذى انتهى عام ٢٣٨ ق.م ، الى عنف المعـاملة القرطاجية لليبيين .

وقد انتهزت روما الفرصة فاستولت على سردينيا عنوة ، بينما كانت قرطاج فى موقف لا تستطيع معه المقاومة ، وليس هناك من شك فى أن الاستياء القرطـاجى العام من هـذا النوع ، انما قد أخمـد معارضة «هملكار — برقا» (Hamilcar Barca) ، وكان قد أبلى بلاء حسنا فى

---

(٤٤) انظر : رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٥٢ — ٢٥٤ .
دى بورج : تراث العالم — ترجمة زكى سوس — القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

معارك صقلية ، عندما خرج عاقدا العزم على توسيع نطاق سيطرة قرطاج فى أسبانيا ، بعد أن انحصر نفوذها هناك فى بضع محطات ساحلية[٤٥] ، وبعد أن أصبحت سلطات قرطاج فى أسبانيا لا تتعدى نهر «ابرو» فلقد حرم الرومان عليها تجاوز ذلك الحد ، فاذا عبرت قرطاج نهر الابرو ، عد ذلك عملا حربيا معاديا لروما[٤٦] •

وكان الهدف من مشروعات «هملكار» (حملقرت) مزدوجا ، أولا : استغلال الموارد المعدنية مباشرة ، مما يعوض ضيـاع موارد صقلية ، وثانيا : تعبئة القوى البشرية فى أسبانيا فى جيش يمكنه أن يكون نـدا للرومان فى الميدان ، ذلك لأن هملكار انما قد أدرك أن هزيمة قرطاج فى الحرب البونية الاولى انما كانت بسبب اصابة الاسطول القرطاجى فى البحر ، وتعذر الاتصال بين قرطاج وميدان القتال ، ومن ثم فقد حرص هملكار هذه المرة على أن يكون الغزو عن طريق البر ، وأن تكون قاعدته الاساسية فى الحرب هى أسبانيا ، وليست قرطاج ، ثم الانتقال بالطريق البرى الى شبه جزيرة ايطاليا ، وهكذا أخذ هملكار فى تكوين قوة حربية من مرتزقة الايبيريين ، واستخدام ثروات ايبيريا من المعادن فى اجتذاب المتطوعين فى صفوف قواته العسكرية ، مبررا ذلك كله بأنه انما يعمل على استكمال قدرات قرطاج المالية ، للوفاء بالتزاماتها نحو الرومـان من تعويضات افترضوها عليها فى معاهدة الصلح التى أبرمت بعد الحرب البونية الاولى •

وهكذا أخذ هملكار يعمل منذ اختياره واليا على أسبانيا فى عام ٢٣٧ ق•م (وربما فى عام ٢٣٦ ق•م) للكيد لروما ، وتمزيقها اربا ، ومن ثم فقد عمل على اعداد أسبانيا للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، وقد أثبت فى هذه المرحلة أنه سياسى وادارى عظيم ، بقدر ما هو قائد عبقرى ، وقد نجح فى اعداد أسبانيا اقتصاديا لتصبح القاعدة التى تمون حملته ضد روما ، هذا فضلا عن كسبه لولاء القبائل لشخصه ، وبالتالى فقد درب

---

(٤٥) هـ• ج• وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٨ – ٤٦٩ •
46) H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

الكثيرين منهم ليصبحوا جنودا فى جيشه ، وبعد مضى تسع سنوات على هذا العمل الكبير توفى هملكار فى عام ٢٢٨ ق٠م ، وانتخب خلفا له زوج ابنته «هاسدور بعل» (Hasdrubal) الذى سار على نهج هملكار فى العمل ، وان اختلف عنه فى الوسائل ، فهو مثلا انما كان يفضل الوسائل السلمية مع العناصر الايبيرية ، وقد دعم اتجاهه هذا بالزواج من بنت أحد الرؤساء الايبيريين،مما كان له أثره البالغ فى تقبل الايبيريين للسيادة القرطاجية ، كما أنه — تدعيما لهذه السيادة القرطاجية — قام بتأسيس مدينة «قرطاجة» أو «قرطاج الجديدة» (Carthagena-Carthage Nova) غير أنه سرعان ما قتل فى عام ٢٢١ ق٠م ، على يد أحد الايبيريين ٠

ومع ذلك فالذى لا شك فيه أن القائدين (هملكار — وهاسدور بعل) قد نجحا — وفى مدى فترة لا تزيد على ثمانية عشر عاما (٢٣٧ — ٢٢١ ق٠م) — فى احكام السيطرة على مـــا يزيد عن نصف شبه الجزيـــرة الاسبانية ، وتكوين جيش من خمسين ألف رجل[٤٧] ٠

وفى عام ٢٢١ قبل الميلاد ، تولى «هانيبـــال العظيم» (حينبعل — Hannibal) بن هملكار (٢٤٧ — ١٨٣ ق٠م) — وهو الذى قدر له أن يكون أخطر أعداء روما الذين أرعبوا مجلس السناتو الرومانى أبد الدهر ، وواحد من المع القواد العسكريين على مر التاريخ كله — تولى قيادة جيش الامبراطوريـــة الجديدة فى أسبانيـــا ، خلفا لزوج أختـــه «هاسدور بعل» ، ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره بعد، غير أنه — على حداثة سنه — انما كان يتميز بالقدرة المنقطعة النظير على العمل المستمر ، هذا فضلا عن قوة شخصيته الفذة التى كتب لها نجحا بعيد المدى فى اكتساب ولاء الجنـــد ، وملء نفوسهم بالثقة التـــامة فى النصر ، تحت قيادته فى أدق المواقف العسكرية حرجا ، وأكثرها خطورة ،

---

(٤٧) مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٤٣ — ٤٤ ، ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٩ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٥٧ ٠

وبهذه الصفات وغيرها ، أصبح «هانيبال» يعد واحدا من بين كبار القواد على مدى تاريخ البشرية ، من أمثـال «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق•م) و «الاسكندر المقدونى» (٣٥٦ — ٣٢٣ ق•م) و «يوليوس قيصر» (١٢٠ — ٤٤ ق•م) و «خالد بن الوليد» (ت ٦٤١ م / ٦٤٢م) وصلاح الدين الايـوبى (١١٣٧ — ١١٩٣م) و «نابليون بونـابرت» (١٧٦٩ — ١٨٨١م) وغيرهم •

وعلى أية حال ، فهناك اشـارات قد تؤيد وجهة النظر الرومـانية المتأخرة ، بأن المغامرة كلها انما كانت من تخطيط وتدبير «آل برقـا» — وهو الاسم الذى عرفت به أسرة هانيبال بن هملكار برقا — للانتقام من روما ، وان لم تكن تحظى بتقدير حكومة قرطاج ، وأن «هملكار برقا» قد ربط ولده هانيبال بأوثق الايمان ، على أن يعمل ضد رومـا ، وأن يحقق نصرا مؤزرا عليها ، وأن ينتقم لقرطاج من هزيمة الحرب البونية الاولى ، وهكذا اشتعلت نيران الحـرب البونية الثانية ، ومـع ذلك ، فالثابت أن هذه الحرب انما قد أشعلها الرومان — وليس القرطاجيين — وذلك حين نقض الرومان شروطهم التى وضعوها بأنفسهم ، وبتدخلهم فى شئون جنوبى نهر الابرو ، ومن ثم فقد صار هانيبال قدمـا الى جنوب بلاد الغال (أى فرنسا) ، ثم عبر جبال الالب فى عام ٢١٨ ق•م ، وهبط ايطاليـا •

هذا وقد كان لكل من الجانبين — القرطاجى والرومانى — خطتـه الحربية فى الهجوم على الجانب الاخر ، كانت خطـة هانيبـال — كما وضعها أبوه هملكار من قبل — أن يعتمد أساسا على الجيوش البرية ، وأن يغزوا ايطاليا من جهة الشمال الغربى ، وبذلك ينقل ميدان المعركة الى ايطاليا نفسها ، وفى هذا اهمال تام للناحية البحرية ، هذا فضلا عن أن خطوط امداداته بين ايطاليا وأسبانيا ، انما كانت جدا بعيدة ، وأن عبور جبال الالب انما تمثل — من الناحية العسكرية — عقبـة كؤود فى طريق حملته ، وأخيرا فان الاعتماد على قرطاجنة كليه سيكون آخـر الامر من أسباب ضعف الحملة •

وأما خطة الروم ، فكانت تهدف الى تحقيق أحد أمرين ، الواحـــد : ابعاد ميدان القتال عن ايطاليا ، والثانى : نقل المعركة الى أسبانيا ، أو الساحل الافريقى ، ان أمكن ذلك ، غير أن الامـــر ، انما يجعل ميـــدان المعركة (فى أسبانيا) بعيدا عن امدادات الرومان فى مواطنهم الاصلية (فى ايطاليا) ، وأما الامر الثانى فيتطلب أن يكون الروم على ثقـــة من ولاء القبائل الاسبانية لهم ، وهو أمر تحيط به هواتف الريبة والشك ، على الاقل •

على أن الظاهرة المشتركة بين خطتى الروم والقرطاجيين ، انما هى محاولة كل من الفريقين أن يهاجم الفريق الاخر برا ، والابتعـــاد عن المعارك البحرية ، وهكذا فالروم يريدونها فى أسبانيـــا ، والقرطاجيون يريدونها فى ايطاليا ، غير أن «هانيبال» سرعان ما نجح فى افساد الخطة الرومية ، عن طريق عناصر ثلاثة ، أولها : سرعة تنقلاته ، وثانيها : السرية التامة التى أحيطت بخطوط سيره ، وثالثها : مبادرته فى الهجوم •

وأيا ما كان الامر ، فالذى لا ريب فيه أن الدوافع الحقيقية للحرب البونية الثانية ، انما هى نفسها التى كانت وراء الحربين الاولى والثالثة البونية ، وأما الاسباب المباشرة لهذه الحرب الثانية ، فان روما انما قد بعثت الى هانيبال فى عام ٢٢٠ ق•م ببعثة دبلوماسية للتفاوض معه ، كمحاولة للحد من استمرار توسعه فى أسبانيا ، وان كانت فى حقيقتها انما كانت ترمى الى مساندة مدينة «ساجنتوم» (Saguntum) شـــمال قرطاجنة (قرطاج الجديدة) ، والتى أبدت ميلا واضحا نحو الروم ، غير أن هانيبال سرعان ما هاجم «ساجنتوم» فى عـــام ٢١٩ ق•م ، وفرض عليها الحصار قرابة أشهر ثمانية ، حتى اضطرت الى الاستسلام ، رغم احتجاج روما ، وهكذا أعلن الروم الحرب على هانيبال فى عام ٢١٨ قبل الميلاد[٤٨] •

---

(٤٨) ب• هـ• وارمنجتون : المرجـــع السابق ص ٤٦٩ ، رشـــيد =

وتحوى أحداث السنوات الخمس العشرة التالية قصة أشد الغزوات فى التاريخ القديم شهرة ، وأقلها طائلا ، فلقد استمر هانيبال صامدا فى ايطاليا خمسة عشر عاما ، وهو منصـور لم يغلب ، ولم يكن القـواد الرومان كفؤا لذلك المحارب القرطاجى القدير ، فكلما التقوا به حلت بهم الهزيمة ، كما فى معـارك «تراسيمينى» (Trasimene) و «كاناى» (Cannae) ، بل لم يستطع أى جيش رومانى طيلة حملتـه الايطالية بأكملها أن يقف أمامه ، دون أن تحيق به الهزيمة(٤٩) .

وعلى أية حال ، فلقد بدأ «هانيبال» حملته على ايطاليا بجيش قوامه أربعون ألف جندى من المشاه ، وتسعة الاف من الفرسان ، وعدد من الفيلة ، وقد مر بهم فى جبال البرانس فى شمال أسبانيا ، ثم اتجه بعد ذلك شرقا الى جبال الالب ، ومن ثم فقد شق طريقه فى داخل ايطاليا ، حيث قامت استراتيجيته على أساس أن روما لايمكن هزيمتها هزيمة حاسمة ، الا فى داخل ايطاليا نفسها ، كما أنه لم يحاول أن يلتزم السـاحل فى طريقه ، لأنه انما كان على يقين من أن الروم انما كانوا يتحركون على طول السـاحل ، فلقد كانوا قد أرسـلوا أحد القنصلين ، وهـو «ب . كورنيليوس سكيبيو» (P. Cornilius Scipio) الذى لم يكد يصـل الى «مسيليا» (مرسيليا) حتى علم أن هانيبال قد عبر نهـر الرون ، منذ ثلاثة أيام ، واتجه الى جبال الالب ، ومن ثم فقد قرر «سكيبيو» العودة الى شمال ايطاليا ، واكتفى بأن أرسل أخاه على رأس قوة رومية الى أسبانيا ، بغية أن تنال قاعدة هانيبال ببعض الاضرار ، وفى نفس الوقت أرسل الى الروم أن يعود القنصل الاخـر «سمبر ونيوس لونجوس»

= الناضورى : المرجع السابق ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٤٤ - ٤٦ ، هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الانسانية ص ٥٤٣- ٥٤٤ ، وكذا

H. G. Wells, Op. Cit., P. 116.

D. Kegan, The Roman World, I, Macmillan, 1974, P. 83-86.

49) H. G. Wells, Op. Cit., P. 116-117.

(Sempronius Longus) من صقلية ، وأن يتجه الى الشمال لمواجهة هانيبال •

وعلى أية حال ، فلقد استغرق هانيبال فى عبور الالب خمسة أشهر من خريف عام ٢١٨ ق•م ، وقد وصل الى حوض نهر «البو» فى ديسمبر من عام ٢١٨ ق•م ، وقد بالغت المؤلفات الكلاسيكية فى المتاعب ، فضلا عن الخسائر التى تحملها هانيبال فى عبور الالب ، حتى اعتبر هذا العبور من الاعمال العسكرية الفذة فى التاريخ ، وعلى أية حال ، فلقد تجمعت القوات الرومية التى كانت تتبع القنصلين ، والتى قيل أنها بلغت سبعين ألفا من المشاة ، وعددا كبيرا من الفرسان ، ثم سرعان ما التقى الجيشان — الرومى والقرطاجى — عند فرع نهر «البو» الشمالى فى مكان يدعى (Ticinus) ، غير أن الروم سرعان ما انسحبوا الى رافد آخر يدعى «ترابيا» (Trebia) ، وقد أدرك هانيبال ، بفطنته العسكرية ، ما يدور بخلد عدوه من أن التعب — بعد عبور الالب — انما قد أخذمنه مأخذه ، وبالتالى فلن يبادره بالهجوم ، ولهذا فقد انسحبوا الى منطقة «ترابيا» ، حيث التقوا بمزيد من المؤون والامدادات التى أتت من روما فى حين أن خطة هانيبال انما كانت تهدف الى متابعتهم الى «ترابيا» ومبادرتهم بهجوم سريع •

وهكذا تذهب بعض الروايات الى أن هانيبال انما قد قرر الهجوم فى يوم عاصف من أيام ديسمبر ، ومن ثم فقد أيقظ جنوده فى ساعة مبكرة، عند طلوع الفجر الصادق ، ثم أعطاهم وجبة الافطار ، وأرسل فرقة صغيرة من الفرسان للتحرش بالعدو ، وقد كانت قيادة العدو فى هذا اليوم للقنصل «لونجوس» ، والذى كان شديد الرغبة فى معركة يجنى منها نصرا سريعا ، ومن ثم فقد قرر أن يخوض المعركة فى الحال ، وحتى قبل أن يتناول جنوده افطارهم ، وهكذا ، ونتيجة لجوع الجنود الرومان، وفيضان نهر ترابيا ، القارس البرد ، تمكن هانيبال من أن يحيط بهم عند خروجهم من الماء مباشرة ، بقوة ، تحت قيادة أخيه «ماجون» الذى كان يشبه الصاعقة فى قتاله ، ومن البدهى أن معركة بدأت فى هذه الظروف أن تنتهى بهزيمة ساحقة للروم ، قضى فيها على معظم الجيش الرومانى

كما أسر فيها الكثيرون ، وأسرع من ساعده الحظ فنجا ، أسرع الى روما ينقلون أخبار هزيمة «ترابيا» ، وكان عددهم يزيد عن عشرة آلاف[٥٠] .

على أن نتائج انتصار «ترابيا» لم يكن مقصورا على انكسار الرومانى فحسب ، وانما كان له نتائج أكثر اهمية وأشد خطورة ، ذلك أن أعداء الرومان لم يقتصروا وقت ذاك على القرطاجيين ، وانما كانت هناك أيضا العناصر الغالية التى كانت فى انتظار الوقت المناسب للزحف على روما ، وانهاء السيادة الرومانية ، هـذا الى جانب عناصر ايطلية أخرى ، كالسمنية فى الجنوب ، كانت تريد التخلص من الزعامة الرومانية، وهكذا كان انتصار هانيبال فى شمال ايطاليا حافـزا على تشجيع هـذه العناصر فى انجاهاتها ضد روما ، وربما تاييد هانيبال فى عملياته العسكرية، وقد أدى ذلك كله الى نتيجتين هامتين ، الواحدة : أن هانيبال انما قد ضمن سلامة طـرق المواصلات مع أسبانيا ، والاخـرى : أن هـؤلاء الخارجين على روما ، انما سوف يصبحون جنودا ، يحاربون معه ضد روما ، عدوهم المشترك .

وليس هناك من ريب فى أن ذلك كله ، انما سوف يوضح ايجـابية سياسة هانيبال فى عملياته الحربية ضد الروم ، والتى كان يرمى منورائها تحقيق الفرقة والانقسام داخل الوحدة الايطالية تحت زعـامة روما ، وبالتالى يمكنه قهر روما بعد تفتيت وحدتها الداخلية ، وقد أكد هانيبال سياسته هذه بعقد اتفاقات تحالف مع العناصر الغالية ضد الروم ، وفى نفس الوقت عمد الى اطلاق سراح الاسرى ذوى الاصل الايطالى بعد انتصاراته ضد روما ، تشجيعا لهذه العناصر على الثورة والانفصال عن سادتهم الرومان ، وان كانت هذه الخطة لم تأت بثمارها المرجوة على المدى البعيد ، وبالتالى فلم يحدث هذا الانفصال الذى كان هانيبال يعمل من أجله بين شعوب وولايات الوحدة الايطالية ضد روما[٥١] .

---

(٥٠) مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٤٧ — ٤٨ ، هـ . ج . ويلز : المرجع السابق ص ٥٤٤ .
(٥١) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

وفى عام ٢١٧ قبل الميلاد ، أوقع هانيبال هزيمة أخرى بالرومان عند «تراسيمنوس» (ترازيمينوس) (Trasimenus) ، وذلك عندما حاول الرومان ايقاف الجيش القرطاجى ، فعينـوا القنصلين الجديدين على الطريقين الرئيسيين المؤديين الى روما فى الشمال ، أحدهما على الساحل الشرقى لايطاليـا ويسمى «فلامنيـوس» (Flaminius) وقف عند (Ariminium) ، والاخر ويسمى «سرفيليوس» (Servilius) وقف عند (Arretivn) على الساحل ، فى وسط شبه الجزيرة على مقربة من «فلورنسا» ، غير أن هانيبال قد أفسد عليهم خطتهم ، فلقد فاجأهم بأن اتخذ طريقا اخر غير مطروق فوق جبال «الابينايين» ، متجها نحو الغرب خلال المستنقعات ، شمالى نهر الارنو ، حيث خاض مع جنوده فى وحل وماء لمدة أربعة أيام ، وكان هانيبال فى هذه الرحلة قد فقد احدى عينيه فى بعض الحريق ، ومع ذلك فقد كتب له نجحا بعيد المدى فى ملء قلوب جنوده ثقة بالنصر ، ودخول روما فاتحين منتصرين فى يوم آت عن قريب •

وما أن يمضى حين من الدهر حتى يعلم هانيبال بأن «سرفيليوس» قد اتجه الى مساعدة «فلامينيوس» ، فاتجه الى ممر ضيق بمحـاذاة الساحل الشمالى لبحيرة «ترازيميتوس» فى اقليم اتروريا ، وانتهى الى سهل صغير تحيط به الجبال ، فاتخذ موقعه عند نهايته مع جنـوده من الاسبان والأفريقيين ، بينما رابطت قوات أخرى من الغاليين والفرسان والجنود الخفاف على شكل شبه دائرة فى الجبال ، ورافقهم حسن الحظ بأن دعم المنطقة ضباب كثيف ، أخفى هذه التنقلات عن أعين الرومان الذين قرروا الهجوم فى يوم معين ، بجيش قوامه عشرون ألفا ، وبنفس طريقتهم التقليدية وهى الهجوم كقوة واحدة فى شكل طابور ضخم ، مر من الممر الضيق ، المشار اليه آنفا ، الى السهل الذى وقف فيه هانيبال بقواته ، وحين بدأ الهجوم الفعلى تركهم هانيبال يتوغلون ويهاجمون الوسط ، بيما أخفى عنهم جنود الجبال ، حتى اذا مـا أصبح الجيش الرومانى فى وسط السهل ، أصدر أمره بالهجوم من كل جانب ، وهكذا أحاط جيشه بالجيش الرومانى من كل جانب ، وعجز الروم عن الحركة واستخدام أساليبهم بحرية ، وانتهت المعركة بهزيمة سـاحقة للروم ،

وقتل «فلامنيوس» وتدمير جيش «سرفيليوس» ، وأصبح الطريق الى روما مفتوحا أمام هانيبال عام ٢١٧ ق٠م ٠

وهكذا كان فى استطاعة هانيبال الاتجاه مباشرة الى روما ــ كما نصحه بعض قواده ــ غير أن عدم وجود أدوات حصار المدن معه ،فضلا عن معرفته بمدى تحصين روما وأسوارها المنيعة ، جعلته انما يفكر فى خطة أخرى لاسقاط روما ، وذلك بالاستيلاء على جميع أجزاء شبه الجزيرة الايطالية ، وفصل روما عن جميع حلفائها فى الجنوب ، الامر الذى يضطرها أخيرا الى التسليم ٠

وأما فى روما ، فلقد تركت هزيمة «ترازيمينوس» أثرا سيئا عند القوم ، ومن ثم فقد قرروا تعيين دكتاتور هو «فابيوس مكسيموس» (Quintus Fabius Maximus) ، ولم يحاول هذا الدكتاتور مقابلة هانيبال فى معركة كبيرة خشية أن يمنى بهزيمة جديدة ، وانما عول على مهاجمة جيوش هانيبال ومواقعه بقوات صغيرة ، والحاق أكبر الاذى بها كلما أمكن ذلك ، وبذا اكتسب هذا الدكتاتور الذى عين فى عام ٢١٦ ق٠م ، لقب «المعطل» (Cunetator) ، غير أن الرومان سرعان ما ضاقوا بخطة «فابيوس» هذه ، ومن ثم فما أن مضت شهور ستة حتى عادوا مرة أخرى الى النظام القنصلى،واختاروا القنصلين«فارو» (C. T. Varro) و «باولوس» (A. Paullus) ووضعوا تحت أيديهما أكبر قوة عسكرية جهزتها روما ، (حوالى ٨٠ الف) ، حيث التقت بجيش هانيبال (حوالى ٥٠ ألف) فى موقع «كناى» (Cannae) على نهر «أفيدوس» فى عام ٢١٦ قبل الميلاد ٠

وتولى «فارو» قيادة القوات الرومية ، واتبع الخطة القديمة فى تنظيم جيشه فى شكل طابور ضخم على أمل أن يحقق النصر بهجوم قوى ، غير أن هانيبال بما عرف عنه من مهارة حربية ، قد أقام أمام هذه القوات الرومية الضخمة مجموعة من الغاليين والاسبان ، أخذت تتقهقر تدريجيا أمام هجمات فارو ، حتى حوصرت أمام القوات الليبية من الجانبين ، وهنا أصدر هانيبال أوامره بالهجوم ، فأرسل الى عدوه عاصفة

من الفرسان ، أعقبها هجوم المشاة من كل جانب ، وهكذا نجح هاينبال فى شل حركة الـــروم تماما حتى وقعوا — كما تذكر الروايات — فى هـــذه المعركة كقطيع من الغنم ، وأن خمسين ألفا قتلوا فى هذه المعركة ، وأن عشرة آلاف رجل أخذوا أسرى ، بينما فر الباقون مع «فارو» ، بما فيهم القنصل الثانى «باولوس» ، ومعهم ثمانون عضوا من أعضــــاء مجلس السيناتو ، ومع ذلك فان «هاينبال» لم يستطع أن يواصل الزحف الى روما ، ويستولى عليها ، لأنه لم يكن يملك أدوات الحصار .

على أن هزيمة «كناى» (كاناى) فى عام ٢١٦ ق.م ، انما كانت ، فيما يرى البعض ، أكبر وأعنف معركة عرفها التاريخ القديم ، فلقد غـــيرت هزيمة الروم فيها وجه الحرب ، حتى أن قسما كبيرا من جنوب ايطاليا قد انحاز الى هانيبال ، بما فى ذلك «كابو» (Capua) — أكبر مدن ايطاليا بعد روما — وفى نفس الوقت عقد «فيلب الخامس» (٢٢١ — ١٧٩ ق.م) ملك مقدونيا محالفة مع هانيبال ، ذلك لان روما انما كانت بدأت تتدخل فى شبه الجزيرة اليونانية ، الامر الذى اعتبره فيلب الخامس عدوانا على سيادته هناك ، غير أن روما — خشية اشتراك فيلب فى الحرب ضدها مع هانيبال — سرعان ما أثارت عليه القلاقل ، وورطته فيما عرف «بالحرب المقدونية الاولى» (٢١٥ — ٢٠٦ ق.م) ، ضد ثلاثة من القوى اليونانية فى شمال غرب اسيا الصغرى ، انتهت بهزيمته وعقد صلح،وأما سرقوسة فلقد مات ملكها «هيرون» — حليف روما المخلص — ومن ثم فقد انضم خلفه المدعو «هيروتيموس» الى القرطاجيين[٥٢] .

وهكذا مرت روما بفترة من أحلك سنوات تاريخهـــا ، حتى سقوطها أمام غزوات المتبربرين ، ومع ذلك ، فلقد واصل الرومان الحرب بعزم أكيد ، وربما ساعدهم على ذلك ما أصاب قوات هانيبال من ضعف ونقصان

---

(٥٢) مصطفى العبادى : المرجـــع السابق ص ٤٩ — ٥٣ ، رشـــيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٦٢ — ٢٦٣ ، هـ. ج. ويلز : المرجـــع السابق ص ٥٤٤ — ٥٤٥ ، عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ص ١٢٥ — ١٢٦ ، ب. هـ. وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٩ .

نتيجة المعارك المتتالية ، كما أن امداداته الاسبانية كانت أقل من أن تفى باحتياجاته ، هذا الى أن اعراضه عن حصار روما ، وعمـله على ثورة حلفائها ، انما فرض عليه موقفا جديدا لم يألفه من قبل ، وهـو تقسيم جيشه بين هذه المدن المختلفة ضـد أى اعتداء رومانى ، وهكذا لم تتح لهانيبال فرصة التحكم فى جيش قوى أو الانتصار فى معركة كبيرة •

وهكذا بدأت رياح الحرب تتغير بعض الشىء ، واتجه جيش رومانى الى سرقوسة ، ومن المعروف أن حصار سرقوسة مشهور بصفة خـاصة بالمخترعات الرائعة التى استحدثها الفيلسوف «أرشميدس» (٢٨٢ — ٢١٢ ق•م) ، والتى أوقفت الروم موقف الحرج ، وصدتهم طويلا ، غـير أن «مرسلبوس» (Marcellus) تمكن آخر الامر من اخضاعها فى عام ٢١٢ ق•م وانطلق المنتصرون فى المدينة يسلبون وينهبون ، حتى لم يبقوا فيها على شىء ، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة ، ويقول ليفى ان «مرسلبوس» نقل الى روما ما كانت تزدان به سرقوسة من تماثيل كانت غاصة بها ، وقد بلغت الغنائم حدا ، أكثر مما كان يحصل عليه ، لو أن قرطاج نفسها هى التى فتحت» •

واتجه الرومان بعد ذلك الى «كابو» ، على مقربة من نابولى،فاحتلوها عام ٢١١ ق•م ، ثم تلاها سقوط «تارنيم» فى عام ٢٠٩ ق•م — وهى مرفأ هانيبال الرئيسى ، وسبيل تموينه من قرطاج — ثم سرعان مابدأت أسبانيا تنتزع من أيدى القرطاجيين جزءا فجزءا ، حيث نجح «سكيبيو الافـريقى» (Scipie Africanus) فى الاستيـلاء على « قرطـاجنة » (قرطاج الجديدة) وهى قاعدة القرطاجيين الرئيسية فى أسبانيا •

وهكذا ازداد موقف هانيبال حرجا ، فلا هو بقادر على الاستيلاء على روما — رغم أنه كان على مبعدة ثلاثة أميال منها — ولا هو قد وصلته الامدادات التى طلبها من قرطاج ، من ذخيرة ومؤون ، وهنا بدأ أخـوه «هاسدروبال» (وهو غير صهره هاسدروبال الذى أغتيل فى عـام ٢٢١ ق•م) يشعر بمدى صعوبة موقفه الحرج،خاصة وأن الرومان قد أفسدوا

عليه القاعدة الاسبانية ، وأن مجلس الشيوخ فى قرطاج يقف منه موقفا سلبيا ، ومن ثم فقد قرر أن يجمع أكبر قوة ممكنة ، ويذهب بنفسه الى ايطاليا ليقف الى جانب أخيه فى هـذه المحنة القاسية فربمـا اجتماع قوتيهما قد يمكن هانيبال من تغيـير الموقف ، وما أن بلغت رومـا هذه الأنباء ، ـ عن طريق رسول هاسدروبال الى هانيبال الذى وقـع أسيرا فى أيدى الروم ـ حتى حشدت قوة كبيرة التقت بجيش هاسدروبال عند نهر «ميتورس» (ميتاورس Metaurus) فى عام ٢٠٧ ق٠م ، وتمكنت من الانتصار عليه ، وكانت أول أخبار وصلت الى هـانيبال عن الكارثة الجديدة ، هى رأس أخيه المفصول عن جسده ، يلقى فى معسكره ٠

ومع ذلك ، فلقد صمد البطـل القرطاجى بعد ذلك عـامين آخرين ، اضطر بعدهما ـ وقد يئس تماما من وصول الامدادات من قرطاج،وبعد أن أمضى خمسة عشر عاما دون هزيمة واحدة ، وبعد أن استولى على ايطاليا ، ودمر أكثر من ٤٠٠ مدينة ـ اضطر أن يستجيب لدعوة قرطاج بالعودة اليها ، لكى يتولى قيادة أبناء وطنه فى اخر معارك هـذه الحرب الضروس ، خاصة وكان قـد حصر من قبـل فى «كالابريا»(Calabria) فى وقت لـم تكن لديه أية قوات للقيـام بعمليات حـربية ذات جرم كبير(٥٣) ٠

وفى نفس الوقت كان «كورنيليوس سكيبيو» (P. Cornelins Scipio) (سكيبيو الافريقى) قد نجح فى كسب أسبانيا لروما فى عام ٢٠٦ ق٠م، وعندئذ استعدت روما للهجوم على افريقيا،وقد ساعد على ذلك الاوضاع السيئة فى نوميديا ، حيث تعرضت قبـائلها الاصلية لتيار الحضـارة القرطاجية عدة قرون ، وقامت فيها وحدات سياسية أكثر من ذى قبل ، وزاد التحاق رجالها بالخدمة فى حروب قرطـاج المتلاحقة من قـوتهم

---

(٥٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ـ حيـاة اليونان ص ١٩٥ ، هـ٠ ج٠ ويلز : المرجع السابق ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦ ، وكذا

B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 180-182.

وتجربتهم ، وكان «سيفاكس» Syphax ، زعيم أكبر قبيلة نوميدية — قبيلة المسايسوليين (Masaesyli — التي يمتد اقليمها من «أمبساجا» (Ampsaga) (الوادى الكبير) فى الشرق الى «مولوكا» (Mulucha) (نهر ملوية) فى الغرب ، قد تخلى عن قرطاج فى عام ٢١٣ ق٠م ، ولكنه عاد اليها مرة أخرى فى عام ٢٠٨ ق٠م ، عندما تزوج من «صوفونسيه» (Sophonisbe أو «صفان بعل» بنت «هاسدروبال» بن «جزجو» ، أحد زعماء قرطاج •

على أن «جايا» (Gaia) زعيم الماسوليين (Massyli) — وتقع بين المسايسولين والاراضى القرطاجية ، انما ظل مخلصا لقرطاج خلال فترة انشقاق «سيفاكس» ، وقدم ولده «ماسينيسا» (Massinissa) خدمات جليلة فى أسبانيا(٥٤) •

وكان «ماسينيسا» هذا من أهم الشخصيات البربرية التى نجحت فى تحقيق الكيان البربرى المستقل فى المغرب ، كما تمكن من توسيع أرجاء مملكته ، حتى شملت المنطقة الداخلية الممتدة من لبيياء حتى المحيط الاطلسى فى أوج سيادتها ، متضمنة نوميدية الشرقية والغربية (ماسيلة ومازيسيلة) ، وقد دعم سياسته هذه بحضارة بربرية ، ذات تأثيرات قرطاجية ، كاللغة البونية والخط البونى الجديد ، فضلا عن بعض التأثيرات الدينية ، ذات الاصل القرطاجى اليونانى ، مما ساعد على أن تخطو هذه المنطقة من الحياة القبلية الى الحياة الحضرية(٥٥) •

على أن «ماسينيسا» سرعان ما انضم الى الرومان ، فسالم «سكيبيو الافريقى» وساعده فى تنفيذ خطته العسكرية فى الجبهة الافريقية فى ربيع

---

(٥٤) ب• هـ• وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٦٩ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٦٩ ••

(٥٥) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، وكذا
B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 187-188.
وانظر : أحمد صقر : مدينة المغرب العربى فى التاريخ — القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٣٠ •

عام ٢٠٤ ق٠م ، عندما أنزل قواته فى منطقة «أوتيكا» كما قام بدور هام فى الانتصارات الاولية فى عام ٢٠٣ ق٠م ، قبل استدعـــاء «هانيبال» نهائيا من ايطاليا ، بل ان «ماسينيسا» سرعان ما تقدم ، على رأس قواته البربرية ، نحو القرطاجيين وحلفائهم من بربر سفاكس ، حتى تمكن من الايقاع بسفاكس والانتقام منه ، ومن زوجته القرطاجية «صو فونيسبه» أو «صافان بعل» ، غير أن المرأة القرطاجية سرعان ما ثارت لكرامتهـــا وكرامة قومها ، فأنهت حياتها بنفسها ، على أن تعيش مع بربر ماسينيسا أو الرومان من أعداء قومها •

غير أن الامور فى الشمال الافريقى سرعان ما جرت بأحدث ماتصور الناس ، فما أن وصل هانيبال الى قرطاج،حتى بدت بوادر السلام،وانهاء هذه الحرب عن طريق التفاوض بين المتحاربين ، غير أن شروط الروم لانهاء الحرب انما كانت تهدف لانهـــاء السيادة القرطاجية فى حـــوض البحر المتوسط ، فضلا عن المجال المغربى ، وبصورة مهينة للقرطاجيين ، الامر الذى عجل بمعركة «زاما» (Zama) أو جامة (السبع بيـــار — على مقربة من قرطاج نفسها ، فى عام ٢٠٢ قبل الميلاد (وهى ســـاقية سيدى يوسف على مقربة من ناراجرا (Naraggara) فيما يرى وارمنجتون وهى قرب الضريح القائم بقصر طوال الزمامل ، وفى أعلى نقطة من المعبر المفتوح بين جبل ماحبوح شمالا ، والجبال الملاصقة لصرد مكثر من جهته الشمالية جنوبا ، والذى يصل فيما بين سهل سليانة وسهل السرس،فيما يرى أحمد صقر) وقد ساهم فى معركة «زاما» هذه «ماسينيسا» بأربعة آلاف فارس ، فأكسب ذلك الروم ولأول مرة تفوقا عظيما على هانيبال فى الفرسان ، فتزحزح جناحا هانيبال من الفرسان عن مراكزهما ، على حين استطاع مشاة «سكيبيو الافريقى» بما لهم من نظام أصلب وأسلم، أن يفسحوا بين صفوفهم دروبا تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجيـــة ، دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة •

وحاول هانيبال أن يمد خط مشاته لكى يحيطوا بكتلة المشاة الرومية، بيد أنه كان لجنوده فى معركة «كانى» (فى عام ٢١٦ ق٠م) كل مميزات

التفوق فى التدريب ، وكانت القــدرة على المداورة هناك تبعــا لذلك فى جانبه ، فاستطاع آنذاك أن يحيط بحشد من المشاة ، وأن يعمــل فيهم السيف ذبحا وتقتيلا ، فانه وجد الان أمامه خط مشاة للعدو ، يفوق خط مشاته صلابة وقــوة ، فانقطع خطــه أثناء امتداده ، وهجمت الكتائب الرومانية فى الصميم ، وخسر هانيبال يومه ، وعاد الفرسان الرومانيون من ملاحقة جواد هانيبال ، لكى يحيلوا الهزيمة التى منى بها القرطاجيون بالفعل الى كارثة تشتيت مروعة •

وهكذا خضعت قرطاج وسلمت دون مزيد من كفاح ، وكانت الشروط قاسية ، بيد أنها تركت لها المجال فى أن تأمل فى مستقبل كريم،فأجبرت عن التخلى عن أسبانيا لروما ، وأن تتنازل عن أسطولها الحربى،الا عشر سفائن ، وأن تدفع عشرة آلاف تالنتوم ، وأن تتخلى عن سلاح الفيلة ، وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطبة ، وبه توافق قرطــاج على أن لا تخوض غمار حــرب ، دون اذن من روما ، ثم أضيف آخر الامر شرط يقضى بتسليم هانيبال — عدو روما اللدود — بيد أن البطل القرطاجى كفى مواطنيه هذا الاذلال ، بأن فر الى آسيا ، وعندما أبرمت روما الصلح مع «أنطيوخس الثالث» (٢٤١ — ١٨٧ ق•م) بعد هزيمته فى «مجنيزيا» (مجنيسيا Magnesia) فى عام ١٩٠ ق•م ، كان تسليم هانيبال أحد شروط هذا الصلح ، وسرعان ما قبض عليه فى «بيثينيا» فى مخبأ له ، فاعتقله ملكها لكى يرسله الى الروم ، بيد أن هانيبال انما كان يحمل منذ أمد طويل فى خاتمه السم اللازم له ، وبه قضى على نفسه فى عام ١٨٣ قبل الميلاد ، وأما «سكيبيو» فقد عــاد الى روما ، وأقيمت له مواكب النصر ، ومنح لقب «الافريقى» ، وأصبح يعرف باسم «سكيبيو الافريقى» (Scipie Africanus) ، تخليدا لانتصاره على هانيبال[٥٦] •

---

(٥٦) هـ• ج• ويلز : المرجع السابق ص ٥٤٩ — ٥٥٠ ، أحمد صقر : المرجع السابق ص ٢٣١ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ — ٢٧٥ ، عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٢٧ — ١٢٩ ، مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٥٤ — ٥٥ • وكذا

H. G. Wells, Op. Cit., P. 117.

B. H. Warmington, Op. Cit., P. 190-191.

(٥) الحرب البونية الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق٠م) :

كانت شروط الصلح — بعد هزيمة زاما في عام ٢٠٢ ق٠م — شديدة الوطأة على قرطاج ، وقد استغلتها روما في فرض سيادتها الكاملة على أسبانيا ، ثم راحت — في نفس الوقت — تبسط سلطانها على بلاد الاغريق المضطربة ، والمنقسمة على نفسها ، وتغزو آسيا الصغرى،وتهزم أنطيوخس الثالث ، الملك السلوقي في «مجنيسيا» في عام ١٩٠ ق٠م ، في ليديا ، كما أشرنا من قبل ، ثم جاء دور «برجامة» ومعظم الولايات الصغيرة في اسيا الصغرى ، فحولتها روما الى حلفاء لها ، أو «دولة محمية» Protected States (٥٧) .

وفي نفس الوقت ، فلقد استغل «ماسينيسا» ، حليف روما ، ذلك الشرط الجائر الذي يقضي بتقييد حرية قرطاج العسكرية ، وألا تشن حربا — داخل أو خارج أفريقيا — الا باذن من روما ، في توسيع رقعة بلاده ، على حساب جارته المهزومة قرطاج ، وكثيرا ما هاجم الاراضي القرطاجية بهذه الدعوى ، وفي كل مرة كانت قرطاج لا تستطيع رد العدوان ، وكل ما كان في امكانها أن تتقدم بشكوى الى مجلس السيناتو في روما ، الذي كان يجد عادة ما يبرر به اعتداءات ماسينيسا .

على أن هذا لا يمنع من القول بأن «ماسينيسا» (Masinissa) — فيما يرى البعض — انما كان شخصية قوية البنيان ، جمة النشاط ، متعددة المواهب ، وقد تلقى تعليمه في قرطاج ، وقدر — تقديرا سليما — أهمية الافادة بما يمكنه من الحضارة القرطاجية في اقليمه الخاص (مملكة نوميديا) ، وفي الواقع ، فلقد كانت شخصيته في مستقبل الايام ، أكبر من كونه رجلا خرج على قومه ، ليعمل في صفوف أعدائهم الرومان ، وهكذا بدأ منذ عام ٢٠٦ ق٠م ، يعقد أواصر صداقة متينة مع عدد من أبرز السياسيين الرومان ، وقد كوفيء بعد معركة «زاما» في عام ٢٠٢ق٠م

---

(٥٧) عبد اللطيف أحمد علي : المرجع السابق ص ١٢٩ ، وكذا
H. G. Wells, Op. Cit., P. 117.

بالاجزاء الشرقية ، والتى تمثل أخصب أراضى «سيفاكس» وهكذا امتد حكمه من «قسنطينة» (قرطه Cirta) فى منطقة تمتد الى الغرب من هذه المدينة ، وحتى الحدود القرطاجية الجديدة — فى نفس الوقت الذى تركت فيه المنطقة الاقل تقدما بين مملكة ماسينيسا وحتى وادى ملوية ، لابن سيفاكس — •

هذا ويذهب بعض الكتاب القدامى الى أن «ماسينيسا» انما قد زاد الانتاج الزراعى فى نوميديا زيادة كبيرة ، حتى أن «سترابو» انما يحاول أن يوهمنا أنه قد حول الرعاة الى مزارعين ، ورغم ما فى هذا القول من مبالغة ، فالذى لا شك فيه أن هناك زيادة فعلية فى المنطقة المزروعة بالحبوب ، حتى أصبح هناك فائض للتصدير ، وان ظلت الماشية سائدة دونما ريب ، كما أن هذا يبشر ، دونما ريب أيضا ، بمزيد من التطور الزراعى فى العصر الرومانى ، ورغم أن التجارة كانت محدودة ، فلقد سكت العملة من البرونز والنحاس •

هذا وقد أصبحت «قرطة» (قسنطينة) عاصمة «ماسينيسا» مدينة حقيقية ، وان كان تقدير عدد السكان بمائتى ألف نسمة فى عهد ابن ماسينيسا ، مبالغ فيه كثيرا ، ورغم أننا لا نعرف عن آثارها الكثير،فان شكلها العمرانى انما كان قرطاجيا صميما ، وقد عثر فيها على لوحات حجرية بونية ، أكثر مما عثر عليه فى أى موقع أفريقى آخر — عدا قرطاج نفسها — كما أن لغة قرطاج انما قد استخدمت بشكل متزايد فى نوميديا وموريتانيا •

وعلى أية حال ، فلقد ظل «ماسينيسا» ، وعلى مدى نصف قرن من الزمان ، يمارس ضغطا متزايدا لانتزاع أراضى قرطاج ، وربما ساوره أمل فى أن تكون قرطاج نفسها فى النهاية من نصيبه بموافقة الرومان ، وعلى أية حال ، فلقد ظلت مكاسب «ماسينيسا» حتى عام ١٧٠ ق•م ، صغيرة فى الارض ، غير أن روما انما بدأت منذ عام ١٦٧ ق•م ، تنتهج سياسة تتسم بالخشونة والقسوة ، سواء أكان ذلك فى افريقيا ، أو فى

خارجها ، مع استمرار تعاطفها مع ماسينيسا الذى يغذى شكوكها نحو قرطاج[٥٨] ، وفى كل هذا لم تكن قرطاج تملك غير الشكوى لمجلس السيناتو فى روما ، وكانت روما — كالعادة — ترد بارسال وفد من مجلس السيناتو Senato للتحقيق فى الامر .

على أن روما انما قد أرسلت فى احدى المرات «ماركوس بوركيوس كاتو» (Delenda est Carthago) (٢٣٤ — ١٣٩ ق.م) لتسوية الخلاف بين نوميديا وقرطاج ، وكان «ماركوس بوركيوس كاتو» هذا ، محاربا قديما ، وسياسيا ضيق النظر ، وقد شاهد برأس عينيه أن قرطاج انما قد بدأت تستعيد شيئا من تجارتها ورخائها ، فهاله ذلك ، بل أرعبه ما فى قرطاج من بعض دلالات الرخاء ، ، بل وامارات السعادة ، ومنذ تلك الزيارة أصبح «كاتو» هذا ، يختتم كل خطاب يلقيه فى مجلس السيناتو ، بأن ينعق قائلا : «يجب أن تدمر قرطاج» Delenda est Carthago [٥٩] .

ورغم أن قرطاج قد نهضت بالفعل من كبوتها بعد الحرب البونية الثانية على نحو مثير للدهشة ، فان الزعم بأنها باتت تشكل تهديدا لروما مرة ثانية ، انما هو زعم سخيف وباطل . وعلى أية حال ، فلقد أصبح «كاتو» بمرور الزمن يمثل مجموعة من أعضاء السيناتو يعماون فى السياسة ، ثم تمكن من اقناع أعضاء السيناتو بتكوين حملة فى عام ١٥١ ق.م ، لمحاربة قرطاج ، عقابا لها على خلافها مع نوميديا ، بل وقد أعلنت الحرب عليها ، وبالتالى فهى قد خرقت المعاهدة التى تحرم عليها دخول حرب ، دون اذن من روما .

وحاولت قرطاج ، ما استطاعت الى ذلك من سبيل ، أن تتجنب دخول روما فى النزاع القائم بينها وبين البربر ، غير أن روما انما كانت قد عقدت العزم على التدخل ، مهما كانت الظروف ، وهكذا فوجئت قرطاج

(٥٨) ب . هـ . وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧٠ — ٤٧١ .
(٥٩) هـ . ج . ويلز : المرجع السابق ص ٥٤٢ ، وكذا
B. H. Warmington, Op. Cit., P. 202.

بحملة رومانية ، دون أن تستعد لها ، ومن ثم فقد قرر الزعماء القرطاجيون تجنب الحرب ، فأرسلوا الرهائن التى طلبها الرومان — ثلاثمائة طفل من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجى — كما سلموا أسلحتهم ، بل واستعدوا كذلك لتسليم بعض أراضى بلادهم ، على أن هذا الخضوع القرطاجى لم يكن ليزيد روما ، الا تجبرا وعتوا ، ولم يكن ليزيد طبقة الفوارس الرومية الغنية ، الا شراهة وجشعا ، وهم الذين لا تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلا ، والذين كانوا متسلطين على أداة الحكم فى روما ، ومن ثم فقد طلبت روما أن يخرج أهالى قرطاج من ديارهم ، وأن يرحل السكان الى بقعة تبعد عن البحر مسافة لا تقل عن عشرة أميال ، حتى يتمكن الروم من تدمير المدينة ، ومن الغريب أن يكون هذا المطلب من قوم يكادون يعتمدون اعتمادا كليا فى معاشهم على التجارة ، فيما وراء البحار •

وهكذا كان على القرطاجيين أن يختاروا بين هجر مدينتهم والنزوح الى الداخل ، وبين مواجهة الحرب بكل آثارها ، وعندما اضطروا الى اختيار الامر الثانى ، أرسل الروم فى عام ١٤٩ قبل الميلاد ، جيشا الى افريقيا ، وهكذا بدأت الحرب البونية الثالثة (١٤٩ — ١٤٦ ق•م)،والتى كافح القرطاجيون فيها عن وطنهم وكرامتهم،فضلا عن حياتهم ومصيرهم، كفاحا بطوليا منقطع النظير ، وهكذا ، وعلى الرغم من أنهم كانوا قد سلموا أسلحتهم للروم ، فانهم سرعان مابذلوا جهدهم أضعافا مضاعفة، لاعادة بناء طاقتهم الحربية مرة أخرى ، وبطريقة فريدة ، وصل البذل فيها الى درجة أن النساء قدمن شعورهن لكى تستخدم كحبال فى بعض مستلزمات الاسلحة ، وحتى أن القوم قد حولوا كل معبد ، وكل حانوت الى مصنع الاسلحة وأدوات الحرب(٦٠) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أمرين ، الواحد انقسام

---

(٦٠) ب• ه وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧١ ، هربرت ويلز : المرجع السابق ص ٥٥٥ — ٥٥٦ ، وكذا
B. H. Warmington, Carthage, London, 1961, P. 202-205.

المستوطنات الفينيقية والقرطاجية القديمة فى الحرب البونية الثالثة الى فريقين ، أحدهما ، يؤيد قرطاج ، وتتزعمه «بنزرت» ، وثانيهما ، وهو الاكثر ، يؤيد الروم ، وأهمهـا «أوتيكا» و «سوسـة» (هادوميتوم) و «رأس ديماس» (تابسوس) وغيرها ، وقـد نجت بذلك من التدمير المحتم •

وأما ثاني الامرين : فهو موت «ماسينيسا» فى عام ١٤٨ ق•م•أثناء الحرب البونية الثالثة ، الامر الذى أدى الى عـودة البربر الى الفقرة السياسية مرة أخرى ، بعد أن نجح «ماسينيسا» الى حد كبير فى جمع شملهم ، فضلا عن الخلافات الاسرية بين أبناء «ماسينيسا» الثـلاثة (ميسبسا ومستعنجل وغولوسة) ، فيمن يخلف الأب على عرش نوميديا ، ولعل فى تدخل القائد الرومانى« سكيبيو» فى هذه الشئون الداخلية ، بل فى شئون الاسرة البربرية ، ما يدل على وثاقـة العـلاقات بين الروم والقرطاجيين ، وعلى أية حال ، فلقد انفرد «ميسبسا»(Micipsa) الاخ الاكبر ، بعرش نوميديا فى الفـترة (١٤٨ — ١١٨ ق•م) كمـا صحب الاخ الثالث (غولوسة) القائد الرومانى فى حملته على قرطاج •

وهكذا انتهت مشكلة «نوميديا» بانضمامهـا نهائيا مع الروم ضـد قرطاج ، غير أن قبائل البربر الموريتانية انما قد انضمت الى قرطـاج ضد روما وبربر نوميديا ، الامر الذى يؤكد أنه — على الرغم من نجاح الرومان فى توطيد صلاتهم بالبربر ، وتقوية روح الكراهية بينهم ضـد القرطاجيين ، على الاقل فى المجال الحربى — فان هناك فريقا من البربر مايزال فى جانب القـرطاجيين ، هذا فضـلا عن تقبـل البربر للتراث القرطاجى — الادبى والدينى — والذى يتمثل فى استمرار اللغة البونية الجديدة ، بعد اندحار القرطاجيين فى أعقاب الحرب البونية الثالثة — الى جانب التأثر الكبير بالعقيدة القرطاجية[٦١] •

وعلى أية حال ، فلقد قاومت القوات القرطاجية،بقيادة «هزدروبال»،

(٦١) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ •

الحصار الرومانى بقيادة «سكيبيو» ، حتى كادت الهجمات على المدينة فى عام ١٤٩ ق٠م ، أن تبوء بكارثة على الروم ، وقد ساعد قرطـاج على المقاومة عوامل كثيرة ، منها (أولا) صلابة القرطاجيين واستماتتهم فى الدفاع عن مدينتهم قرطاج ، ومنها (ثانيا) شدة التحصينات المحيطـة بالعاصمة القرطاجية ، كالخنادق والحيطان القـوية التى كانت تستخدم كحواجز دفاعية ، ومنها (ثالثا) وجود منفذ بحـرى تستطيع قرطـاج بواسطته الحصول على المؤون ، فضلا عن الامدادات الحربية ، وبالتالى مواصلة المقاومة ضد الغزاة ٠

على أن ذلك كله ، لم يحل دون اقتحام الرومان لأحد أبواب قرطاج، والنفوذ منه الى داخل المدينة ، وبالتالى فقد تمكنوا من احـداث أولى الثغرات فى نطاق التحصينات القرطاجية ، مما أدى آخـر الامر ، الى تحكمهم فى المدينة ، فضلا عن التحكم فى المنفذ البحرى عن طريق بنـاء جسر عبر ميناء قرطاج ، قطـع عنها كل مدد برى وبحـرى ، غـير أن القرطاجيين سرعان ما شقوا منفذا الى البحر لكى يستخدم عوضـا عن المرسى الذى تحكم فيه الرومان ، كما استغل القرطاجيون كل امكاناتهم المادية والبشرية — رجالا ونساء — لاستعادة قواتهم البحرية،مستخدمين نجاحهم فى شق هذا المنفذ أو المخرج الجديد،لاعادة مواصلاتهم البحرية مرة أخرى ، ولكن سرعان ما تنبه الروم الى خطة القرطاجيين الجديدة، فقاموا بمهاجمتها ، وسد جميع منافذ المدينة المؤدية الى الخارج ٠

وهكذا قطع الرومان عن قرطاج كل مدد ، برى وبحرى ، فقـاسى القرطاجيون من الجوع آلاما ذريعة،بيد أنهم صمدوا حتى فتحت المدينة عنوة ، وكانوا أثناء هذا الحصار الأليم يدافعون عن مدينتهم من منازلهم ومن قلعة «برصة» (Byrsa) ، واستمر القتال فى الشوارع ستة أيام ، وكان قتالا شرسا تميز بالقسوة المتناهية من كلا الطرفين ، فكان كل منهما يدافع عن مصيره ، فلقد استخدم الروم الخنادق والحيطان وأبراجهـا واشعال النيران فى العمليات الحربية ضد قرطاج ، ومع ذلك،فلقد ضرب القرطاجيون أروع الامثال فى الشجاعة والحفاظ على الكرامة ، وعـدم

الخنوع للروم مهما كان الثمن غاليا ، ومثـال ذلك ، موقف زوج القائد القرطـاجي «هزدروبال» التي لم تقبـل تصرف زوجها في اضطـراره للاستسلام للقائد الروماني «سكيبو» ، وفضلت الانتحار مع أولادها في وسط النيران المشتعلة ، على الحياة الذليلة في كنف الغزاة الرومان •

وأخيرا فتحت قرطـاج في عام ١٤٦ قبل الميـلاد عنوة ، وعندمـا استسلمت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهـالي قرطاج ، البـالغ عددهم ربع مليون ، سوى خمسين ألفا تقريبا ، فبيعـوا بيع الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدميرا تاما ، وسير المحراث في أنقاضها المسودة بالحريق ، وبذرت فيها البذور لتكون شاهدا على محوها رسميا(٦٢) •

ولعل من الأهمية بمكان أن المؤرخين انما يسجلون أن «سكيبيـو» — بعد تدمير قرطاج — ألقى نظرة على المدينة التي ازدهرت أكثر من سبعمائة عام منذ انشائها (٨١٤ق٠م) والتي حكمت مناطق كثيرة — جزرا وبحـارا — وكانت ثرية السـلاح والاساطيل والفيـلة والمال ، مثـل الامبراطوريات العظمى ، بل لقد فاقتهم في الاقدام والشجاعة الفائقة ، فرغم أنها جردت من كافة أسلحتها وسفنها ، فقد صمدت لحصار شديد، ومجاعة قاسية لمدة ثلاث سنوات (١٤٩ — ١٤٦ ق٠م) ووصلت الان الى نهايتها بالتدمير الكلي ، ويقال ان سكيبيو بعد ذلك قد بكى ، ورثا مصير عدوه» ، وأنه تذكر الحقيقة الخـالدة التي تقضي بأن الافـراد والمدن والأمم والامبراطوريات لها نهاياتها المحتومة ، كان ذلك نهـاية طروادة، كما كان نهايات الامبراطوريات : المصرية والاشورية والميدية والفارسية والمقدونية وأنه قد أشار — عمدا أو بدون قصد — الى كلمات «هكتور من هومر» : أنه سيأتي اليوم الذي ستسقط فيه طروادة المقدسة،وكذلك الملك بريام ، وجميع رجـاله المسلحين معه» ، وعنـدما سأله المـؤرخ الاغريقي «بوليبيوس» (Polybius) (٢٠٣ — ١٢٠ ق٠م) ، والذي كان

---

(٦٢) هربرت ويلز : المرجـع السابق ص ٥٥٦ — ٥٥٧ ، رشـيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٨١ — ٢٨٢ ، وكذا
H. G. Wells, Op. Cit., P. 117-118.

معه ، ماذا يقصد ؟ التفت اليه قائلا : هذه لحظة عظيمة يا بوليبيوس ، ولكن الخـــوف يتملكنى من أن نفس المصـــير سيأتى لوطنى فى يوم من الايام»[٦٣] .

وهكذا انتهت الحرب البونية الثالثة بتدمير العاصمة «قرطاج» ، ومن ثم فقد توقفت هذه القوة السياسية الهامة فى المغرب ، وحوض البحـــر المتوسط ، وانفردت القوة الرومانية بالسيادة الكاملة على هذه المنطقة ، فضلا عن مناطق حوض البحر المتوسط الشرقية والغربية جميعها[٦٤] .

(٦) التراث الفينيقى فى المغرب :

كان العنصر الفينيقى ، دونما ريب ، هو العنصر الســـائد ثقافيا فى المغرب ، رغم أنه كان ــ بطبيعة الحـــال ــ انما يمثل فقط اقليـــة من السكان عامة ، وقد حدث التطور الزراعى فى نوميديا ــ كما أشرنا من قبل ــ فى مساحات أكثر بعدا ، حيث كانت الظـــروف الجغرافية فيها ملائمة ، ولم يمتد التطـــور المدنى بعيدا خـــارج العاصمة «قسنطينة» (قرطة ــ Cirta) ، وفيما بعد «قيصرية» (ايدل) ، ولكنه كان فى بعض المناطق كافيا لتمهيد الطريق لامتداد أكبر فى العصر الرومانى ، وليس أدل على قوة تأثير الثقافة المزدوجة من أن استخدام «البونية الجديدة» فى النقوش قد استمر حتى القرن الثانى الميلادى ، وأنه طـــوال نفس الفترة انما ظل لقب «شفيط» (Sufet) ــ وهو الاصطلاح السياسى القرطاجى الذى نقله لنا الكتاب الرومان ــ مستخدما على الاقل فى ثلاثين مدينة مختلفة من أقصى المنطقة الى أقصـــاها ــ من «وليلى» فى غربى مراكش . الى «لبدة» فى ليبيا ــ هـــذا فضلا عن أن العقيدة الفينيقية الليبية فى العصر الرومانى ، انما كانت قوية ، وأن آثارها انما كانت بعيدة المـــدى .

ولعل مما تجدر الاشـــارة اليه أن هناك قدرا من الوحدة الثقـــافية

---

63) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 202-203.

(٦٤) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

الظاهرية فى كل أنحاء المغرب ، يؤكدها الخط الليبى المبهم ، وقد ظهر هذا الخط فى القرن الثانى قبل الميلاد ، عندما استخدم فى نقشين فى «دجة» (Deugga) ، ثم استخدم بعد ذلك فى العصر الرومانى على لوحات — ربما تقليدا للعادة البونية — وقد عثر على عدد من هذه اللوحات فى مراكش ، وعلى الحدود الجزائرية التونسية وفى ليبيا ، وقد استسلمت كل من الليبية والبونية الجديدة — كلغتى كتابة — للغة اللاتينية فى العصر الرومانى،واستخدمت صيغة من البونية فى الحديث ظلت واسعة الانتشار فى العصر الرومانى المتأخر ، لكن من الصعب أن نحدد وضع الليبية ومدى انتشارها ، كلغة تخاطب ، وقد فشلت محاولة تفسير تشابه الخط الليبى، مع ذلك الخط الذى يستخدمه الطوارق فى الازمنة الحديثة •

هذا وكان تأسيس المستوطنات الفينيقية فى المغرب ، انما يشكل — من وجهة النظر التاريخية — التوسع الوحيد فى منطقة غربى البحر المتوسط لحضارات الشرق الادنى القديم ، والتى عمرت قرطاج بعدها جميعا ، وكان هذا — مع انتشار الاغريق فى الغرب — جزءا من حركة أدخلت كل غربى البحر المتوسط ، والى حدما شمال غربى أوربــا — الذى كانت تسكنه حتى ذلك الوقت شعوب قبلية متباينة — داخل التأثير الحضارى لبحر ايجه والشرق •

وعلى أية حال ، فليس هناك من ريب فى أن الفترة الفينيقية أدخلت المغرب فى اطار التاريخ العام لعالم البحــر المتوسط ، مؤكدة ارتبــاطه بالسواحل الشمالية ، كما هو مرتبط بالسواحل الشرقية ، كما أنها أكدت الظروف الجغرافية التى ربطت المغرب بعالم البحر المتوسط(٦٥) •

(٧) الدويلات التى خلفت قرطاج :

فى أعقاب تدمير الروم لقرطــاج فى عام ٤٦ قبل ايلاد ، وتحــويل اقليمها الى مجرد ولاية رومانية ، أصبح مصير شمال أفريقيا يتحكم فيه

---

(٦٥) ب• ه• وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧٣ — ٤٧٤ ؛ رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٢٨٣ •

الغزاة الرومان ، فضلا عن الممالك الوطنية ، ومن ثم فقد قسم الرومان المغرب الى قسمين رئيسيين : الواحد : الولاية الافريقية ، وكانت تشمل منطقة العاصمة قرطـاج بصفة خاصة ، وكانت الامـور فيه بيد الروم بصورة كاملة ، والثانى : الممالك البربرية ، وتنقسم بدورها الى مملكتين : وهما : نوميديا ، وعاصمتها «قرطة» (قسنطينة) ، موريتانيا ، وعاصمتها «ايول» التى اعيد تسميتها «قيصرية» ، وهى «شرشال» •

وفى عام ٤٤ قبل الميلاد ، قسمت «موريتانيا» الى ولايتين ، الاولى : موريتانيا القيصرية ، وعاصمتهـا «قيصرية» (شرشـال) ، والثانية : موريتانيا الطنجية ، وعصمتها «تنجيس» (Tingis) وهى «طنجة» •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا ــ وقبل الحديث الموجـز عن ولايتى نوميديا وموريتانيا ، اللتين خلفتا قرطاج فى الشمال افريقى ــ الى عدة نقاط ، لعل من أهمها (أولا) أن هاتين الدويلتين ــ أو الملكتين ــ انما قد اعترفتا بالسيادة الرومية ، وان تركت مقاليد الحكم فيها ــ بصفة عامة ــ لأبناء هاتين الملكتين تحت السيادة الرومية ، ومنها (ثانيا) أن التأثير الثقافى القرطاجى ، انما قد استمر فى هاتين الدويلتين ، بل انه ربما قد ازداد عما كان عليه الحال من قبل ، حيث قد انتعشت المستوطنات الساحلية القديمـة ، والتى كان قد هـرب اليها العديد من اللاجئين فى سنوات الصراع الرومانى القرطاجى الاخير ، كما انتشرت اللغة الفينيقية فى صورتها الاخيرة ، والتى عرفت باسم «البونية الجديدة» (Neo-Punic) على نطاق أوسع من ذى قبل ، وهناك ما يشير الى أن الروم انمـا قد سلموا للملوك النوميديين المكتبات التى نجت من التخريب الشامل الذى حل بقرطاج فى ساعات سقوطها الاخيرة ، وربما كانت لبعض هذه الكتب قيمة علمية ، مثل بحوث «ماقون» فى الزراعة مثلا •

ومنها (ثالثا) أن الملكتين ــ النوميدية والموريتانية ــ انما كانت ، والى حد كبير ، مجرد اصطلاحين جغرافيين ، حيث أن عددا كبيرا من القبائل فى هاتين الملكتين ، انما ظل محتفظا بشخصيته المميزة فى العصر

الرومانى ، وربما بعد ذلك ، وأن الوحدة السياسية فيها انما ظلت هشة الى حد كبير ، وقد زاد من حدة التفكك السياسى تعدد الزيجات داخل الاسرة الملكية ، فضلا عن التدخل الرومانى فيما بعد[٦٦] ، ولنتحدث الان بكثير من الايجاز عن هاتين المملكتين :

١ ـ نوميـــديا :

من المعروف أنه عندما مات «ماسينيسا» فى عام ٤٨ قل الميلاد ، خلفه فى حكم «نوميديا» ولده «ميسبسا» (Micipsa) (١٤٨ — ١١٨ ق٠م) والذى تميز عهده بازدياد حجم التبادل التجارى بين روما وايطاليا وبين النوميديين ، ومن ثم فقد أصبحنا نسمع كثيرا عن العديد من التجار فى العاصمة «قرطة» ، وعندما توفى انتقل حكم نوميديا الى اثنين من أخوته، فضلا عن ابن أخ لهما يدعى «يوجورتا» (يوغرطه — Jugurtha) ، حفيد «ماسينيسا» ، والذى كان يحظى بتأييد رجـل الدولة الرومانى «سكيبيو ايميليانــوس» (Scipio Ameillanus) — كمـا كان جـده «ماسينسا» يحظى بتأييد سكيبيو الافريقى •

ومن المعروف أن «يوجورتا» انما كان من ذلك النوع من الرجال ، أصحاب الشخصيات القوية والطموحات الكبيرة ، ومن ثم فقد كان يسعى جاهدا ليكون الحاكم الاوحد فى نوميديا ، الامر الذى أثـار عليه عمه «مكبسا» (ميسبسا) ، ومن ثم فقـد أرسله فى حملة عسكرية لتأييـد الرومان فى حروبهم فى أسبانيا ، غير أن «يوجورتا» سرعان ما أظهر هناك قدرات عسكرية فائقة ، كفلت له النجـاح فى مهمته ، فضلا عن تقـدير الرومان العظيم له ، الامر الذى اضطر «ميسبسا» الى تبنيه ومحاولة التوفيق بينه وبين أولاده ، ثم الوصـاية له بالعرش — بعد بنيه — مما أعطاه حقا شرعيا فى العرش ، ثم العمل على الانفراد به ، من دون ولدى عمه «أدهربال» (Adherbal) و «همبسال» (Hiempsal) ، وهكذا ما أن مات «ميسبسا» حتى كان الخلاف على أشـده بين الورثة الثلاثة

---

(٦٦) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ ٠

«يوجورتا وادهربـال وهيمبسال» وفر «أدهربـال» الى روما طالبـا حمايتها : الامر الذى يتفق وسياسة الرومان فى التفرقة بين البربر ، غير أن «يوجورتا» سرعان ما فعل الشىء نفسه ، ونجح فى اكتساب كثير من أعضاء مجلس السيناتو •

وانتهت الامور فى عام ١٦ قبل الميلاد ، بأن قسمت روما مملكة نوميديا الى مملكتين ، الواحدة : شرقية يحكمها «أدهربال» ، وتمتد من حـدود الدولة القرطاجية القديمة — والتى أصبحت الولاية الافريقية الرومانية— وحتى حدود «قرته» ، والاخرى : غربية ، وتمتد حتى الحدود الشرقية للمغرب الاقصى أى وادى ملوية ، ويحكمها «يوجورتا» •

غير أن «يوجورتا» سرعان ما ثار على هذا الوضع ، واستولى على «قرطة» ، وأعاد الوحدة السياسية مرة أخـرى لنوميدية — المملكـة البربرية — تحت رياسته ، وهو أمر ، لاشك فى أنه يتعـارض تماما مع السياسة الرومية ، وقد يؤدى — فى نفس الوقت — الى تكوين قـوة بربرية جديدة لها شأنها فى المغرب ، يمكن أن تحل محل القوة القرطاجية القديمة،ومن ثم فقد انتهز الروم قتل «يوجورتا» لافراد الجالية الايطالية هناك ، فأعلنوا عليه الحرب ، وهكذا بدا صراع عنيف بين يوجورتا والروم فى الفترة (١١١ — ١٠٥ ق•م) ، حقق فيها الرجل عدة انتصارات على الروم ، بعد أن الحق بجيوشهم هزائم منكرة ، غير أن روما سرعان ما لجأت الى الخداع والمؤامرات حتى أمكنها الايقاع به ، وأخيرا غرر به حموه «بوخوس» (Bocchus) — ملك موريتانيا ، وسلمه للرومان ، بناء على اتفاق بين بوخوس والقائد الرومانى «سلا» (Sulla) ، وهكذا تحقق للرومان ما يريدون من تقوية نفوذهم فى المغرب ، وقتل «يوجورتا» فى عام ١٠٤ ق•م ، ونال «بوخوس» ثمن غدره بصهره اقليما كبيرا شرقى ملويـة •

وسرعان ما نصبت روما عضوا اخر من أسرة «ماسينيسا» ملكا يدعى «غودة» أو «جـودة» (Gauda) ، ثم خلفـه ولده «هيمبسـال»

(Heimpsal) الذى خلعه أحد منافسيه قرابة أعوام خمســة (٨٨ — ٨٣ ق٠م) ، غير أنه أعيد مرة أخــرى الى الحكم لمدة تقــرب من ثلاثة وعشرين عاما (٨٣ — ٦٠ ق٠م) ، ومن المعروف عنه أنه ألف كتابا عن أفريقيا باللغة البونية ، وفى أكبر الظن أنه استمر فى الخط الحضــارى الذى بدأته أسرته ٠

هذا وقد تورطت نوميديا — فى آخريات أيامها كدولة مستقلة — فى الحرب الاهلية التى دمرت الجمهورية الرومانية ، وذلك بسبب اهــانة تلقاها «يوبا» (Juba) بن «هيمبســال» (٦٠ — ٤٦ ق٠م) على يــد «يوليوس قيصر» باعتباره فتى صغيرا ، الامر الذى دفع «يوبــا» الى الانضمام الى معسكر «بومبى» فى عام ٤٩ قبل الميلاد ، وقدم له قدرا كبيرا من المساعدة فى أفريقيا ، حتى قيل ان «يوبا» قد وعد بأن يتولى امارة الاقليم الرومانى فى أفريقيا ، اذ ما قدر لأنصار «بومبى» (١٠٦ — ٤٨ ق٠م) أن يكسبو الحــرب ، غير أن النصر انما كــان من نصيب «يوليوس قيصر» (١٢٠ — ٤٤ ق٠م) فى معركــة «ثابسوس» (رأس الديماس على الساحل التونسى) ، فى عام ٤٦ ق٠م ، الامر الذى أدى الى انتحار «يوبا» ، وفرض الحكم الرومانى المباشر على نوميديا ، فضلا عن تكوين ولاية جديدة — الى جانب ولاية أفريقيا التى حلت محل الدولة القرطاجية — وقد دعيت الولاية الجديدة ، ولاية «أفريقيا الجديدة» ، وهكذا بدأ الرومان يثبتون أقدامهم فى المغرب ، مما مهــد فى السنوات التالية الى احتــلال كامل للمنطقة ، واعتبارها جــزءا من الامبراطورية الرومــانية[٦٧] ٠

٢ — موريتــانيا :

يذهب المؤرخون الى أن تقدم المملكة الموريتانية — بصفة عــامة — أكثر بطئا من نوميديا ، وربما كان هذا التصور بسبب نقص المعلومات ، غير أنه من الواضح أن الجزء الرئيسى لجبــال أطلس انما ظل حصــنا

(٦٧) ب٠ ه وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧١ — ٤٧٢ ، رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٣١١ — ٣١٢ ٠

الحضارة الفينيقية — مثلما كان فيما بعد للحضارة الرومانية — ومع ذلك، فلا ريب في أن هناك بعض التقدم في حياة الاستقرار في المناطق الخصبة مثل «وادى ملوية» ، وعلى طول ساحل الاطلنطى ، وفي المناطق الجبلية احتفظت القبائل المستقلة بشخصيتها خلال العصر الرومانى ، وحتى بعد ذلــك •

هذا وقد أشرنا من قبل ، أن «بوخوس الاول» انما كان قد ســاعد «يوجورتا» ضد الروم ، ولكنه قد غدر به فيما بعد ، ونال ثمن خيانته اقليما كبيرا شرقى ملوية ، وفي الجيل التالى يبدو أن المنطقة قسمت ، فحكم «بوخوس الثانى» الجزء الشرقى من موريتانيا ، وقد اشترك مع المغامر الايطالى «سيتيوس» (Sittius) في القتال ضد «يوبا» لصالح «يوليوس قيصر» ، وقد أيده كذلك «بوجود» (Bogud) ، حاكم الجزء الغربى (غرب ملوية) ، وقد كوفىء كلاهما ، فوسع «بوخــوس» اقليمه على حساب نوميديا ، وبعد ســنوات قليلة أيد «بوجود» (بوغــود) «ماركوس أنطونيو» (٨٣ — ٣٠ ق•م) ضد «أوكتافيوس» (٦٣ ق•م — ١٤ م) في الحرب الاهلية الرومانية ، فطــرده «بوخوس» من أرضــه لصالح أوكتافيوس •

هذا وقد صارت كل هذه المنطقة — بعد موت بوخوس في عــام ٣٣ ق•م ، ومقتل بوجود في عام ٣١ ق•م — خلوا من أى حاكم وطنى ،وكان في امكان روما ضمها اليها مباشرة ، غير أن القيصر «جايوس أوكتافيوس» — ابن أخ يوليوس قيصر،والذى صار امبراطورا يحمل لقب «أغسطس» (٢٧ ق•م — ١٤ م) — انما رأى أن الوقت لم يعــد بعد مناسبا ، لكى تتولى روما الحكم المباشر ، ربما خوفا من المشاكل العسكرية الكبيرة من جانب القبائل الجبلية •

وأيا ما كان الامر ، ففى عام ٢٥ قبل الميلاد ، نصب «يوبا» الثانى — ابن الملك النوميدى الاخير — ملكا ، وهو الذى قضى طفولته منذ الرابعة من عمره في ايطاليا ، والذى أعاد تنظيم المملكة النوميديه مؤقتا في الفترة (٣٠ — ٢٥ ق•م) ، وقد استمر هذا الملك «يوبا الثانى» في الحكم أكثر

من أربعين سنة (٢٥ ق٠م — ١٥ م) ، كان خلالها دونمـا ريب عميلا مخلصا للروم ، وقد قام فى موريتانيا — والى حد ما — بنفس الدور الذى قام به «ماسينيسا» فى ندميديا ، وان كان الامر الذى لا شك فيه أن عاصمته «ايول» Iol يمكن آخر الامر من اخضاعها فى عام ٢١٢ق٠م قد صارت متحضرة فى عصره ، كما صارت كذلك العاصمة البديلة «وليلى» (فولوبيليس — Volubillis) متحضرة أيضا[٦٨] ٠

وعلى أية حال ، فهناك من يذهب الى أن «يوبا الثانى» هذا ، انما كان يعد مواطنا رومانيا ، وأنه قد ارتبط بالزواج بالاميرة «كليوبترا» ابنة الملكة الشهيرة «كليوبترا» آخر ملوك البطالمة وأن عصره انما يعد — من الناحية الحضارية — أقرب الى الصفة الدولية ، فقد كان يعتمد على كافة الثقافات الرومانية والقرطـاجية واليونانية والمصرية ، وقد دعم هـذا الاتجاه بتكوين مكتبة شاملة لمختلف هذه الثقافات فى ذلك العصر ، وأنه هو شخصيا على جانب من العلم والادب ، حتى نسب اليه تأليف عدد من الكتب بالاغريقية ، وان لم يوجد منها شىء الان ٠

على أن تأثره بالثقافة الرومانية كان أكثر وضوحا من غيره ، ربما بسبب نشـأته الرومانية ،و من ثم فقد اتجـه الى النظام السيـاسى الرومانى ، فضلا عن العقيدة نفسها ، ومن هنا فانه — على الرغم من أن البربر انما كانوا يتمسكون بالمعبودات البربية الاصل ، والتى آمن بهـا الفينيقيون والقرطاجيون سواء بسواء — غير أن «يوبـا الثانى» انما اعتنق عبادة الامبراطور الرومانى «أوغسطس» ، بل وشيد فى عاصمته «شرشال» معبدا للامبراطور أوغسطس (٢٧ ق٠م — ١٤ م)[٦٩] ٠

وعلى أية حـال ، فلقد تميز عهد «يوبـا الثانى» أيضـا بثـورة «تكفاريناس» (Tacfarinas) ، والتى استمرت ثمانى سنوات (١٧ — ٢٤ م) ، على أيام الامبراطور الرومانى «تبيريوس» (١٤ — ٣٧م) ،

---

(٦٨) ب٠ هـ٠ وارمنجتون : المرجع السابق ص ٤٧٣ ٠
(٦٩) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٣٢١ — ٣٢٣ ٠

وامتدت الى كل المناطق الجنوبية لشمال أفريقيا — من طرابلس حتى موريتانيــا — .

ومن عجب أن يزعم المؤرخون الاوربيون — أو بعضهم على الاقل — أن هذه الحرب انما كانت تمثل صراعا بين الحضارة والعــالم البربرى (غير المتحضر) ، ومحاولة من البــدو ، وأشباه البدو ، من الســكان الاصليين ، لوقف التقدم الرومانى وعملية الاستيطــان ، رافضين بذلك نمطا حضاريا أرقى ، ونظاما اجتماعيا أفضل[٧٠] .

غير أن المطالب التى نسبت الى «تكفاريناس» انما تقدم لنا فكــرة واضحة عن الاسباب الاســاسية للثورة ، ولمقاومة الســكان الاصليين للاستيطان الرومانى ، فلقد حمل الثائر النوميدى (تكفاريناس) السلاح لارغام أقوى امبراطور وقت ذاك ، على الاعتراف بحق شعبه فى أرضه ، ذلك لأن الغزو الرومانى انما قد أدى الى مصادرة كل الارضين الخصبة فى الحال ، وخربت حقول النوميديين المستقرين ، كما تقلصت ، وأحيانا حددت المناطق التى تعــارف النوميديون على التجوال فيهــا ، ووطــأ المحاربون القدماء وغيرهم من الايطاليين والرومان بأقدامهم فى كل مكان، بادئين بأغنى أجزاء البلاد ، واقتطعت شركات التزام جباية الضرائب ، وأعضاء الارستقراطية الرومانية ، وأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ممتلكات ضخمة لأنفسهم ، وبينما كانت بلادهم تستغل بهذه الطريقة ، فان الرعاة الاصليين ،و كل السكان المقيمين الذين لم يسكنوا المدن القليلة الباقية بعد الحروب المتتابعة ، أو اجراءات المصادرة للملكية الشخصية ، فهم اما تحولوا الى فقر مدقع ، أو طردوا الى السهوب غير المشجرة ، والى الصحراء ، وصار أملهم الوحيد فى المقاومة المسلحة ،و كان هدفهم الرئيسى من الحرب ، هو استعادة أراضيهم[٧١] .

---

(٧٠) انظر :
P. Romanelli, Storia delle Province romane dell'Africa, Rome, 1959, P. 227-228.

(٧١) عمار محجوبى : العصر الرومانى وما بعده فى شمال افريقيا — كتاب تاريخ افريقيا العام — توريتو ١٩٨٥ ص ٤٧٦ .

وعلى أية حـال ، فلقد تبادل «تكفاريناس» مـع الروم ، النصر والهزيمة ، طوال سنوات الثورة الثمانى ، حتى تمكن الروم آخر الامر من استخدام طريقة الكمائن المفاجئة ضد قوات «تكفاريناس» ، وضاعفوا من مهاجمتهم لقواته ، حتى تمكنوا آخر الامر من التحكم فى الموقف ، وقتل «تكفاريناس» عام ٢٤ م •

وجاء بعد «يوبا الثانى» ولـده «بطليموس» ، والذى ظـل يحكم موريتانيا فى الفترة (٢٣ ــ ٤٠ م) ثم استدعاه الامبراطور «جايوس كاليجولا» (٣٧ ــ ٤١ م) وأعدمه لسبب غير معروف ، على وجه اليقين ، على رأى ، ولأنه اجتذب انتباه الحاضرين بزيه الارجوانى اللـون فى حفل رسمى فى عـام ٤٠ بعد الميلاد ، على رأى ثان ، غـير أن السبب الحقيقى انما يرجع ، دونما ريب ــ الى أن الرومان انما كانوا يرغبون فى الاستيلاء على المناطق شبه المستقلة فى المغرب ، ثم ضمها الى حظـيرة الامبراطورية الرومانية ، وقد تحقق لهم هذا الامر ، ومن ثم فقد انشئت ولايتى موريتانيا القيصرية والطنجية ، داخل نطاق المغرب الرومانى •

وهكذا أصبح المغرب يتكون من أربع ولايات رئيسية هى : أفريقيا ونوميديا وموريتانيا القيصرية ومريتانيا الطنجية ، وقـد امتدت الولاية الافريقية فى جانبها الشرقى حتى مدينة طرابلس ، وفى جانبها الغربى حتى مدينة عنابة ، بينما تركزت ولاية نوميديا فى شرقى الجزائر ، وأما ولايتا موريتانيا ــ القيصرية والطنجية ــ فتحتل مناطق غربى الجزائر والمغرب الاقصى ، ويفصل بينهما نهر «ملوية» (مولوكا ــ Mulucha) وكانت مدينة «شرشال» عاصمة لموريتانيا القيصرية ، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا الطنجية[٧٣] •

---

(٧٣) رشيد الناضورى : المرجع السابق ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ •

المراجــــع المختــــارة

أولا ـ المراجع العربيـة :

الدكتور ابراهيم أحمـد زرقانة : الحضارات المصرية فى فجر التاريخ ـ القاهرة ١٩٤٨ .

الدكتور أحمد بدوى : فى موكب الشمس (جـزءان) ـ القاهرة ١٩٥٠/ ١٩٥٥ .

الدكتور احمد فخرى : مصر الفرعونية ـ القاهرة ١٩٧١ .

أم الخير العقون : العلاقات الحضارية والسياسية بين مصر وشمال افريقيا منذ أقدم العصور حتى نهاية الالف الثانى قبـل الميلاد ـ الاسكندرية ١٩٨٨ .

الدكتور حسن أحمد محمود وآخرون : حضارة مصر والشرق القـديم ـ القاهـرة .

الدكتور حسن الشريف : دراسة تاريخية لحضارة المغـرب القديم أثناء العصر الحجرى الحديث ـ الاسكندرية ١٩٧٥ .

الدكتور رشيد الناضورى :

١ ـ المغرب الكبير ـ الجزء الاول ـ العصور القديمة ـ الاسكندرية ١٩٦٦ .

٢ ـ جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا (جـزءان) ـ بيروت ٦٨/ ١٩٦٩ .

الدكتور سليم حسن : مصر القديمة (١٣ جزءا) ـ القاهرة ١٩٤٠/١٩٦٠ .

الدكتور طه باقر : عصور ما قبـل التاريخ فى ليبيا وعلاقتها باصـول الحضارات القديمة ـ بحث منشور / «ليبيـا فى التاريخ» ـ بنى غازى ١٩٦٨ .

الدكتور عبد الحميـد زايد :

١ ـ مصر الخالدة ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٢ ـ الشرق الخالد ـ القاهرة ١٩٦٦ .

الدكتور عبد السلام محمد شلوف :

١ ـ المقاومة الوطنية الليبية للاستعمار الاغريقى ـ بنغازى ١٩٨٥ .

٢ ـ نقوش من قورينايقا تتحـدث عن المقاومة الوطنية الليبية للاستعمار الرومانى ـ مجـلة البحوث التاريخية ـ العدد الثانى ـ بنغازى ١٩٨٦ .

الدكتور عبد العـزيز صـالح :

١ ـ حضارة مصر القديمة وآثارها ـ الجزءالاول ـ القاهرة ١٩٦٢ .

٢ ـ الشرق الادنى القديم ـ الجـزء الاول ـ مصر والعـراق ـ القاهرة ١٩٦٧ ٠

عبد الكريم فضيل الميار : قورينا فى العصر الرومانى ـ طرابلس ١٩٧٨ ٠

الدكتور عبد اللطيف احمد على : روما ـ الجزء الاول ـ تاريخ الجمهورية والامبراطورية الرومانية ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

الدكتور عبد المنعم أبو بكر : كفاحنا ضد الغـزاة ـ العصر الفرعـونى ـ القاهرة ١٩٥٧ ٠

الدكتور فوزى فهيم جادالله : المقاومة الوطنية للاغريق والرومان ـ طرابلس ١٩٨١ ٠

الدكتـور محمـد بيـومى مهـران :

١ ـ الثـورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنـة ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ٠

٢ ـ مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ـ الاسكندرية ١٩٦٩ ٠

٣ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٦ ٠

٤ ـ مصر ـ الجزء الاول ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ٠

٥ ـ مصر ـ الجزء الثانى ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ٠

٦ ـ مصر ـ الجزء الثالث ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ٠

٧ ـ اسرائيل ـ الجزء الثانى ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ٠

٨ ـ الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الاول ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ٠

٩ ـ الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الثانى ـ الاسكندرية ١٩٨٩ ٠

١٠ ـ المدن الفينيقية ـ الاسكندرية ١٩٨٩ ٠

١١ ـ بلاد الشام ـ الاسكندرية ١٩٩٠ ٠

الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور :

١ ـ معالم تاريخ الشرق الادنى القديم ـ الاسكندرية ـ ١٩٦٨ ٠

٢ ـ المدن الفينيقية ـ بيروت ١٩٨١ ٠

محمـد مصطفى بازان : تاريخ ليبيا ـ الجـزء الاول ـ عصور ما قبل التاريخ ـ بنغازى ١٩٧٣م ٠

الدكتور مصطفى العبادى : مذكرات فى التاريخ الرومانى ـ بيروت ٠

مصطفى عـــامر : تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعونى ـ حضارات عصر ما قبل التاريخ ـ القاهرة ١٩٦٢ ·

الدكتور مصطفى كمال عبد العليم : دراسات فى تاريخ ليبيا القـــديم ـ بنغـــازى ١٩٦٦ ·

الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ـ الجزء الثـالث ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ·

ثانيا ـ المراجع المترجمـة :

الن جـــاردنر : مصر الفراعنة ـ ترجمة نجيب ميخـائيل ـ ومراجعـــة عبد المنعم أبو بكر ـ القاهرة ١٩٧٣ ·

ايتين دريوتون وجاك فانديبه : مصر ـ ترجمة عباس بيومى ـ القـاهرة ١٩٥٠م ·

ب· هـ· وارمنجتون : العصر القرطاجى ـ تاريخ افريقيا العام ـ تورينو ايطاليا ١٩٨٥م ·

ج· كونتنـــو : الحضارة الفينيقية ـ ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ـ القاهرة ١٩٦٥ ·

جـان يويوت : مصر الفرعونية ـ ترجمة ســعد زهـــران ، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ـ القاهرة ١٩٦٦ ·

جيهـان ديزانج : البربر الاصليون ـ من كتـــاب تاريخ افريقيا العـــام (ص ٤٣١ ـ ٤٥١) ـ تورينو ـ ايطاليا ـ ١٩٨٥ ·

جون ويلسون : الحضارة المصرية ـ ترجمة أحمد فخرى ـ القاهرة ١٩٥٦·

رودلف كـوبر : من الصيد الى الرعى ـ ما هو العصر الحجرى الحديث فى الصحراء الكبرى ـ من كتاب الصحراء الكبرى ـ ترجمـــة مكاييل محرز ـ ليبيا ١٩٧٩ ·

سبتينو موسكاتى : الحضـــارات السامية القديمة ـ ترجمـــه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٦٨ ·

عمـار محجوبى : العصر الرومانى وما بعده فى شمال أفريقيا ـ تاريخ افريقيا العام ـ تورينو ـ ١٩٨٥ ·

فبريو مورى : حول تاريخ الرسوم الصخرية فى الصحارء الكبرى ـ ترجمة مكاييل محرز ـ كتاب الصحراء الكبرى ـ ليبيا ١٩٧٩ ·

فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ الجزء الاول ـ ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ـ بيروت ١٩٥٨ .

كارل شترتيتر : الرسوم الصخرية كمصدر تاريخى ـ ترجمة عماد الدين غانم ـ كتاب الصحراء الكبرى ـ ليبيا ـ ١٩٧٩ .

مانفرد فيبر : المصريون القدماء والصحراء الكبرى ـ ترجمة عماد الدين غانم ـ كتاب الصحراء الكبرى ـ ليبيا ١٩٧٩ .

هربرت جورج ويلز :

١ ـ معالم تاريخ الانسانية ـ المجلد الثانى ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ القاهرة ١٩٦٩ .

٢ ـ موجز تاريخ العالم ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ القاهرة ١٩٦٧ .

ول ديورانت :

١ ـ قصة الحضارة ـ الجزء الثانى ـ ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٦١ .

٢ ـ قصة الحضارة ـ الجزء الثالث من المجلد الثانى ـ حياة اليونان ـ ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٥٤ .

ثالثا : المراجع الاجنبية :

Alimen, (H.),

1. Atlas de Prehistoire. Boubee, Paris, 1950.
2. Prehistoire de L'Afrique, I, Boubee, 1955.

Arkell, (J. A.),

1. Early Khartoum, Oxford, 1949.
2. Shaheinab, Oxford, 1953.
3. A History of The Sudan from The Earliest Time To 1821, London, 1961.

Balout, (L.), Prehistoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1955.

Baramki, (D.), Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961.

Bates, (O.), The Eastern Libyans, London, 1814, 1970.

Baumgartel, (E. J.), The Cultures of Prehistoric Egypt, 2 Vols, Oxford, 1955, 1960.

Bovier - Lapierre, (R. P.), L'Egypte Prehistorique, Precies de L'Histoire de L'Egypte Le Caire, 1932.

Braidwood (R. J.), Near Eastern Prehistory in Science, 127, 1957.

Braidwood, (R. J.) and Reed, (C.), The Achievement and Early Consequences Food-Production, SQB, XXII, 1957.

Breasted, (J. H.),

1. A History of Egypt, from The Earliest Times to The Persian Conquest, London, 1927, N. Y., 1946.
2. Ancient Records of Egypt, 4 Vols, Chicago, 1906-1907.

Camps, (G.), Delibrias, (G), et Thommeret, (J.), Chronologie absolue et Succession des Civilisations Prehistoriques dans le Nord de L'Afrique, Libyca, XVI, 1968.

Camps - Fabrer, (H.), Matiere et Art Mobilier dans la Prehistoire Nord-Africaine et Saharienn., Memoires du C.R.A.P.E., 5, Paris, 1966.

Caton - Thompson, (G.) and E. W. Gardiner,

1. The Prehistoric of Khargah Oasis, The Geographical Journal, LXXX, 1832.
2. The Desert Fayum, I, London, 1943.

Cerny, (J.) I - Egypt, From The Death of Ramesses, III, to The End of The Twenty - First Dynasty, CAH, II, Part, 2, B, Cambridge, 1980.

Chamla, (M. C.),

1. Recherches Anthropologiques sur L'Origine des Malgaches, 1958.
2. Les Populations Anciennes du Sahara et des regions Limitrophes Etude des restes Osseux humains Neolithiques et Protohistoriques, Mem, CRAPE, IX, 1968.
3. Les hommes epipaleolithiques de Columnata, (Algerie Occidentale) Mem, CRAPE, XV, 1970.

Clark, (G.), Prehistory of The World, Cambridge, 1962.

Cotteville, (Giraudet), L'Egypte Avant L'Histoire, BIFAO, 33, 1933.

Daumas, (F.), La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965.

De Margan, (J.), La Prehistoire Orientale, II, L'Egypte et L'Afrique du Nord, Paris, 1926.

Drioton, (E.), Contenau (G.) and Duchesse, (J.), The Religion of The Ancient East, London, 1959.

Drioton, (E.) et Vandier, (J.), L'Egypte, Paris, 1965.

Duassaud, (R.),

1. Les Decouverts de Ras-Shamra, Paris, 1949.
2. Les religions des Hittites et des Hourrites des Pheniciens et Syriens, Paris, 1949.

Edgerton, (W. F.) and Wilson, (J.), Historical Records of Ramesses, III, The Texts in Medinet Habu, I, II, Chicago, 1936.

Edwards, (I.E.S.), The Early Dynastic Period in Egypt, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971.

Fage, (J. D.), An Introduction to The African History, Cambridge, 1955.

Fakhry, (A.),

1. Wadi el-Natron, ASAE, 40, 1940.
2. Bahria Oasis, I, Cairo, 1942.

Faulkner, (R. O.),

1. The Wars of Sethos, I, in JEA, 33, 1947.
2. Egypt, From The Inception of The Nineteenth Dynasty to The Death of Ramesses, III, CAH, II, Part, 2, A. Cambridge, 1975.

Fisher, (H. G.), A God and a General of The Oasis on a Stela of The Late Middle Kingdom, in JNES, 16, 1857.

Foureau - Lamy, Documents Scientifiques De La Mission Saharienne, II, Bublications De la Societe Geographique De Paris, 1905.

Furon, (R.), Manuel de Prehistoire Generale, Paris, 1958.

Gardiner, (A. H.),

1. Ancien Egyptian Oonomastica 3 Vols, Oxford, 1947.
2. Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961.
3. The Founding of A New Delta Town in The Twentieth Dynasty, in JEA, 34, 1948.

Gilbert and Colette Charles - Picard, Daily Life in Carthage, Translated in English, by A. E. Foster, London, 1961.

Goodchild, (R. G.), Cyrene and Apollonia, an Historical Guide, London 1963.

Gsell, (S.), Histoire Ancienne de L'Afrique du Nord, 8 Vols, Paris, 1913-1928.

Harden, (D.), The Phoenicians, London, 1963.

Hayes, (W. C.),

1. The Scepter of Egypt, I, II, New York, 1943, 1859.
2. Most Ancient Egypt, Chicago, 1965.

Hill, (G. F.),

2. Guide and Greek Coins, London, 1932.

Hours - Miedan, (M.), Carthage, (Presses Universitaires), 1949.

Huzayyin, (S. A.), The Place of Egypt in Prehistory, A Correlated Study of Climates and Cultures of The Old World, MIE, 43, Le Caire, 1941.

Jodin, (A.), Les Grottes d'El Khril a Achakar (Province de Tanger), Bull. d'Archeol. Norac, III, 1950-1959.

Julien, (C. A.), Histoire De L'Afrique Du Nord, Paris, 1975.

Kees, (H.), Ancient Egypt, A Cultural Topography, Translated from The German, by I.F.D. Moorrow, London, 1961.

Kitchen, (K. A.), The Third Intermediate Period in Egypt Oxford, 1972.

Kochler, (H.),

1. La Grotte d'Achakar au cap Spertel, Bull. de L'Inst, d'Et. des Relig. de L'Eveche de Rabat, 1931.
2. Le Vase Neolithique de la Grotte d'Achakar, Bullfl de la Soc. de Prehist. du Marco., III, 1929.

Quiblle, (J. E.), Hierakonopolis, I, London, 1900.

Quiblle, (J. E.), and Green, (F. W.). Hierakonopolis, II, London, 1902.

Lapeyre, (G. G.) et Pellegrin, (A.), Carthage Punique, Payot, 1942.

Massoulard, (E.), Prehistoire et Protohistoire de L'Egypte, Paris, 1949.

Mc Burney, (C. B. M.),

1. The Stone Age of Northen Africa, London, 1960.
2. The Haua Fteeh (Crenaica) and The Stone Age of The South - East Mediteranean, Cambridge, 1961.

Mellart, (J.), Earliest Civilizations of The Near East, London, 1965.

Mokhtar, (M. G.), Ihnasya El-Madinah, Cairo, 1957.

Mori, (F.), Prehistoric Saharan Art and Cultures in The Light of Discoveries in The Acacus Massif, (Libyan Sahara), 1968.

Moscati, (S.),

1. The World of The Phoenisians, London, 1968.
2. Ancient Semitic Civilizations, London, 1957.

Newberry, (P. E.), The Set Rebellion of The II nd Dynasty, Ancient Egypt, 1922.

Peake, (H. J. E.), The Origines of Agriculture, London, 1940.

Petrie, (W. M. F.),

1. Prehistoric Egypt, BSAE, 13, London, 1920.
2. The Wisdom of Egyptians, London, 1940.

Rhulman, (A.), La Grotte Prehistorique De Dar-Essoltan, Paris, 1951.

Robinson, (F.S.G.), Punic in Spain, London, 1965.

Rostovtzeff, (M.), The Social and Economic History of The Roman Empire I, Oxford, 1979.

Scharff, (A.), Some Prehistoris Vases in The British Musum, in JEA, 14, 1928.

Seligman, (C.), The Older Paleolithic Ago in Egypt, JRAI, 1921.

Strabo,

1. The Geography of Strabo, Translated by Hamilton, London, 1912.
2. The Geography of Strabo, Translated by H. L. Jones, London 1960.

Unger, (M. F.), Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.

Vallois, (H. V.), L'homme de Rabat, in Bulletion d'Archeologie Marocaine, III, 1958-1959.

Vaufrey, (R.),

1. La Prehistoire de L'Afrique, I, le Maghreb, Paris, 1955.
2. L'Art Rupestre nord Africain, Archives de L'Institut de Paleontologie Humaine, 20, Paris, 1939.

Vignard, (E.),

1. Une Station Aurignacienne A Nag-Hammadi, (Haute Egypte), Station du Champ de Bagasse, BIFAO, XVIII, 1921.
2. Une Nouvelle Industrie Lithique : Le Sebilien, in Bull. Soc. Preh. fr., 25, 1928.

Wainwright, (G. A.),

1. The Red Crawn in Early Prehistoric Times, in JEA, 9, 1923.
2. Some Sea-People, in JEA, 47, 1961.
3. The Meshwesh, in JEA, 48, 1962.

Warmington, (B. H.),

1. Carthage, London, 1960.
2. The North African Provinces from Diocletian to The Vandal Conquest, Cambridge, 1954.

Weigall, (A.), Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968.

Weill, (R.), Les IIe et IIIe Dynastie egyptiennes, Paris, 1908.

Wells, (H. G.),

1. The Outline of History, New York, 1865.
2. A Short History of The World, (Penguin Books), 1965.

Wendorf, (F.), The Prehistory of Nubia, I, II, Dallas-Texas, U. S. A., 1968.

Wilcox, (A. R.), Rock Art of Africa, New York, 1948.

Wilson, (J.),

1. The Libyans and The End of The Egyptian Empire, in AJSL, LI, 1935.
2. The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.
3. Hymn of Victory of Mer-ne-Ptah, ANET, 1966.

Yoyotte, (J.),

1. Anthroponymes d'Origine Libyenne dans les documents egyptiens, CRGLCS, 8, 1985.
2. Les Principautes du delta au Temps de L'anarchie Libyenne, Melanges Maspero, Paris, 1961.
3. Egypte Ancienne, Histoire Unverselle, Paris, 1965.

محتويات الكتاب

الباب الأول

عصور ما قبل التـاريخ

الباب الثانى

سـكان المغـرب القـديم

الباب الثالث

علاقات مصر بالشمال الافريقى

الباب الرابع

العصر الفينيقى

الباب الخامس

العصر القرطـاجى

مؤلفـــــــات

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

أولا ـ التاريخ المصرى القديم :

١ ـ الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية الاسكندرية ١٩٦٦
٢ ـ مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩
٣ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة القـــاهرة ١٩٧٦
٤ ـ اخناتون : عصره ودعوته القـــاهرة ١٩٧٩

ثانيا ـ فى تاريخ اليهود القديم :

٥ ـ التوراة (١) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٣ الاسكندرية ١٩٧٠
٦ ـ التوراة (٢) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٤ الاسكندرية ١٩٧٠
٧ ـ التوراة (٣) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٥ الاسكندرية ١٩٧٠
٨ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٦ الاسكندرية ١٩٧١
٩ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١
١٠ ـ النقـــاوة الجنســية عند اليهـــود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٨ الاسكندرية ١٩٧١
١١ ـ أخـــلاقيات الحـــرب عند اليهـــود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٩ الاسكندرية ١٩٧١
١٢ ـ التلمود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٧٠ الاسكندرية ١٩٧٢
١٣ ـ اسرائيل الجزء الاول ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
١٤ ـ اسرائيل ـ الجزء الثانى ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨

١٥ ــ اسرائيل ــ الجزء الثالث ــ الحضارة	الاسكندرية ١٩٧٩
١٦ ــ اسرائيل ــ الجزء الرابع ــ الحضارة	الاسكندرية ١٩٧٩
١٧ ــ النبوة والأنبياء عند بنى اسرائيل	الاسكندرية ١٩٧٩

ثالثا ــ فى تاريخ العرب القديم :

١٨ ــ الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الاصلى	الرياض ١٩٧٤
١٩ ــ العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة	الرياض ١٩٧٦
٢٠ ــ مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة	الرياض ١٩٧٧
٢١ ــ الديانة العربية القديمة	الاسكندرية ١٩٧٨
٢٢ ــ العرب والفرس فى العصور القديمة	الاسكندرية ١٩٧٩
٢٣ ــ الفكر الجاهلى	القاهرة ١٩٨٢

رابعا ــ فى تاريخ العراق القديم :

٢٤ ــ قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة	الرياض ١٩٧٦
٢٥ ــ قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة	الاسكندرية ١٩٧٩

خامسا ــ سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم :

٢٦ ــ الجزء الأول ــ فى بلاد العرب	بيروت ١٩٨٨
٢٧ ــ الجزء الثانى ــ فى مصر	بيروت ١٩٨٨
٢٨ ــ الجزء الثالث ــ فى بلاد الشام	بيروت ١٩٨٨
٢٩ ــ الجزء الرابع ــ فى العراق	بيروت ١٩٨٨

سادسا ــ سلسلة : مصر والشرق الأدنى القديم :

٣٠ ــ مصر ــ الجزء الأول	الاسكندرية ١٩٨٨
٣١ ــ مصر ــ الجزء الثانى	الاسكندرية ١٩٨٨
٣٢ ــ مصر ــ الجزء الثالث	الاسكندرية ١٩٨٨
٣٣ ــ الحضارة المصرية ــ الجزء الأول	الاسكندرية ١٩٨٩
٣٤ ــ الحضارة المصرية ــ الجزء الثانى	الاسكندرية ١٩٨٩
٣٥ ــ تاريخ العرب القديم	الاسكندرية ١٩٨٨
٣٦ ــ الحضارة العربية القديمة	الاسكندرية ١٩٨٨

٣٧ ــ بلاد الشـــام — الاسكندرية ١٩٩٠
٣٨ ــ المغـرب القـــديم — الاسكندرية ١٩٩٠
٣٩ ــ العـــراق القـــديم — الاسكندرية تحت الطبع

سابعا ـ سلسلة فى رحاب النبى ﷺ وآل بيته الطاهرين :

٤٠ ــ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الأول — بـــيروت ١٩٩٠
٤١ ــ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثانى — بـــيروت ١٩٩٠
٤٢ ــ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثالث — بـــيروت ١٩٩٠
٤٣ ــ السية فاطمة الزهـــراء — بـــيروت ١٩٩٠
٤٤ ــ الامام على بن أبى طـــالب — بـــيروت ١٩٩٠
٤٥ ــ الامام الحسن بن على — بـــيروت ١٩٩٠
٤٦ ــ الامام الحسن بن على — بـــيروت ١٩٩٠
٤٧ ــ الامام على زين العابدين — تحت الطبـــع

ثامنا : معجم البلدان الكبرى فى مصر والشرق الادنى القديم :

(بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين مختار) تحت الطبع

الفنية للطباعة والنشر
٤٨ شارع جودة - راس التين - الاسكندرية
تليفون ٨٠٣٢٥٠